دار الثقافة



الجزء الأول

دكتور فايز فارس

علم
الأخلاق المسيحية

دكتور القس فايز فارس



طبعـة أولى

صدر عن دار الثقافة ص ب ١٢٩٨ – القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)
١٠ / ٤٥٩ ط ١ جـ١ (أ) ٥ / – ٥ / ٨٧
رقم الايداع بدار الكتب : ٤٨٨٢ / ٨٧
طبع بمطبعة : دار نوبار للطباعة – شبرا – القاهرة

مقدمة

هو الأول من نوعه فى اللغة العربية الذى يعالج موضوع الأخلاق المسيحية باعتبارها علما ، فهناك العديد من الكتب عن الفضائل المسيحية لكن هذا الكتاب يتميز بدراسة الموضوع لا بأسلوب وصفى أو وعظى بل بأسلوب علمى .

فهو يدرس أسس السلوك والأخلاق المسيحية وعلاقتها بفلسفة الأخلاق ليبين مدى تميز الأخلاق المسيحية وسموها على كل النظريات ، ويتعرض إلى العلاقة بين الإيمان والعقل ليوضح أن لا تعارض بينهما .

وقد خصص المؤلف جزءاً خاصاً من كتابه للحديث عن الإنسان فى المسيحية مبيناً سمو الإنسان المخلوق على صورة الله والمزود بالقدرة على التمييز بين ما هو أخلاقى وما هو لا أخلاقى .

ولا ننسى أن نشير إلى الكاتب الذى قضى سنوات طوال يعد هذا الكتاب بل كان علم الأخلاق المسيحية هو موضوع رسالته للدكتواره فى اللاهوت ، وقد وضع الكاتب فى هذا المجلد ذوب قلبه وتفكيره . وإنك إذ تقرأه تحس بأنك قد ازددت ارتفاعاً وعمقاً فى علمك وروحانيتك .

نأمل أن تستمتع بهذا الكتاب وأن يدفعك لإعادة التفكير فى كثير من نواحى السلوك المسيحى على المستويين الفردى والجماعى .

دار الثقافة

فى هذا الكتاب

الباب الأول

مدخل إلى دراسة الأخلاق المسيحية

	صفحة
الفصل الأول : ماهية علم الأخلاق	
١ – موقع علم الأخلاق من سائر العلوم	٣
٢ – علم الأخلاق فى اللغة	٦
الفصل الثانى : الأخلاق فى التفكير الفلسفى	١١
١ – المذهب العقلى	١٢
٢ – المذهب التجريبي	١٤
(١) النفعيون	
(٢) التطوريون	
(٣) الوضعيون	١٥
(٤) مدرسة التحليل النفسى	١٦
٣ – المذهب الحدسيى	١٧
الفصل الثالث : الفلسفة الأخلاقية والأخلاق المسيحية	٢١
١ – الحاجة إلى أخلاق مسيحية	٢٢
٢ – سلطة الوحى وسلطة العقل	٢٣
٣ – علاقة الإيمان بالعقل	٢٦
٤ – مجال الأخلاق المسيحية ووظيفتها	٣١

الباب الثانى

الأساس الكتابى للأخلاق المسيحية

الفصل الأول : مصادر الأخلاق المسيحية

١ – الناموس والأنبياء ٣٩

٢ – صفات الله البر والرحمة ٤٧

٣ – أخلاقيات الكمال فى تعليم السيد المسيح ٥١

٤ – نظرية الأخلاق الانتقالية المؤقتة ٥٤

٥ – يسوع والناموس ٥٨

٦ – القيمة الأخلاقية لتعاليم المسيح ٦٠

الفصل الثانى : المحبة فى تعليم المسيح ٦٧

تمهيد

١ – محبتنا لله ٧٠

٢ – محبة القريب ٧٢

٣ – محبة النفس ٨١

٤ – المحبة والتسامح والمصالحة ٨٤

٥ – محبة الأعداء وعدم مقاومة الشر ٩٠

٦ – المحبة وعدم دينونة الغير

٧ – المحبة وعلاقة الزواج والأسرة ٩١

٨ – المحبة والنظرة إلى المقتنيات ٩٣

الفصل الثالث : الفكر الأخلاقى فى رسائل العهد الجديد ٩٥

تمهيد

١ – الأخلاق فى حياة المسيحين الأوائل ٩٦

٢ – بولس وأخلاقيات الحياة المفدية ٩٨
٣ – بولس والحرية المسئولة ١٠٢
٤ – بولس وأخلاقيات المحبة ١٠٤
٥ – الفكر الأخلاقى فى باقى رسائل العهد الجديد ١٠٨

الباب الثالث

الإنسان فى المسيحية

الفصل الأول : طبيعة الإنسان ١١٩
١ – النظريات المثالية إلى الإنسان ١٢٢
٢ – النظريات الطبيعية عن الإنسان ١٢٤
٣ – النظرة المسيحية إلى الإنسان
(١) الإنسان مخلوق ١٢٥
(٢) الإنسان على صورة الله ١٢٩
(٣)الإنسان كفرد فى المجتمع ١٣٥

الفصل الثانى : الإنسان خاطىء
١ – طبيعة الإنسان المزدوجة ١٣٩
٢ – عمومية الخطية ١٤١
٣ – طبيعة الخطية الجذرية ١٤٣
٤ – ما هية الخطية ١٤٦
٥ – الدوافع إلى الخطية ١٤٧
٦ – تفاوت قدر الخطايا ١٥١
٧ – هل الخطية أمر حتمى لا بد منه ١٥٤

الفصل الثالث : الإنسان وحياته المفتداة أو الحياة المسيحية ١٥٧

١ – الإيمان والغفران والمصالحة ١٥٨
٢ – التقديس ١٦٠
٣ – الحياة « فى المسيح » و « فى الروح » ١٦١
٤ – النعمة الإلهية وحرية الإنسان ١٦٣
٥ – الحياة المسيحية والكنيسة ١٦٦
٦ – حياة مشدودة دائماً ١٧٠

الباب الأول

مدخل إلى دراسة الأخلاق المسيحية

الفصل الأول

ماهية علم الأخلاق

عُرِض فى القاهرة فيلم عنوانه « الحكم آخر الجلسة » ، يحكى قصة شاب أحب فتاة حبا شديداً ، وانتهى بهما هذا الحب إلى الزواج ؛ وكانت الفتاة طبيبة ذكية درست الدكتوراه فى الطب متخصصة فى فرع الأمراض الوراثية . وحملت الطبيبة فكان هذا مصدر سعادة كبيرة لها ولأسرتها ولأسرة زوجها ، وكان الجميع يستعدون لقدوم الطفل المنتظر ويجهزون له ملابسه وألعابه وحجرته ؛ لكن حدث أن علمت الفتاة الزوجة عن طريق المصادفة ، بأن لزوجها أخاً مريضاً بمرض عقلى وراثى ، ومقيما بإحدى المستشفيات ، ثم أخذت تبحث فى سلسلة الأقارب . واكتشفت أن لزوجها عمّة مريضة بنفس المرض ، وأن شقيقة له كانت مريضة وانتحرت ؛ وهكذا تبين لها أن هذا المرض الوراثى يحاصر أسرة زوجها وأن الاحتمال الأكبر هو أن يكون الجنين الذى فى بطنها مريضاً بهذا المرض الذى لا يقضى على حياة المريض ولكنه يعذبه عذاباً شديداً – ففاتحت زوجها فى رغبتها فى أن تجهض نفسها ، اشفاقا على ذلك الوليد المنتظر ، ولكن زوجها رفض ، فقررت أن تفعل ذلك دون علم زوجها ؛ ولما حدث ذلك ثارت أسرة الزوج وعلى الأخص والده المتدين ، والذى كان ينتظر حفيداً له يحفظ استمرار شجرة العائلة . وأبلغ والد الزوج الأمر إلى النيابة متهما زوجة ابنه بجريمة الاجهاض ؛ لكن شقيقة الزوج وكانت محامية استطاعت أن تقدّر وجهة نظر زوجة أخيها ، فتطوعت بالدفاع

عنها رغم ثورة والدها العارمة عليها .

وهكذا يمضى الفيلم يسرد وجهة نظر والد الزوج المعارضة ، وينتهى الفيلم بأن يقرر القاضى أن « الحكم آخر الجلسة » ...

وهكذا يترك المخرج القضية دون أن يعلن رأيه فيها ، لتظل مجالاً للجدل والنقاش بين أصحاب الآراء المؤيدة والمعارضة .

هذا الفيلم نموذج لمشكلة أخلاقية يتعرض لها الإنسان والمجتمع .

يبحث الإنسان دائماً عن كنه حياته وعن أسرارها ويفكر مرات فى أسرار هذا الوجود ، ويتساءل عن علّة تصرفات الناس معه وتصرفاته معهم . هذا النوع من التفكير أمر طبيعى بالنسبة للإنسان ، إذ لا يمكن أن نتصور إنساناً دون تفكير .

وقد عرَّف علماء المنطق الإنسان بأنه « حيوان ناطق » أى « مفكر » ، واعتبروا أن هذا هو التعريف الجامع المانع للإنسان ، اذ أنه مكوَّن من الجنس القريب حيوان الذى يعتبر الإنسان فسيولوجيا وبيولوجيا أحد أنواعه ، ومن الفصل ناطق . و« الفصل » فى عرف المناطقة هو ما لا يمكن تصور الشيء بدونه ، أى أننا لا نستطيع أن نتصور الإنسان دون تفكير ، وهذا ما يميّز الإنسان عن سائر الحيوان اذ اختصَّ بنعمة العقل أى التفكير . وقد قال سقراط إن « من لا يختبر حياته ويفكر فى معناها لا يستحق أن يحيا » . وحتى الأقوام البدائية لها أسلوبها من التفكير ، وهو يعتمد على الخرافات إلى حد كبير ، لكنه – على أى حال – نوع من التفكير .

ومن جملة ما يخطر بفكر الإنسان ، جانب يتصل بما ينبغى عليه أن يعمله ، وما يتوقع من الغير أن يعملوه ، أو بتعبير آخر ما يختص بواجباته التى عليه أن يؤديها نحو نفسه ونحو الغير ، وما يختص بحقوقه التى يتوقع أن ينالها – وكثيراً ما ينظر الإنسان إلى أفعال الآخرين نظرة مشمولة بالحكم عليها سواء كان هذا الحكم استحسانا أو استهجانا . فإذا سلك الإنسان سلوكاً معينا نحكم عليه بأنه سلوك « أخلاقىّ » يستحق المديح مثل الشجاعة فى الاعتراف بالحق ، والوفاء للأصدقاء ، ورد الأمانة إلى أصحابها ؛ كما نحكم على سلوك آخر بأنه « غير أخلاقى » . وقد تتراوح هذه الأفعال بين الجوهرى والمهّم كالقتل والسرقة والغش مثلاً ، إلى

البسيط الذى قد يبدو فى نظر البعض تافهاً ، ولكن البعض الآخر يعتبرونه أساسياً ، مثل كسر نظام الطابور أمام شباك حجز تذاكر السكة الحديد ، أو اختلاس النظر إلى خطاب شخصىّ يقرأه الجالس بجوارك .

وتاريخ المجتمع الإنسانى حافلٌ بالنصائح التى أسداها الحكماء والمرشدون إلى الناس لتوجيههم نحو السلوك السليم . وقد كان الناس يتصورون أن علم الأخلاق هو مجموع هذه النصائح ، ومحاولة العمل بها – والواقع أن تطور تفكير الإنسان جعله لا يرضى أن يقف موقفاً سلبيا مكتفياً بقراءة هذه النصائح والارشادات ، ولكنه أصبح يفكر فى مضمون هذه النصائح ، **ولماذا** تقدَّم اليه ، **وما هو** الدافع إليها ، **وما الذى** يُلزمه بطاعتها ... وهكذا نرى أن الأخلاق أصبحت تفكيراً فلسفياً ، ولم تكتف بأن تكون إطاعةً لتفكير الغير ونصائحهم . لقد أصبح الإنسان يفكر فى المعايير أو المقاييس التى يحكم بها الفرد على عمل معيّن بذاته .

ومن الطبيعى أن يحاول الدارسون تعريف « علم الأخلاق » ، شأنهم فى ذلك شأن كل باحث فى أى علم من العلوم ، وقد حاول البعض أن يجدوا تعريفا مبسطا لعلم الأخلاق فعّرفوه بأنه « العلم الذى يبحث فيما ينبغى على الإنسان فعله » ، وهو تعريف قريب إلى الواقع لأنه يربط بين علم الأخلاق وإرادة الإنسان فى اختيار أفعاله . إلا أننا نلاحظ أن أنواع الاختيار ليست كلها بالضرورة مرتبطة بالأخلاق . فمثلا اختيار المالك لرسم هندسى معّين للمنزل الذى يريد بناءه ، لا يعتبر عملاً متصلا بالأخلاق بل بالناحية العملية والجمالية ؛ كذلك اختيار الفتاة لنوع ولون الرداء الذى تشتريه .

ولا نستطيع أن نقول إن العمل الأخلاقى هو الاختيار المتعلق بالغير فقط ، ذلك لأن بعض أنواع الاختيار المتعلقة بالغير لا نعتبرها عملاً أخلاقياً ، مثل اختيار الأب لنوع السكن الذى يسكنه ابنه المغترب ، والمفاضلة بين سكن وآخر ؛ كما أن بعض الاختيارات المتعلقة بالفرد ذاته ، تعتبر عملاً أخلاقياً مثل إدمان بعض العادات والمكيفات ، ومثل الكذب حتى إن لم يتعلق بالغير مثل رواية أعمال بطولية وهمية ينسبها الإنسان إلى نفسه على سبيل التفاخر .

إذاً فهناك أنواع من الاختيار نحكم عليها حكماً أخلاقياً ، وأنواع أخرى لا نحكم عليها حكماً أخلاقياً ... بل أن الأمر ليس بهذه البساطة إذ اننا كلما تعمقنا فى بحث مسألة اختيار ما من مختلف الزوايا ، شعرنا باختلاف الآراء بشأنها والحكم عليها طبقا لمعايير متنوعة .

لذلك فلنطرح جانباً محاولة البحث عن تعريف لعلم الأخلاق – ولو مؤقتاً – حتى تتضح لنا صورة هذا العلم فى نسبته إلى سائر العلوم ، وحتى نلقى نظرة إلى المعنى العقلى الذى تحمله إلى عقولنا لفظة « أخلاق » .

١ – موقع علم الأخلاق من سائر العلوم :

يمكن أن نقسم أنواع العلوم من حيث نظرتها إلى الوجود أو الحقيقة إلى نوعين :

١ – علوم وصفية ويسميها البعض وضعية وهى العلوم التى تصف الوجود كما تراه أو كما هو كائن Descriptive, Positive Sciences .

٢– علوم معيارية وهى التى تفكر فى الوجود أو الحقيقة كما ينبغى أن تكون Normative Sciences .

ومن المناسب أن نذكر بضعة أمثلة لهذين النوعين من العلوم .

(١) العلوم الوصفية :

أ – تبحث الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) فى الوجود فى ذاته أو جوهره أو بتعبير آخر تبحث فى الحقيقة المطلقة .

ب – تبحث الفيزياء ، والكيمياء ، والفلك ، والجيولوجيا ، والجغرافيا فى الوجود الطبيعى .

جـ – يبحث علم الحيوان وعلم النبات عن الحياة فى الوجود .

د – يبحث علم الإنسان (الأنثروبولوجى) وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم النفس ، فى بعض وظائف الحياة فى الإنسان .

هـ – يبحث علم الأجناس ، والتاريخ ، والعلوم الاجتماعية فى بعض الظواهر فى المجتمع ، وإن كان البعض يرون أن بعض العلوم الاجتماعية قد تتعدى مجرد البحث الوصفى إلى المعيارى عندما تتطرق فى بحثها إلى ما ينبغى أن يسود فى المجتمع من علاقات سليمة فى السياسة والاقتصاد .

(٢) العلوم المعيارية :

هذه العلوم متعلقة بالإنسان وبظواهر حياته النفسية والعملية – ومن المعروف أن الظاهرة النفسية لها ثلاثة جوانب واحد يتعلق بالإدراك ، والثانى بالوجدان ، والثالث بالإرادة .

فأنت ترى بعينيك وردة ، وتدرك من هذه الرؤية مع اللمس والشمّ ، أنها وردة ؛ ثم تشعر بوجدانك بجمال هذه الوردة وطيب أريجها ؛ ثم ترغب بإرادتك أن تقطفها لتضعها فى باقة ، أو تنقلها إلى أصيص فى بيتك ، أو تتركها فى الحديقة ليتمتع غيرك بجمالها وعطرها .

وأنت ترى شحاذاً مسكيناً ، تدرك من ندائه ومظهره مقدار حاجته ، فتعطف عليه

بوجدانك ، فتمد يدك إليه بمعاونة نقدية أو مادية ؛ أو تفكر فى وسيلة تعالج بها الفقر عند جميع الناس .

والعلوم المعيارية تضع المعايير أو المقاييس التى تضبط هذه الجوانب من حياة الإنسان :

(أ) فالتفكير السليم تضبطه قواعد **علم المنطق** ، الذى يرشد الإنسان إلى كيفية التفكير الخالى من الأخطاء ، فيعرف كيف يميّز بين الحق والباطل وكيف يتوصل إلى نتائج سليمة بالقياس والاستقراء . وعلم الحساب والرياضة نوع من المنطق .

(ب) وما يلتزم به الوجدان يحدده **علم الجمال** (Aesthetics) . وهو الذى يضع أسس التناسق والذوق فى الوجود الطبيعى والإنسانىّ .

(جـ) وما تلتزم به الإرادة يحدده **علم الأخلاق** إذ أنه يضع المعايير التى يحكم بها على السلوك الإنسانى .

كانت هذه محاولة لتحديد مكان علم الأخلاق بين العلوم الإنسانية ، ولاشك فى أن الفواصل بين العلوم ليست قاطعة وإنما تتداخل العلوم بعضها مع بعض ، كما أن تطور المدنّية ومشكلاتها ، تفتح مجالاً كبيراً لهذا التداخل كما سنرى فيما بعد .

(٢) علم « الأخلاق » فى اللغة :

من البديهيات أن اللغة تنقل المعنى ، وتعبّر عن القيم المختلفة للمعانى . لذلك كان من الضرورى أن نشير ولو بإيجاز إلى معنى اللفظ « أخلاق » فى اللغات المختلفة ، وفى اللغة العربية بالذات ، ذلك لأن المعنى الذى تنقله لغة بعينها إلى العقل ، قد يختلف عما تنقله لغة أخرى .

ففى اللغات الأوربية ، المشتقة من الأصول اللاتينية واليونانية ، توجد كلمتان تشيران إلى « الأخلاق » : الكلمة الأولى «MORALS » وهى مشتقة من اللفظ اللاتينى « Mos » ومعناها التعود على شىء ما .

والكلمة الثانية « ETHICS » وهى مشتقة من الكلمة اليونانية « ethos » ومعناها « سكن » أو « كرسى ثابت » ، والمعنى يشير أيضاً إلى الثبات أو الاعتياد فى السلوك[1] .

وقد اصطلح كثيرون من الناطقين باللغات الإفرنجية على أن يخصصوا الكلمة الأولى « Morals » لوصف أنواع السلوك الأخلاقى ؛ بينما استخدموا الكلمة الثانية « ethics »

للتعبير عن الأصول والأسس التى ينى عليها السلوك ، ويمكن ترجمتها « أسس الأخلاق » أو « النظرية أو النظريات الأخلاقية » أو تجاوزاً « الفلسفة الأخلاقية » .

وفى اللغة العربية تترجم الكلمتان السالفتا الذكر باللفظ العربى « أخلاق » وهى جمع « خُلُق » (بضم الخاء واللام) . وهى تعنى ملامح الشخصية كما تظهر فى السلوك — وأصل اللفظ من الفعل « خَلَق » ومعناه معروف وهو « أوجد » أو « أظهر إلى الوجود » — ومن هذا الفعل اشتقت عدة كلمات منها .

« خِلْقَة » (بكسر الخاء وسكون اللام) وهى تشير إلى الملامح أو الصورة الجسدية التى تميّز شخصاً عن آخر ؛ وكذلك « خُلُق » (بضم الخاء واللام) التى أشرنا إليها . وفى القواميس العربية يقال إن « خُلُق » (بضم الخاء واللام) هى الصورة التى اعتاد عليها الإنسان فى سلوكه ، أو صورة الإنسان من داخل نفسه . فكما أن « خِلْقة الإنسان » (بكسر الخاء وسكون اللام) تبين صورته الجسدية من الظاهر ، هكذا « خُلُق الإنسان » (بضم الخاء واللام) يبين صورة الإنسان من الداخل[٢] .

وينبغى أن نميّز بين استخدام لفظ « أخلاق » ، فى اللغة العربية ، واستخدام لفظ « آداب » ، فإن هذه الأخيرة تستعمل عادة لوصف الإنتاج الفكرى من شعر ونثر ورواية ؛ كما أن لفظ « الأدب » يستخدم أحيانا كتعبير تربوى يصف أسلوب التربية المشتملة على ثواب وعقاب وتشجيع وتأديب ، باعتبار أن التربية السليمة تقود إلى الخلق الكريم . كما أن « آداب » إذا أضيفت إلى « السلوك » تستخدم للتعبير عن أسلوب التعامل الظاهر فى مختلف المناسبات مثل الاستئذان عند الدخول ، وتقديم الكرامة لمن هم أهل لها ، والتحدث بصوت لطيف ، وعدم مقاطعة المتكلم ، وحسن السلوك على المائدة فى أثناء الطعام والشراب ، وغير ذلك من آداب السلوك ، والتى يطلق عليها بالانجليزية لفظ « Manners » ، وهى وإن كانت تعبر عن حسن الخلق لكنها تتعلق بظواهر التعامل ، ولا تتعمق إلى بعض جوهريات السلوك الإنسانى .

على أننا نلاحظ أن أغلب القواميس العربية تربط بين الأخلاق الفاضلة والحياة الدينية ؛ فالأخلاق عند الناطقين بالعربية مرتبطة إلى حد كبير بالدين ، بخلاف ما نجده عند الفرنجة ، فكثيرون يلتزمون بقواعد الأخلاق دون أن تكون لهم عقيدة دينية معينة . وقد عزا البعض هذا الاتجاه إلى التراث الدينى القديم عند هؤلاء القوم ، الذين وإن كانوا قد أعلنوا تحررهم فى الحاضر من بعض الاعتقادات الدينية ، لكن القيم الدينية ما زالت راسخة فى تراث حضارتهم .

وقد أجرى الكاتب دراسة خاصة وبحثاً ميدانياً بين عيّنة عشوائية من المصريين ضمت مسلمين ومسيحيين ، وظهر من هذه الدراسة أن جميع المصريين تقريباً يعتقدون أن من لا دين له ، لا أخلاق له ، وهذا يؤكد الارتباط الوثيق بين الدين والأخلاق فى مجتمعنا .

وقد جاء فى قاموس « محيط المحيط » ما معناه أن ملامح النفس الداخلية ، أى أخلاق الإنسان ، قد تكون صالحة أوشريرة ، وعلى أساسها يكون الثواب أو العقاب ، وأن خوف الله والخلق الكريم هما طريق الناس إلى الجنة ، لذلك جاء الأنبياء ليحققوا مكارم الأخلاق(٣) .

وقد كان من نتائج هذا الأرتباط الوثيق فى الفهم العربى بين الدين والأخلاق ، أن غالبية من يتساءلون عن مدى أخلاقية عمل معّين ، لا يكون سؤالهم : هل هذا العمل أخلاقىّ أم غير أخلاقىّ ؟ لكنهم عادة يسألون السؤال بصيغة أخرى وهى : هل هذا العمل حرام أم حلال ؟ وبديهى أن التعبيرين « حرام » و « حلال » لهما مدلول دينى لا يتسع المقام هنا للخوض فى البحث فيه ؛ إنما نكتفى بأن نذكر أن الكلمة « حرام » فى اللغة العربية لها فى الأصل مدلول طقسىّ . ففى العصر السابق للإسلام كان العرب يعتبرون بعض الأشياء أو الأماكن من « المحّرمات » أى أن لها « قداسة » خاصة ؛ وبذلك كانت الأشياء المحرّمة لا يجوز الاقتراب منها إلا فى مناسبات خاصة وبطقوس معينة ؛ وبذلك تكون الكلمة شبيهة بالكلمة العبرانية « مقدّس » . وبعد ظهور الإسلام احتفظت الكلمة بنفس المعنى فى بعض الاستخدامات مثل « الشهر الحرام » و « البيت الحرام » ، لكنها ابتدأت أيضاً تتخذ معنى آخر إذ تصف العمل الذى تنهى عنه الشريعة وتعاقبه ، وبذلك اتخذت الكلمة معنى أخلاقياً ، وأصبح الشخص المتمسك بالأخلاق هو الذى تنسجم حياته من الداخل مع مشيئة الله تعالى ، فيبتعد عن كلّ ما حرّمه الله ، ويسعى أن يعيش فى دائرة ما أحلّه الله ، أو سمح به(٤) .

الفصل الثانى

الأخـلاق في التفكير الفلسفى

قبل أن نتقدم لدراسة « الأخلاق المسيحية » . نرى لزاماً علينا أن نستعرض شيئاً من الأخلاق فى التفكير الفلسفى أو ما يسمى عادة بالفلسفة الأدبية أو الفلسفة الأخلاقية (Moral Philosophy) .

وقد أشرنا فى مستهل حديثنا إلى أنه من الطبيعى أن يفكر الإنسان فى أمور هذه الحياة التى يحياها ، فى علة الحياة ، وأسلوبها ، وهدفها إلى غير ذلك ؛ ولابد أن يتعرض الفكر الإنسانى لقضايا الأخلاق . وقد كان الفلاسفة الأولون يفكرون فى كل شيء تقريباً ، وفى كل العلوم معاً ، وكان من بين مباحثهم رأيهم فى الأخلاق . ولا نجد هذا الرأى منفصلا عن رأيهم فى الوجود أو الطبيعة أو السياسة ، فإن تفكيرهم كان مرتبطا بعدة موضوعات يترتب أحدها على الآخر . على أن الفلاسفة المحدثين صاروا أكثر تبويباً لتفكيرهم ونظرياتهم . وأهم ما شغل الفلاسفة هو مصدر الإلزام الخلقى ، وهل هو فى سلطة خارج الذات كالعرف والتقاليد وشرائع الأديان والقوانين الوضعية التى تضعها الدول لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، أم هو فى سلطة داخل الذات مثل العقل أو الضمير . وفى هذا المجال فكر الفلاسفة قديماً وحديثاً . وقد اتسع التفكير فى الأخلاق بشكل واضح وتعددت المذاهب

والنظريات فيه ، مما يجعل محاولة تلخيصها تتعرض لكثير من القصور ؛ كما أن مجرد سرد النظريات دون مناقشة كافية لها يجعل الفكر مبتوراً . إلا أننا وإن كنا لا نستطيع الاسهاب فى هذا الجانب لأنه ليس هدفنا من هذه الدراسة ، لكننا نحاول كتمهيد لدراسة الأخلاق المسيحية أن نلقى ضوءاً على أهم المذاهب الأخلاقية فى التفكير الفلسفى ، قبل أن نحاول الحديث عن ضرورة وجود فلسفة خاصة للأخلاق المسيحية .

ويمكننا أن نقسم المذاهب الفلسفية التى تعرضت لبحث مصدر الإلزام الخلقى إلى ثلاث مذاهب رئيسية :

المذهب العقلى : ويرى أصحابه أن مصدر الإلزام الخلقى هو العقل لأنه يميز الإنسان عن كل من الحيوان والنبات .

المذهب التجريبى : ويرى أصحابه أن مصدر الإلزام الخلقى سلطة خارج الذات كالعرف أو القانون ، نعرفها بالتجربة ، وأن الأخلاق هى نتيجة الإتصال بالمجتمع .

المذهب الحدسى : أو مذهب البصيرة أو الإدراك المباشر : ويرى أصحابه أن مصدر الإلزام الخلقى بصيرة مباشرة فطرية تميّز بين الخير والشر ، وأن الأفعال فى ذاتها خير أو شر رغم نتائجها .

أولاً : المذهب العقلى :

ويقول أصحابه إننا لا يمكن أن نضع التزامات أخلاقية وواجبات على الحيوان أو النبات أو الجماد ، فنحن ننتظر السلوك الخلقى من الإنسان لأن لديه عقلاً :

كان أول من اتجه إلى هذا التفكير هم اليونان آباء الفلسفة . فقد عارض **هرقليطس** جماعة السوفسطائيين الذين قالوا إن قوانين الأخلاق هى من اختراع الضعفاء لحمايتهم ، وإن الإنسان مقياس الأشياء جميعها . فالخير عندهم هو ما يراه الإنسان خيراً ، والشر هو ما يراه شرّاً ، حسب ما تمليه عليه أهواؤه وشهواته . فقال هرقليطس رداً على ذلك إن الفعل النبيل هو ما يخضع لقانون العقل .

ثم جاء **سقراط** فقال إن الطبيعة الإنسانية عقلٌ وهوى ، ويجب تغليب العقل على الشهوة ، ومن يخالف نداء العقل يُعاقَب فى الحياة الأخرى . وكان سقراط يجول بين الناس يسألهم أسئلة محيّرة حتى يصلوا بأنفسهم إلى المعرفة الصحيحة ، وكان شعاره أن كل من

يعرف أنه كائن عاقل مفكر لابدَّ أن يحب الخير ويعمله ؛ ومن أدرك أن الشرَّ يتنافى مع طبيعته ، تركه ونفر منه .

ثم جاء **أفلاطون** فميَّز بين الجانب العاقل فى الإنسان ، والجانب الحسىّ فيه ، وقال إن صراعاً يحدث دائماً بين العقل والشهوة ، ولذلك فواجب الإنسان أن يتحرر من قيود الجسد ، ويتشبّه بالآلهة بقدر الإمكان ، ويُخضع الشهوات لصوت العقل وبذلك يتحقق الخير الأقصى للإنسان وهو السعادة .

ثم جاء **أرسطو** فتوسع فى شرح نظريته فى الأخلاق ، فقال إن لكل موجود وظيفة يؤديها وبمقدار أدائه لها يكون كماله . فوظيفة النبات هى النمّو ، ووظيفة الحيوان هى الحسّ ، ووظيفة الإنسان هى العقل . لذلك فكمال الإنسان لا يكون إلا بالتفكير السليم والتأمل العقلى والحكمة وفيها السعادة . وما دامت طبيعة الإنسان مزيجاً من العقل والحس ، فواجب العقل هو السيطرة على شهوات الجسم دون إماتتها ، والعقل هو الذى يضع القانون الأخلاقى .

وبعكس سقراط الذى قال إن الإنسان يعمل الفضيلة بمجرد علمه بها ، قال أرسطو إن الفضيلة تكتسب بالمران ، وقد وضع أرسطو تعريفه المشهور للفضيلة بأنها « مَلَكَة اختيار الوسط العَدْل بين إفراط وتفريط كلاهما رذيلة » – فالمَلَكَة قدرةٌ فطرية ولكنها تنمو بالتدريب ؛ والوسط العدل ليس معناه الوسط الحسابى ولكنه الوسط الملائم – فأحياناً تكون الفضيلة أقرب إلى أحد الطرفين : الإفراط والتفريط ؛ فمثلاً الشجاعة وسط بين التهور والجبن ، وهى أقرب إلى التهور ؛ والكرم وسط بين الإسراف والبخل وهو أقرب إلى الاسراف ؛ بينما العفة وسط بين الاستهتار والجمود وهى أقرب إلى الجمود .

ثم جاء **الرواقيون** فتطرفوا فى الهجوم على الجانب الحسّى من الإنسان واحتقروا اللذات والمباهج ، وطالبوا بإنكار الذات وقمع النفس ورغباتها ، وأرشدوا الناس إلى ضبط الانفعالات والأهواء . والحكيم فى نظرهم هو من يتحرر من الأهواء والشهوات ، وأما الذى لا يتحرر منها فهو سفيه ضال ، ولا وسط بين الحالين .

وقال الرواقيون إنك إذا لم ترجُ شيئاً فلن يخيب لك أمل ؛ وإذا لم تتطلع إلى أن تملك شيئاً ، فلن يسرق إنسان حظك . وبينما كان معارضوهم من **الأبيقوريين** يرون أن هدف الحياة هو اللذة الشخصية ، قالوا هم إن واجب الإنسان هو أن يميت فى نفسه كل رغبة .

وهكذا نرى أن أنصار المذهب العقلى اتفقوا على أن العقل هو مصدر الإلزام الخلقى ، لكن

منهم من أسرف فى تقديره للعقل واحتقر الجانب الحسّى واتجه نحو الزهد الشديد ؛ ومنهم من كان معتدلاً ونادى بضبط الرغبات لا إماتتها .

ثانياً : المذهب التجريبى :

وأصحاب هذا المذهب يتفقون فى أن المثل العليا هى وليدة الظروف الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، لكنهم اختلفوا فيما بينهم وصاروا عدّة مذاهب نذكر منها المذهب النفعى ، والتطورى ، والوضعى ، ومدرسة التحليل النفسى .

(١) النفعيون :

وعندهم إن فلسفة الأخلاق تدرس طريق الوصول إلى الخير الأقصى وهو السعادة . والسعادة حسب رأيهم فى اللذة ، فإن الإنسان بطبعه أنانىّ يطلب اللذة . إلا أن المذاهب النفعية اختلفت فيما بينها فى معنى السعادة ؛ فبينما قال جماعة **الأبيقوريين** إن السعادة هى فى اللذة الشخصية ، وشعارهم « نأكل ونشرب لأننا غداً نموت » ، جاء آخرون من الفلاسفة المحدثين مثل بنتام ، وجون ستيوارت مل ، قالوا إن السعادة هى تحقيق اللذة لأكبر عدد ممكن من الناس فى المجتمع . والعقل يكون خيراً إذا حقق لذّةً ، وشرّاً إذا حقق ألما ، والحكم فى ذلك للتجربة العملية – ومصدر الإلزام الخلقى عندهم هو الطمع فى الثواب والخوف من العقاب ... وعندهم إن الجزاءات متنوعة فمنها الجسمى ، ومنها الاجتماعى ، والسياسى ، والدينى ؛ وأضاف اليها الفيلسوف جون ستيوارت مل الجزاء الباطنى الذى يشعر به الإنسان فى أعماق نفسه ، والذى يعبّر عنه البعض بأنه راحة الضمير أو سلام النفس .

وقد انتقد بعض المفكرين هذا المذهب ، فقالوا إن الإنسان يسعى بطبعه نحو اللذة والمنفعة ، وإن الأصل فى الإلزام الخلقى أنه ينشأ من تعارض بين عاملين ، كعامل العقل وعامل الشهوة مثلاً ؛ فإذا كانت حياة الإنسان تهدف إلى مجرد تحقيق المنفعة فهذا أمر طبيعى ولا مكان فى هذا المذهب للإلزام ، ولا معنى للأخلاقية . كما قال الناقدون إنه وإن كان ليس من الضرورى أن تتعارض الأخلاق مع اللذة ، إنما ينبغى أن يدرّب الإنسان نفسه ليجد اللّذة فى عمل الفضيلة والخير ، لا العكس أى لا أن يجد الخير والفضيلة فى الحصول على اللذة .

(٢) التطوريون :

وقد نشأ هذا المذهب بعد شيوع نظرية « دارون » فى التطور وأصل الكائنات الحية (١٨٨٢) وما تتضمنه من نظام النشوء والارتقاء ، والاختيار الطبيعى ، وتنازع البقاء ،

والبقاء للأصلح أى الأقوى . وقد حاول بعض الأخلاقيين تطبيق هذه النظرية على الأخلاق ، فقالوا إن المُثُل العليا للجماعات فى صراع متطور مستمر ، ويبقى منها الأصلح ، وما لا يلائم المجتمع منها يندثر . وقال أصحاب هذا المذهب إنه وان كانت السعادة هى الهدف والغاية ، لكنها هدف بعيد ، ومعناه القريب هو تلاؤم الفرد مع المجتمع ؛ فالسلوك الصالح هو ما يحقق الانسجام بين الإنسان والمجتمع ، والسلوك غير الصالح هو ما يؤدى إلى تعارض بين مطالب الفرد ومطالب البيئة . لذلك فإن وسيلة الأخلاق هى العدالة لضمان أن كل فرد يؤدى واجبه ولا يعتدى على حقوق الغير . وقد نادوا بنفس الجزاءات الاجتماعية والدينية والجسمية والسياسية والباطنية التى نادى بها النفعيون ، مع الاهتمام الأكثر بالجانب الاجتماعى ، وقالوا إن الفرد يرث فكرة الواجب عن أجداده ، وما المثل العليا إلا عادات اكتسبها الجنس البشرى بالتجربة ، وبمرور الزمن تختفى السلطة الخارجية ، ويصير الإلزام كأنه فطرى . وزعيم هذا الفكر هو هربرت سبنسر .

والنقد الذى يمكن توجيهه إلى هذا المذهب قريب مما وجهناه إلى المذهب النفعى ، فهو لا يضع مُثلًا عليا يهدف إليها الإنسان ، بل هو عبارة عن دراسة تاريخية فحسب ، وما دام التطور سيحدث دون جهد ، فإن الإلزام الخلقى فى هذه الحالة يختفى .

(٣) الوضعيون :

لقد أنكرت الفلسفة الوضعية الميتافيزيقا أى ما وراء الطبيعة . وعلى هذا الأساس قال الوضعيون إن علم الأخلاق علم وضعي يدرس ما هو كائن من تقاليد وعادات وأعراف فى الجماعات البشرية ، وبذلك يكون فرعاً من علم الاجتماع أو علم الإنسان . وقد أنكر قادة هذا المذهب ومنهم أوجست كومت ، ودوركايم ، وليفى بريل ، أن علم الأخلاق علم معيارى أى يبحث فيما يجب أن يكون عليه السلوك ، بل قالوا إنه يبحث فيما عليه السلوك فعلاً . والظاهرة الخلقية عندهم ليست من صنع الفرد ، بل يتلقاها الفرد عن المجتمع ، ويخضع لها ، ومن يخرج عليها ينقم عليه المجتمع ؛ وإذا خضع الفرد بإرادته لسلطان المجتمع ، فهذا ليس دليلاً على أن الإلزام صادر من ذاته ، بل دليلاً على شعوره بأنه يستفيد من وجوده فى المجتمع أكثر من انعزاله عنه . والإلزام الخلقى هو القواعد العامة التى ارتضاها المجتمع كما تنعكس على الضمير . وشروط العمل الخلقى أن يؤديه الفرد حسب قانون مفروض ، وأن يقوم على الغيرية والتضحية ، وأن يكون صادراً عن إرادة .

وهكذا نرى أن هذا المذهب يصف الواقع ويقرره ، فلا يرتقى إلى وضع مُثل عليا أمام

الإنسان ليسعى نحوها ويتسامى فوق نفسه ليحققها ، كما أنه يغالى فى إظهار سلطة المجتمع مما جعل بعض معارضيه مثل كارليل يغالى فى إظهار أن الأفراد هم الأبطال الذين على أساس جهادهم ارتقى المجتمع . والواقع إن هناك تفاعلاً وتأثيراً متبادلاً بين الفرد والمجتمع ، ولا ينبغى المغالاة فى أحد الاتجاهين .

(٤) مدرسة التحليل النفسى :

زعيم هذا المذهب هو العالم النمساوى سيجموند فرويد . وقد كان يبحث فى علم النفس ولم يكن قصده البحث فى علم الأخلاق .

اهتم فرويد بتحليل رغبات الإنسان وتفسير سلوكه وشذوذه . وخلاصة هذا المذهب هى أن الشعور بالذنب ، والرغبة فى عمل الخير ، سببها أحداث الطفولة والتعاليم الدينية والخلقية التى يتلقاها الطفل من أصحاب السلطة عليه ، مثل الوالدين ، ومعلمى المدرسة ، ورجال الدين ، وغيرهم .

ولمدرسة التحليل النفسى نظرية فى تكوين العقل الإنسانى والصراع النفسى ، فهم يرون أن قوى النفس تتكون مما يأتى :

(أ) الذات السفلى ، ويرمز إليها باللفظ «id» وتترجم أحياناً الـ « هو » وهى عبارة عن مجموع الدوافع الفطرية العمياء التى لا تشعر بقوانين المجتمع الخلقية والأدبية ، ولا تميّز بين الخير والشر ؛ لكنها فى نفس الوقت مصدر الطاقة والنشاط الإنسانى . ويغلب على الذات السفلى مبدأ اللذة . والطاقة التى تكتنزها والمستمدة من الدوافع البيولوجية الأولية ، ضرورية لحب الحياة والبقاء ، ويطلق عليها لفظ « اللبيدو » (Libido) .

(ب) الذات الواقعية ويرمز إليها باللفظ «ego» أو « الأنا » وهى جزء من الـ « هو » (id) ، لكنه متصل بالعالم الخارجى ويعرف الواقع ومتطلبات المجتمع ، لذلك فهو يعمل على حفظ التوازن بين رغبات الذات السفلى (id) وبين قوانين العالم الخارجى . وهى سبب الكبت الذى يصيب الإنسان عندما يعجز عن الملائمة بين رغبات الذات السفلى وقواعد اللياقة أو قوانين العالم الخارجى .

(جـ) الذات العليا أو الأنا العليا (Super - ego) وهى تتكون عندما يجد الطفل نفسه محاطا بمن يعلمونه أن يعمل هذا ويترك ذاك ، ومن مجموعة هذه الأوامر والنواهى تتكون الذات العليا وتتحول إلى سلطة داخلية تلقائية تراقب الذات الواقعية وتلومها لأتفه

الأسباب إذا ما خالفت ما هو موجود فى الذات العليا من مبادىء وقيم .

هذه الذات العليا هى مصدر الإلزام الخلقى عند الفرد ، ومحاولة الخروج عليها هى سبب الصراع النفسى .

إن الذات الواقعية تكون فى موقف لا تُحسد عليه ، لأنها تحتاج إلى الطاقة الموجودة فى الذات السفلى ، وتريد أن ترضيها ، ولكنها فى نفس الوقت تصطدم بالعالم الواقعى وقوانينه ، فإذا فكرت أن تخالفه أو تجد وسيلة خفية للتحرر من تلك القوانين ، ألهبتها الذات العليا بسياط التقريع والتأنيب ...

ولعلنا نرى أن هذا المذهب ، وإن كان يلقى ضوءاً على طبيعة النفس الإنسانية ، إلا أنه أهمل الجانب الروحى ، واعتبر كل القيم وليدة التربية . وإن كان بعض من جاءوا بعد فرويد ، عدّلوا من نظريته وقالوا إنها وليدة العقل الباطن الجماعى أو حصيلة خبرة الجنس البشرى وتجاربه (Collective Unconsciousness) وهذا ما نادى به كارل يونج .

لقد ركزت مدرسة التحليل النفسى اهتمامها كما فى الذكريات المؤلمة وبخاصة فى الطفولة ، والرغبات الجنسية ، ونادى بعضهم بالتحرر من القيود منعاً للكبت ، وربما ينسب إليهم الكثير مما نشاهده اليوم من محاولة التحلل والتحرر من قيود وتقاليد المجتمع . إلا أن كثيرين منهم وهم مقتنعون بضرورة وجود ضوابط للسلوك ، اهتموا بعلاج العقد النفسية المترسبة فى العقل الباطن وتفننوا فى وسائل علاجها ، دون استخفاف بالقواعد الخلقية .

ثالثاً : المذهب الحدسى :

يجب أن نوضح فى بدء حديثنا عن هذا المذهب ، أن المقصود « بالحدس » هنا ليس « التخمين » أو « الظن » ، ولكن « الحدس » فى علم الأخلاق تعبير اصطلح عليه فى ترجمة الكلمة الانجليزية والفرنسية «Intuition» والمقصود به « **الإدراك المباشر** » أو « **البصيرة** » . فهو ليس الإدراك عن طريق الحواس ، كما أنه ليس الإدراك عن طريق التأمل العقلى . وإنما هو الإدراك عن طريق بصيرة فطرية عند الإنسان أشبه بالإلهام ؛ هذه البصيرة الفطرية تدرك ما يسمى بالبديهيات دون ما حاجة إلى برهان عقلى . ونحن نعلم من مبادىء الرياضة أن النظريات الهندسية يمكن البرهنة عليها ، ولكن البديهية لا تحتاج إلى برهان . ومن أمثلة البديهيات عدم وجود شخص واحد بنفسه فى مكانين مختلفين فى وقت واحد ؛ كذلك من البديهيات أن الشيء المساوى لآخر ، يساوى شيئاً ثالثا يكون مساوياً للثانى .

وإذا كان العقليون قد قالوا إن الإلزام الخلقى يرجع إلى التأمل العقلى أو تشغيل الفكر ؛ وإذا كان التجريبيون قد قالوا إن الإلزام الخلقى يرجع إلى اتصال الفرد بالمجتمع ، فإن الحدسيين يقولون إن الإنسان مزوَّد بتلك القوة الفطرية التى تهديه إلى أن هذا الفعل شر فيتجنبه ، أو خير فيفعله . ودليلهم على ذلك أن الأطفال ، وغير المتعلمين ، يصدرون على الأفعال أحكاماً خلقية بلا تردد .

فقد قال « **شافتسبرى** » إن الإنسان يولد وبه حاسة خلقية تميِّزه عن الحيوان ؛ وهى لا ترجع إلى العقل بل إلى العاطفة والوجدان . هذه الحاسة تميِّز بين الخير والشر دون نظر إلى ثواب أو عقاب ، وتتقوى بالمران والتدريب والبيئة الصالحة ، وتضعف أو تضيع بالإهمال .

وقد وحَّد أصحاب هذا المذهب بين الخير والجمال ، فالإنسان يحب الفضيلة لذاتها كما يحب المنظر الجميل لما فيه من جمال ، دون نظر إلى منفعة ما . هذه الحاسة التى تحب الخير والجمال هى مصدر الإلزام الخلقى .

ومن مميزات هذا المذهب أنه استبعد الأنانية والمنفعة كأساس للخير ، وجعل معنى الخير والشرّ واحداً بالنسبة لجميع الناس ، وأحيا الجانب الوجدانى العاطفى فى الفضيلة ، فلم يجعلها عقلية جافة كما عند العقليين . إلا أننا نأخذ عليه أنه اكتفى باعتبار الحكم على الأعمال من مجرد طبيعتها ، متجاهلاً دوافعها أيضاً . صحيح إن فى طبيعة الأعمال ما يحدّد خيرها وشرَّها ، لكننا يجب أن نضع فى اعتبارنا الدوافع والبواعث إليها ؛ فالعطاء خير ، إلا أن من يتبرع لعمل خيرى بدافع اكتساب الشهرة ، أو الفوز فى انتخابات مثلاً ، فإن حكمنا عليه يختلف عن حكمنا على من يتبرع لمجرد الرغبة فى عمل الخير ، مع أن العطاء واحد فى الحالتين .

كما أن هذا المذهب وحَّد بين الخير والجمال ، فاعتبر أن كلَّ خيِّر جميل ، وأن كل جميل خيِّر ، بينما فى الواقع أن هناك أعمالاً خيِّرة ليس فيها شىء من الجمال ، مثل بعض العمليات الجراحية وما يصاحبها من معاناة ؛ كذلك توجد أشياء ظاهرها جميل ، لكنها ليست من الخير فى شىء ، مثل الاعلانات الإذاعية والتلفزيونية عن التدخين .

وقد نادى أحد أنصار مذهب الحدسيين وهو الأسقف بتلر (Butler) بأن الضمير ليس حشداً من الوجدانات والعواطف ، لكنه اعتبر الضمير مَلَكة أو قدرة عقلية فطرية مقدسة لها وظيفتان : التشريع ، ثم الحكم على الناس وتنفيذ هذا الحكم باللوم والتقريع عن طريق وَخَزَات الضمير . لقد درس (بتلر) طبيعة النفس الإنسانية قبل أن يدرسها (فرويد) ورأى أن النفس تتكون من ثلاثة جوانب هى :

(١) مجموعة الأهواء والمشاعر أو الدوافع الإنسانية (التى كان يطلق عليها من قبل اسم الغرائز) كالغضب والجوع والرغبة الجنسية .. الخ .

(٢) باعثان على العمل يعملان معاً وفى اتجاهات متعارضة ، هما حب الذات (الأنانية) وحب مساعدة الغير (الغيرية) .

(٣) الضمير وهو الذى يحدد اشباع الدوافع وينظمها لتحقيق الأنانية والغيرية .

والكمال الخلقى فى تقديره هو فى إخضاع الدوافع الطبيعية لمبدأى الغيرية والأنانية ، ثم إخضاع هذين المبدأين لسلطة الضمير . والضمير قوة عاقلة تميّز الإنسان عن الحيوان . ونتيجةً لوجود هذا الضمير عند الإنسان يكون « الإنسان قانوناً لنفسه » ؛ إلا أن هذا التعبير قد استخدامه من قبل جماعة السوفسطائيين الذين عارضوا المذهب العقلى ، لكن الفرق بين استخدام هذا التعبير عند السوفسطائيين واستخدامه عند أصحاب مذهب الضمير الحدسى ، فرق كبير للغاية . فقد اعتبر السوفسطائيون أن الإنسان قانوناً لنفسه على أساس الرغبات والشهوات ، بينما يقول الحدسيون إن الضمير قوة عاقلة توازن بين الأفعال ، ولأن الضمير موجود داخل الإنسان ، فإن الإنسان يصير بذلك قانوناً لنفسه .

والواقع أن مذهب الضمير الحدسى أقرب المذاهب الحدسية إلى علم النفس ، وفى نفس الوقت نجد معنى الأخلاق فى هذا المذهب أسمى من الأخلاق عند التجريبين الذين أنكروا فطرية الضمير ، وجعلوه وليد الظروف الاجتماعية . على أننا نجد بعض الفلاسفة مثل برتراند رسل ينكر أن الضمير واحد فى كل الناس بدليل أن بعض الناس يحكمون على عمل ما بأنه خيِّر ، بينما يحكم البعض الآخر على نفس العمل بأنه شر ...

والحقيقة أن كل مذهب فلسفى فى الأخلاق ينظر إلى الأمر من ناحية معينة ويهتم بها ، ربما على حساب النواحى الأخرى التى يتعرض المتحمسون – لتأكيد رأيهم – لأن يغفلوها .

لقد استعرضنا فى هذا الفصل عينات موجزة من مذاهب الفلسفة الأخلاقية(٥) ، لتعين الدارس المبتدىء على معرفة معالم الطريق فى هذا الميدان المتسع ؛ ولتعطى للقارىء العادى فكرة عما يدور فى فكر الفلاسفة فى هذا المجال ، وذلك كلّه تمهيداً لدراسة الأخلاق من وجهة نظر مسيحية .

ونحن نعترف بقصور هذا الموجز عن تبيان كل الفكر الأخلاقى فى الفلسفة ، بما فيه من ثراء وخصوبة فى النظريات والتفاصيل ، ونحيل الراغبين فى التوسع ، إلى كتب المتخصصين فى هذا الميدان وما أكثرها .

الفصل الثالث

الفلسفة الأخلاقية
و
الأخلاق المسيحية

مررنا مروراً سريعاً بنظريات الأخلاق فى الفكر الفلسفى ، ثم لا بُدَّ أن نسأل أنفسنا : أين تدخل المسيحية وسط هذه النظريات ؟ وهل من ضرورة تحتم وجود علم للأخلاق المسيحية متميزاً عن الفلسفة الأخلاقية ؟ وهل تعتبر المسيحية فلسفة أخلاقية أخرى تضاف إلى غيرها من فلسفات الأخلاق ؟

لقد تصوّر البعض أن الأخلاق المسيحية هى مجرد اقتباس بعض النظريات الملائمة لطبيعة وتعاليم المسيحية من بين النظريات الأخلاقية ، ووضع المثاليات المسيحية كهدف لها ؛ وقال البعض إن المسيحية تقترب من مذهب الضمير الحدسى ، لأنها تقول إن الله وضع فى الإنسان ضميراً يسبق الناموس ويميّز بين الخير والشر . وقد كتب بولس الرسول أن « غير اليهود من الأمم الذين بلا شريعة ، إذا عملوا بالفطرة ما تأمر به الشريعة ، كانوا شريعة لأنفسهم مع أنهم بلا شريعة ، فيُثْبتون أن ما تأمر به الشريعة مكتوب فى قلوبهم وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم فهى مرةً تتهمهم ومرةً تدافع عنهم » . (رسالة رومية ٢ : ١٤ ، ١٥ الترجمة العربية الجديدة) .

إلا أن كل هؤلاء ينظرون إلى المسيحية بإعتبارها شريعة معينة من الشرائع ؛ والواقع إن

المسيحية قبل أن تكون شريعة ، هى إعلان إلهىّ بيِّن وأظهر ما عمله الله لأجلنا على الصليب في المسيح يسوع . ونحن نقرأ هذا الإعلان فى الكتاب المقدس الذى يحتوى على تشريعات أعطاها الله للأمة اليهودية ، وأعلن بها شخصه وطبيعته وما ينتظره من المؤمنين به ؛ وصحيح إن العهد الجديد يحتوى على مجموعة كبيرة من التعاليم الأخلاقية ؛ إلا أن كل العهد القديم كان إعداداً وتمهيداً للإعلان الأكمل فى شخص الرب يسوع المسيح ؛ وتعاليم العهد الجديد مبنية على هذا الإعلان وناتجة عنه .

وإذا كان هناك تقارب بين فكر أصحاب مذهب الحدس أو البصيرة ، وبين ما ذكره بولس الرسول عن الضمير عند من لا شريعة لهم ، فإن الأخلاق المسيحية شيء فوق الحدس أو البصيرة ، إنها ناتجة عن الفداء الذى عمله الله فى المسيح ، والمصالحة معه والحياة الجديدة فى الروح القدس .

أولاً : الحاجة إلى الأخلاق المسيحية :

إن الفلسفة الأخلاقية لها محدوديتها ، ومن هنا تظهر الحاجة إلى الأخلاق المسيحية لأسباب كثيرة نوجز منها ما يلى :

(١) إن الفلاسفة الأخلاقيين بحثوا ودرسوا ليكتشفوا ما هو خير للإنسان ، وما هو واجب على الإنسان أن يعمله ، لكنهم نادراً ما استطاعوا أن يوقظوا فى قلوب الناس الرغبة فى محبة الخير ، ولم تخلق الفلسفة الأخلاقية فى البشر دافعاً يحفِّزهم على حب الآخرين وحبّ الخير . إن العقل وحده ليس كافياً ليوجد هذا الحافز ، بل ينبغى أن تتحرك الإرادة والعواطف لتسير فى نفس الاتجاه مع ما يمليه العقل . والإنسان كثيراً ما يجد نفسه فى مأساة بولس الرسول التى رواها فى رسالة رومية أصحاح ٧ ، فهو يعرف الخير ولكنه يجد نفسه مدفوعا لعمل الشر ، وهو يقف عاجزاً عن تحقيق ما تمليه عليه قواعد الأخلاق . إذاً فهو فى حاجة إلى التغير .

هذه هى النقطة الجوهرية الأولى التى تجعل أخلاقيات المسيحية نابعة من الحياة المجدَّدة بنعمة الله ، وليست نابعة من الحياة العقلية أو البصيرة الفطرية .

(٢) وثمة عامل آخر يظهر قصور الفلسفة الأخلاقية فى أسعاد الإنسان وخيره ، والحاجة إلى المسيحية . فإن محاولة الإنسان ليكون فاضلاً معتمداً على قواه الذاتية إنما هى محاولة محفوفة بكثير من المخاطر الأخلاقية . فالإنسان معرَّض للكبرياء نتيجة لاعتقاده أنه يعمل

الفضيلة ؛ هذا فضلا عن أن النظرة الذاتية الطبيعية فى الإنسان ، تمسخ الفضائل أحياناً وتحولها إلى وسائل لتحقيق النفع الذاتى ، لا غايات فى حد ذاتها ؛ والمغالاة فى المسعى نحو الفضيلة دون وجود قوة روحية لتحقيق هذا المسعى ، قد تسبّب توتراً نفسياً للإنسان قد يؤدى إلى انهياره ؛ لذلك فكثيراً ما نجد أن الإنسان المجاهد لتحقيق المثل العليا يتصرف تصرفا خشناً جامداً يفتقر إلى نعمة الشعور بالاتضاع والحاجة إلى الغفران . وفى المسيحية دواء لهذا الداء إذ أن الفكر الجوهرى فى المسيحية هو أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى الفضيلة بجهده الذاتى ، لكنه يأتيها كثمر لعمل روح الله فيه ، وهو دائماً يشعر بمديونيته للمسيح وعمله الفدائى ، وهذا يكسبه احساساً بالتواضع ، وشفقة على الضعفاء ، وشعوراً دائماً بالحاجة إلى قوة الله .

(٣) وهناك حقيقة ثالثة ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، وهى أن الفلسفة الأخلاقية تقدم لنا نظريات ، بينما نرى فى المسيحية « تجسّداً » للمبادىء الأخلاقية فى حياة السيد المسيح ، وهذه الحقيقة تلهم الإنسان وتدفعه إلى الاقتداء به .

إن الفلسفة الأخلاقية تقدِّم للناس مُثُلاً عليا ، لكنها لا تعطى للناس مثالاً حيًّا ، أما قوة المسيحية فإنها تظهر لا فى تعاليم السيد المسيح فحسب ، بل فى مثاله الذى تركه لنا ، وفى سكنى الروح القدس فى المؤمنين فى المجتمع الصغير الذى هو الكنيسة التى جعلها جسداً له ، حيث يشجع الواحد الآخر ، فيتقوى الجميع ، وينمون فى طريق تحقيق بعض هذه المثل ، فى اتجاه الرأس الذى هو المسيح .

ثانياً : سلطة الوحى وسلطة العقل :

إن الأخلاق المسيحية مؤسسة على الوحى ، الذى هو إعلان الله لذاته وطبيعته فى الكتاب المقدس . ولقد أثارت هذه الحقيقة نقد فلاسفة الأخلاق ، فقال بعضهم إن الإعلان الإلهى أمر « مفروض » على الإنسان ، ومصدره من خارج الإنسان أى من الله ، بينما فى تقديرهم هم يجب أن تنبع الأخلاق من داخل الإنسان ، من عقله أو ضميره ، فالأخلاق المفروضة على الإنسان دون موافقة منه ، لا تعتبر فى نظرهم منسوبة إلى الإنسان لأنها مفروضة عليه . وهم يقولون إننا إذا أخذنا بفكرة وجود « أخلاق مسيحية » مفروضة ، انتفت فرصة مناقشة القواعد الخلقية عقليا ، ذلك لأن الكتاب المقدس أمر مسلَّم به ولا يجوز مناقشته عقليا .

ولو أننا أخذنا بوجهة النظر التى يثيرها علماء الأخلاق ، لتصورنا فعلا أن هناك تناقضاً بين فلاسفة الأخلاق ، والأخلاقيين المسيحيين ، فهؤلاء سواء كانوا محافظين أو عصريين ،

فإنهم جميعا يؤمنون بسلطة الكتاب المقدس ، بينما أولئك ، فلاسفة الأخلاق ، يرفضون أية سلطة سوى سلطة العقل الإنسانى .

إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة ، فإن التأمل العميق فى كلا الاتجاهين ، قد يزيل شيئاً من هذا التناقض . ويقتضى هذا التأمل أن نثير عدة أسئلة ونحاول الإجابة عليها . **فهل سلطة الوحى فى المسيحية تنفى العقل تماماً** ؟ إن المسيحيين يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيّنا فى هذا الأمر . فالتقليديون من المسيحيين يؤمنون بأن الكنيسة هى التى تفسّر الكتاب المقدس وتضع مختلف القواعد الدينية التى يجب على الناس اتباعها ، وبذلك تكون السلطة فى النهاية هى سلطة الكنيسة ومجامعها فى الواقع ، والفرد العادى يتلقى هذه السلطة ويقبلها دون مناقشة .

وكأن للكنيسة أن تفسر مشيئة الله المعلنة فى الكتاب ، وتفرض هذه المشيئة كما تفهمها وتفسرها على الإنسان ؟ أى أن الكنيسة تجعل من نفسها نائبة عن الله فى وضع قواعد الأخلاق ، وبشكل ما تتحول سلطة الله أو الوحى إلى سلطة الكنيسة .

أما المذاهب البروتستانتية المعروفة باسم الإنجيلية فإنها تؤمن بأن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد المعصوم للإيمان والأعمال ، ولكنها فى نفس الوقت لا تنظر إلى الكتاب المقدس بإعتباره كتاباً تشريعياً – كما يعتقد اليهود مثلاً – لكنها تؤمن بأنه سجل لإعلانات الله فى تاريخ البشرية ؛ أو سجل لتعاملات الله مع الناس ، وأن طبيعة الله ومقاصده تظهر من خلال التعاملات والأحداث المسجلة فى الكتاب المقدس . وهذا يعنى أن الوصايا التى يوصى بها الله ، لا يضعها فى صورة قوانين معيّنة ، ولكنها تظهر نتيجة لأحداث معيّنة ، ومعنى هذا بالنسبة للأخلاق أن الأخلاق المسيحية تعتمد على الإعلان أو الوحى ، ليس من حيث أنه كلام مكتوب بألفاظ معينة كقوانين الدول الوضعية ، ولكن من حيث تعبيره عن مشيئة الله فى موقف خاص . إن كلام الله ، فى نظر المذاهب البروتستانتية ، ليس هو الألفاظ العبرانية أو اليونانية التى تنقل إلينا الفكرة ؛ ولا هو مجموعة القواعد والوصايا التى يستنتجها الناس من هذه الأفكار . إن كلام الله ليس هو ما نعتقده نحن عن الله ، ولكن كلام الله أمر كامن فى قلب الله ، أعلنه لنا عن طريق حوادث تاريخية فسرّها الرسل والأنبياء . والمعنى المطلق لهذا الإعلان لا يمكن أن يستوعبه أو يستوفيه ويستنفذه تفسير أى واحد من الأنبياء والرسل ، ولكنه يظل مجالاً متسعا لإعمال أو تشغيل الفكر الإنسانى الخلّاق فيه(٦) .

إذا كان الأمر كذلك ، فإن مسئولية تفسير هذا الإعلان تقع على عاتق الفرد نفسه كعضو فى المجتمع المسيحى ، فالله يخاطب الناس فى الإعلان الكتابى بإعتبارهم بشراً لهم عقول تفهم

وتناقش وتحكم على الأمور ، لا باعتبارهم آلات ميكانيكية تدار بأزرار كهربائية حسب نظام معين .

وإذا ذكرنا أن مسئولية تفسير هذا الإعلان تقع على عاتق الفرد ، فنحن لا نساوى بذلك بين جميع الناس فى القدرة على التفسير ، فمن الطبيعى أن يكون المتخصصون والمتفقهون فى علوم الكتاب المقدس أقدر من غيرهم على ذلك . وعادة يكون هؤلاء من رجال الكنيسة والعاملين المتفرغين فيها ؛ وهنا نرى أن الفكر البروتستانتى يقترب فى النتائج من فكر الكنائس التقليدية ، إذ يكون رجال الكنيسة هم الذين يمتازون بالرأى الأرجح فى تفسير الإعلانات الإلهية ... لكن الفرق فى الأصل واضح ، فإن الفكر الإنجيلى لا يقيس قيمة التفسير بالدرجة الكهنوتية لمن قام به ولا بمكانته فى الكنيسة ، ولكن بالقدرة الفعلية والعلمية .

وإن كان الناس يعتمدون عادةً على علماء اللاهوت فى تفسير الكتاب المقدس ، لكن حق هذه الدراسة مفتوح أمام كل مسيحى وليس قاصراً على جماعة بالذات . وإذا كان بعض الناس قد أساءوا حرية التفسير فى بعض الأحيان ، فإننا لا ننكر أن الكنيسة فى بعض الأحيان أيضاً قد أساءت استخدام حق تقييد التفسير كما يظهر ذلك من دراسة تاريخها .

إذا فهمنا هذه الأمور على هذا النحو أمكننا أن نرى أن « التسلط الدينى » ليس وارداً فى الوحى بالصورة التى يراها فلاسفة الأخلاق الذين ينتقدون فكرة الأخلاق المسيحية المبنية على الوحى . إن فكرة « التسلط » ربما جاءت نتيجة لوجود سلطة منظورة هى الكنيسة ، صوَّرت للناس تفسيرها للكتاب المقدس على أنه قواعد لا تقبل المناقشة ، ولو كانت ضد العقل أو الضمير عند الفرد . لكن هذا ليس الواقع فى المسيحية إذ أنها تتطلب أن يستخدم الإنسان عقله فى تصريف حياته .

وقد لاحظنا فى الآونة الأخيرة ، وبخاصة بعد انعقاد المجمع الفاتيكانى الثانى أن الكنائس التقليدية قد خففت كثيراً من جمودها التقليدى فى التفسير ، وهذه نقطة إنطلاق طيبة لصالح الكنيسة والمسيحية والمجتمع .

ثم نستطيع أن نسأل سؤالاً آخر لمحاولة حل هذا التناقض الظاهرى بين سلطة الوحى واستقلالية العقل ، فنتساءل : **هل هناك حقاً استقلالية فعلية لعقل الفرد ؟**

إن الفكرة الأساسية فى مبدأ استقلالية العقل (The Autonomy of Reason) ، هى أن الإنسان يقرر سلوكه بواسطة شرائع أو مبادىء يوافق عليها عقله دون أن تعتمد إرادته أو عقله على أية سلطة خارجية كالدولة أو الكنيسة . لكننا نتساءل : هل يتم ذلك فعلاً فى

الواقع ؟ إن الواقع يوضح لنا أن الإنسان لا يستطيع أن يفصل نفسه عن اختبارات الآخرين الأخلاقية ، والتراث الخلقى الذى يجده فى مجتمعه . والفيلسوف الأخلاق يضع المبادىء الخاصة فى فلسفته فى ضوء اختبارات الآخرين وأحكامهم الخلقية .إن هناك نوعاً من التفاعل بين اختبارات الآخرين فى المجتمع ، والفكر الإنسانى للفرد ، وبعض الأحكام الخلقية التى يصدرها فكر معين . فهذه ، وإن كانت ظاهراً وليدة استقلال عقله ، لكنها تعتمد فى أحيان كثيرة على أفكار الآخرين أيضاً[٧] . فإذا كنا نسمح بدخول إختبارات الآخرين الأخلاقية ضمن إطار تفكيرنا الأخلاق ، ولم نعتبر هذا ضد استقلالية عقولنا ، فلماذا نمنع أو نعترض على دخول الإختبارات الدينية والروحية كجزء من هذه الإختبارات التى لا تعطل استقلالية العقل . صحيح إن الباحث فى الأخلاق المسيحية يعطى للإختبارات الدينية جانباً متحيزاً فى تفكيره ، لكن هذا التحّيز موجود بصورة أو بأخرى عند كل مفكر . ويجب ألا ننسى أن الفيلسوف الأخلاق العادى لا يمكن أن يخلو فكره من التحّيز لبيئة ما أو لنظرية ما حسب ما جاز هو فيه من إختبارات .

ثالثاً : علاقة الإيمان بالعقل :

قد يخطر على البال سؤال عن علاقة الإيمان بالعقل ، فنحن إذا كنا نفكر بعقولنا حتى فى تفسير الإعلانات الإلهية ، فما هى قيمة الإيمان إذاً ؟

لقد ظن البعض فى الماضى ، ومازال البعض يظنون – خطأً – أن معنى الإيمان هو التسليم بأمر مخالف للعقل دون مناقشته . وظن البعض أن ما ندركه بعقولنا لا صلة له بما نؤمن به بمعنى أنه لا توجد للإيمان قيمة إدراكية ، وأن ما نؤمن به لا يتوقف على إدراكنا عقليا – والواقع أننا لو فكرنا فى المعنى الحقيقى للإيمان ، لوجدناه ليس مجرد موافقة عقلية ، فالإيمان فى المفهوم المسيحى ليس اعتقاداً معينا ، لكنه ثقة وتصديق لشخص الله تعالى وتجاوب معه . الإيمان هو تجاوب كل النفس الإنسانية مع ذات الله وصلاحه كما أعلن هو ذاته . إنه ليس « إيمانا أعمى » لكنه تجاوب مفكر مع الله كما يواجهه الإنسان فى اختباره .

فالإيمان يختلف عن العقل فى أن العقل قدرة على التفكير ، بينما الإيمان تصديق لحقيقة الله وصلاحه كما نختبره فى حياتنا – هذا التصديق يقودنا إلى الاطمئنان والتسليم له تعالى . فالعقل يمتحن كل نظرية أو كل قرار ليرى هل هناك أسس عقلية منطقية صحيحة لهذا القرار تجعلنا نلتزم به ؟ أما الإيمان فإنه يفترض هذه الحقيقة ويتصرف بموجبها إلى أن يختبرها فيسلم بها ، أو يرفضها .

فالإيمان أكثر مخاطرةً من العقل ...

والعقل أكثر حذراً من الإيمان ...[٨] .

الإيمان يسبق العقل أو يسير أسرع منه ، لكنه لا يناقضه ولا يتمسك بالأشياء التى يرفضها العقل تماما . وهناك أمور فوق طاقة العقل أن يقبلها أو يرفضها ، وهذه تحتاج إلى مخاطرة الإيمان ما لم يثبت ببرهان عقلى قاطع ما يدعو إلى رفضها . لكن العقل لا يستطيع أن يكمل عمله ما لم يعتمد على افتراضات أو مسلّمات يحاول بحثها . هذه الإفتراضات والمسلمات تحتاج إلى الإيمان .

لذلك فالإيمان دون العقل غير ناقد ...

والعقل دون الإيمان غير خلّاق ..

صحيح إن العقل يستطيع بدون الإيمان أن يصل إلى نتائج فى عالم الظواهر الطبيعية وسائر العلوم العادية ، لكن العقل لا يمكن أن يصل إلى نتائج فى نظريات ميتافيزيقية ، أى فى نظره إلى الكون ككل ، أو إلى الخير الأعظم ، بدون افتراضات سابقة يستمدها من الإيمان . لذلك قال القديس أوغسطينوس عبارته الشهيرة : «Credo Ut intelligam» « أؤمن حتى أستطيع أن أفهم »[٩] .

والواقع إن الإنسان وهو يحاول أن يصل إلى الله بالإيمان ، قد حاول أن يمتد بفكره إلى أبعد مما يمكن ان يصل عقله اليه ، لأنه وإن كان الله قد أعلن ذاته فى الإختبارات الدينية للبشر ، لكنه استمر إلهاً محتجباً فى سمّوه المغاير لكل شيء ، والذى يسمو فوق أى خبرة بشرية ، وهذا هو المعنى الذى تصفه الكلمة « متعال » (Transcendant) .

ومع أن الله تعالى ليس له مثيل أو شبيه ، ومن بين الألفاظ التى يُعرَّف بها الله أنه « غير مدرَك » (بفتح الراء) ، ومع ذلك فإن الإيمان يسمو إلى ما وراء هذا العالم المحدود ، ويؤكد وجود كائن عاقل هو مصدر وجود هذا العالم وأساس القيم الموجودة فيه .

وهكذا نرى أن الإيمان **يُعتبر مصدراً من مصادر المعرفة عن الحقيقة** ، وليس مجرد خيال ووهم ، ولكنه نشاط عقلىّ من أعمال البصيرة ، فهو اذاً من مصادر الفلسفة أيضاً وليس من مصادر الدين فحسب ، فكل نظرية من النظريات المختلفة عن العالم ، سواء أكانت دينية أم غير دينية ، تكاد تكون مؤسسة على افتراض أساسه الإيمان بشيء .

كما أن الإيمان له دلالة أخلاقية ، فبدونه لا يمكن أن تتجه إرادة الإنسان إلا إلى أهداف

قريبة ترتبط بهذا العالم الواقعى بما فيه من نقص وقصور . والإنسان بدون إيمان لا يستطيع أن يدرك وجود نوع من الحياة تسمو على حياة الواقع الذى يراه فى المجتمع ، لكن الإنسان مع الإيمان يستطيع أن يرى رؤى للإمكانيات السامية التى يجب أن يهدف إليها الإنسان ، ويدرك قيماً أسمى مما يراه فى الواقع ، وهكذا يجعل الإيمان المجتمع **متفتحا لقيم أسمى** وليس **منغلقا** على ما به من واقع ضعيف قاصر .

كما أن الإيمان يرجو من الله فى ثقة أن يحقق انتظاراته فى مجتمع فاضل ، وبذلك يصير الإيمان عاملاً فى تغيير الإرادة الأخلاقية للإنسان ، ليضع لها آفاقاً أبعد وأوسع مما تجده فى نفسها أو فى المجتمع ، وذلك بخضوعها لمشيئة الله والخروج من دائرة الأنانية والذاتية .

لقد حاولنا أن نشرح علاقة الإيمان بالعقل ، لنوضح أن هناك شبه تصالح بينهما ، على أننا لا نستطيع أن نغفل الخلاف الفكرى بين أنصار العقل وأنصار الإيمان فى الفكر الفلسفى والفكر اللاهوتى الحديث . فكما أنكر بعض المفكرين المحدثين ضرورة الإيمان ، وهاجموه وفضلوا العقل عليه ، وجدنا ردود فعل عند بعض اللاهوتيين الذين هاجموا العقل . فقد قال هؤلاء اللاهوتيون إنه إذا كان الله متعاليا ومتساميا ومغايراً لكل فكر إنسانى ، فلماذا يريد عقل الإنسان المحدود أن يحاول البرهنة على وجود الله أو أن يفهم طبيعته بالعقل ؟ إن محاولة إدراك الله بالعقل – فى نظرهم – خيانة وكبرياء – لذلك فعلى الإنسان أن يطرح جانبا كل تظاهر بالعقل والفهم ، ويعتمد على **كلمة الله وحدها** .

ومن أكبر أنصار هذا الرأى اللاهوتيان المعاصران « كارل بارت » (Karl Barth) ، إميل برونر (Emile Brunner) وان كان إميل برونر أكثر اعتدالاً فى هذا الجانب من بارت ، ومع ذلك فإنه يرفض تماماً فكرة الأخلاق الطبيعية الصادرة عن العقل ، ويقول إن كل محاولة لاستنباط الأخلاق من التفكير العقلى ، محاولة فاشلة ، لأن كل الأخلاق الطبيعية تقود إلى التناقض بسبب رغبة الإنسان الطبيعى فى عمل الخطية . وفى رأيه إنه عندما يستقل الإنسان عن الله ، يصير الله قوة معادية له ، وتبدو وصايا الله مفروضةً عليه قسراً ، والإنسان دائماً يحاول أن يحرر نفسه من كل قسر وقهر ، بوضع قواعد ومبادىء عقلية للأخلاق ، تكون عامة يريد تطبيقها على كل البشر فى كل الظروف ، وهكذا يسقط فى فخ « الناموسية » (Legalism) ، أو يخرج بفلسفة فى السعادة تتصور إمكان الحصول على السعادة بدون الله وبعيداً عنه . وفى كل هذه الأحوال تكون الأخلاق الطبيعية نتيجة لثورة الإنسان الخاطئة ضد الله ، ومع أن تلك الأخلاق الطبيعية تحمل جانبا من الحق والصواب ، لكن كل جزء منها ، بانفصاله وانسلاخه عن الكلّ ، يُمْسخَ ويصير صورة كاريكاتيرية ممسوخة من الأصل ، فما الأخلاق الطبيعية إلا أنقاض على أنقاض ...(١٠) .

وفى رأى برونر ، إن الإيمان المسيحى هو الجواب الوحيد للمشكلة الخلقية .

ولعل السر فى هذه النظرة السلبية التى نظر بها إميل برونر إلى الأخلاق الطبيعية ، هو تعريفه للأخلاق المسيحية أنها « طاعة مشيئة الله المتضمنة فى محبة الله كما يُعبِّر عنها فى محبة القريب » ، وبديهى أن هذا التعريف يربط الأخلاق بالجانب المسيحى رباطاً وثيقاً . وإذا تساءلنا كيف نحب القريب ؟ وما هى واجباتنا نحوه ؟ فإننا لا نستطيع أن نحددها أو نخضعها لمبدأ معين فى تقدير برونر ؛ بل إن الأخلاق المسيحية تبدو كأنها بلا مضمون ولا محتوى ، إذ أنه يرى أن واجب المؤمن أن يكتشف – بإرشاد الروح القدس – ما يفعله فى كل موقف بالذات ، وذلك نتيجة لحصوله على الميلاد الثانى . فالطبيعية الجديدة هى أساس الأخلاق المسيحية – عند برونر – وسوف نناقش هذه النظرة بتوسع عندما نتحدث عن نظريات الأخلاق المسيحية فى تاريخ الفكر المسيحى ، لكننا نكتفى الآن بالقول إنه يبدو أن إميل برونر تطرف فى نقده للأخلاق الطبيعية أو الفلسفة الأخلاقية . فنحن يجب ألا ننكر أنها تحتوى على بعض الحقيقة وتبصِّرنا فى كثير من الأمور. هذا فضلا عن أننا لا نستطيع أن نفصل العقل عن الذات الإنسانية ، ونحن نفكر فى كتاب الله أو مشيئة الله ، بل إن إميل برونر نفسه تأثر ببعض نظريات عمانوئيل كانت (Kant) فى الواجب ، وإن كان قد رفضها نظريا بسبب الناموسية التى فيها . كما أنه استخدم العقل والفلسفة الأخلاقية الطبيعية فى شرحه لمعنى العدالة فى كتابه « العدالة والنظام الاجتماعى » .

والواقع ، إن كل من يتعرض لقضايا الأخلاق يتأثر فى تفكيره بالفلسفة الأخلاقية ، وإن كان البعض ينكرون تأثرهم بها ، فالأفضل أن نقر بذلك بدلاً من أن ننكره .

إننا لا نطلب أن نهجر الفلسفة الأخلاقية ونحن ندرس الأخلاق المسيحية ، لكن هذه الفلسفة فى حاجة إلى « تجديد » . والمحبة المسيحية الناتجة عن الإيمان المسيحى أساس صالح لكل الأخلاق ، لكنها وحدها لا تقدم لنا كل محتويات الأخلاق . ليس معنى هذا أن المسيحية ناقصة ، لكننا نعنى أنه لم يُقْصَد بالمسيحية أن تكون نظرية أخلاقية تحل كل مشكلات الأخلاق بصورة شاملة ، بمعزل عن الفكر الإنسانى ، كما أنه لم يقصد بها أن تكون مجموعة قوانين لما يعمله الإنسان وما يمتنع عنه فى كل موقف .

لقد اهتم الإنجيل أساساً بعلاقة الإنسان بالله ، وعلاقة الإنسان بأخيه فى دائرة ملكوت الله . وهو بذلك يختلف عن الموسوية وبعض الديانات الأخرى ، لذلك لم يتحدث الإنجيل كثيراً عن المجتمع والسياسة إلا فى حدود ضيقة جداً . ومن يتصورون أن نصوص المسيحية تضع وحدها قواعد وقوانين لكل مشكلات المجتمع يقعون فى مشكلات كثيرة بالنسبة لعلاقة

الكنيسة بالمجتمع ، إذ أنهم يحاولون أن يبحثوا فى النصوص الكتابية متلمسين أية إشارة فيها يفسرونها – ربما بحسب هواهم – ليؤسسوا عليها نظرية أو نظاماً على حساب الحقيقة ، لكى يثبتوا أن فى نصوص المسيحية تشريعات ونظماً تعالج كل مشكلات المجتمع . ولعل هذا يرجع إلى خوفهم من أن تظهر المسيحية بمظهر أقل من الديانات الأخرى التى تحتوى على تشريعات مفصلّة لكل جوانب الحياة . والواقع ان عدم وجود هذه التشريعات التفصيلية إمتياز فى المسيحية وليس عيباً فيها ، لأنها تسمح بتطور المجتمع وإمكانية ملائمة المبادىء المسيحية لهذا التطور . كذلك اتجه البعض الآخر اتجاها انعزاليا وبنوا على أساس بعض النصوص الأخرى التى تدعو إلى اعتزال العالم ، نظريات انطوائية وانسحابية .

وهكذا نرى أن الذين ينظرون إلى حرفية النصوص يواجهون مشكلات سلباً أو إيجاباً .

كما أن هناك من حاولوا أن يقتبسوا بعض آراء فلاسفة الأخلاق ويلبسوها ثوباً مسيحياً ، لكى يصلوا إلى إدراك الواجبات المختلفة فى عالم متطور .

لكن المسيحى لا يقبل نظريات الأخلاق دون دراسة ، بل ينبغى أن ينقد هذه النظريات فى ضوء رسالة المسيحية ، فيرفض النظريات المبنية على المنفعة واللذة ، ويحاول أن يحدد هذه النظريات لتكتسب ثوباً مسيحياً ، فكون الفلسفة الأخلاقية من نتاج العقل الإنسانى ، لا يجعلها بالضرورة مناقضة للمسيحية ، لأن العقل عطية من الله للإنسان ، على أنه يجب أن يُنَقّى هذه النظريات من شوائب الفكر البشرى القاصر ، ويحاول أن يرتقى بها إلى مستوى مشيئة الله الكاملة . ونحن نرى صورة لهذا الارتقاء مثلا عندما نقرأ اعترافات القديس أوغسطينوس ، ونرى كيف تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

إذاً يجب أن تتجدد الفلسفة الأخلاقية لكى يستعملها المسيحى ؛ أما استخدامها على اطلاقها دون نقد ، فإنه يفقد المسيحى الإحساس بالفرق بينها وبين المسيحية .

وليس الأمر عملية توفيق بين النظريات ، لكنه نظرة عميقة ناقدة ، فيكون هناك دائماً حوار مستمر بعقل مفتوح بين الفلسفة الأخلاقية وبين المسيحية ... هذا التوتر الخلّاق هو الذى يفتح المجال لحرية العقل وحرية الروح معاً ليلتقيا .

ولقد حاول الكاتب فى هذا الكتاب أن يدرس الأخلاق المسيحية من واقع هذا الحوار ، ويرجو أن يكون قد صادفه بعض التوفيق .

رابعاً : مجال الأخلاق المسيحية ووظيفتها :

إن عالمنا اليوم يتصف بكثير من الفوضى الأخلاقية ، لذلك فإن السؤال الذى يتردد على ألسنة الكثيرين هو : « ماذا ينبغى أن أعمل ؟ » بدلاً من « بماذا ينبغى أن أؤمن ؟ » .

وإذا نظرنا نظرة متعجلة سطحية إلى العهد الجديد ، فإنه يبدو لنا مخيّباً للآمال من هذه الناحية ، لأنه لا يقدم لنا إجابات مباشرة ومحدّدة على هذا السؤال وبخاصة بالنسبة للمشكلات الملّحة التى تواجهنا فى عالمنا المتطور المعاصر ، مثل مشكلة الانفجار السكانى ، وأزمة المساكن وخلوّ الرجل ، وتلوث البيئة ، والعلاقات العمالية المعقدة ، والنظريات الاقتصادية المتنوعة الخ ..

والواقع إن العهد الجديد يعلن ما عمله الله لأجلنا فى صليب المسيح ، وفى موته وقيامته ، أكثر من إعلانه لنا ماذا نعمل نحن لأجل الله . والإنجيل يوجّه دعوة المسيح إلى الناس أن يتوبوا وأن يقبلوا ملكوت الله ، وأن يختبروا فى شخصه المبارك قوة الحياة المفدية .

وبولس ويوحنا فى رسائلهما يعتمدان أساسا على حقائق صليب المسيح وقيامته ، لتكون عوامل مغيِّرة لحياة الإنسان ، كما قال بولس : « لأعرفه ، وقوة قيامته ، وشركة آلامه ، متشبها بموته » (فى ٣ : ١٠) ، والإنجيل يعلمنا أنه عن طريق سكنى الروح القدس فى قلوب المؤمنين ، فإنهم ينالون ارشاداً لمعرفة الحق ، ولعمل مشيئة الله المعلنة فى يسوع المسيح .

إن المسيحية — كما تظهر من العهد الجديد — ليست ديانة ناموسية ، بمعنى أنها لا تقدّم لنا مجموعة كاملة من القواعد والتشريعات لمواجهة كل حالة من حالات السلوك الإنسانى ؛ ولكنها تتحدث عنه نعمة الله المعلنة فى يسوع المسيح ... هذه النعمة التى تثير فى الإنسان إيمانا ليتجاوب معها ويكون إيماناً عاملا بالمحبة .

لذلك فإن من يتوقعون من المسيحية أن تقدم لهم إجابة محددة لكل مسألة أخلاقية ، يجدون المسيحية لا تحقق آمالهم وتوقعاتهم ، وهم فى الحقيقة يريدون أن تعود بهم المسيحية خطوة إلى الوراء ، إلى طفولة البشرية وخضوعها للناموس . ففى عهد الناموس كان الناس أخلاقياً كأطفال يحتاجون إلى مؤدب ، تماما كحاجة الأطفال إلى أوصياء يرسمون لهم خطة السير والتصرف . وقد حدد الناموس للناس ما يعملون فى شكل أوامر ، وما يمتنعون عنه فى شكل نواه ؛ وكان هذا مناسباً للناس فى فترة ما من تاريخ البشرية ، لأن ضمائرهم لم تكن قد وصلت إلى الدرجة التى تسمح لهم بالحرية . وجاءت المسيحية خطوة أكثر تقدما من الناموسية ، وفى هذا يقول بولس الرسول :

« فقبل أن يجىء الإيمان كنا محبوسين بحراسة الشريعة إلى أن ينكشف الإيمان المنتظر . فالشريعة كانت مؤدبا لنا إلى أن يجىء المسيح حتى نتبرر بالإيمان . فلما جاء الإيمان تحررنا من حراسة المؤدب » (غلاطية ٣ : ٢٣ – ٢٥) (الترجمة العربية الجديدة) .

ويقول إميل برونر : إن الدعوة إلى أخلاقيات مرسومة فى قواعد ، تعتبر دعوة إلى الهروب من المسئولية ، ذلك لأنها تتطلب قواعد مفروضة بسلطان ، لتحل جميع المشكلات ، فى تشريعات تحدد للإنسان ما يعمله وما يتركه فى كل موقف من المواقف ...

وتاريخ المسيحية حافل بالأوقات التى حدث فيها مثل هذا التقهقر فى الفكر الأخلاقى المسيحى ، ونجد هذا فى الكنائس الغربية والشرقية على السواء . ومن أمثلة ذلك الكنيسة الكاثوليكية التى وضعت تشريعات مفصّلة لسلوك الإنسان فيما أسمته « اللاهوت الأدبى » ، وهى متأثرة فى ذلك بالربيين اليهود ؛ كما فعلت ذلك الكنيسة الشرقية وإن لم تُضمِّنه كتبا معينة بالذات . ولم تسلم الكنائس البروتستانتية من هذا الاتجاه عند بعض الجماعات المتزمتة فى الغرب والتى اعتقدت أنها تستطيع أن تطِّهر نفسها بقيود التدقيق والناموسية ، وانتقل ذلك إلى الشرق تحت تأثير ارساليات تلك الجماعات المتزمتة ، والكنائس التقليدية ، والديانات الناموسية الأخرى السائدة .

واللاهوت الأدبى فى الكنيسة الكاثوليكية لا يكتفى بالاعتماد على عصمة الإنجيل ، ولكنه مؤسس أيضاً على الاعتقاد بعصمة الكنيسة والمجامع الكنسية ، وآباء الكنيسة ، فى التعليم . وإذا ما حدث أن اختلفت المجامع الكنسية أو وُجدت أمور لم يوضع لها تشريع خاص محدد ، فإن الناس يرجعون إلى الفتاوى الشرعية للمسئولين فى الكنيسة .

على أننا نريد أن نقول لمن يتصورون أن الأخلاق المسيحية هى مجموعة تشريعات وقواعد محددة للسلوك ، أنه يمكنهم أن يلجأوا إلى كتب اللاهوت الأدبى ، لأنهم لن يجدوا هذه القواعد فى العهد الجديد .

إن العهد الجديد يتحدث عن المبادرة التى قام بها الله لخلاص البشر ، وهو يعلن عمل الله الفدائى فى حياة المسيح وموته وقيامته . والأخلاق المسيحية فى تقديرنا تهتم أساساً بالفاعل قبل أن تهتم بالأفعال نفسها .وقد أغفل القديس توما الأكوينى – وهو أعظم الشراح الكاثوليك للاهوت الأدبى – هذه الحقيقة ، ومع أنه أظهر أهمية النعمة ، لكنه احتفظ بمبدأ الاستحقاق البشرى عن طريق الأعمال الصالحة ، وهو مبدأ يتناقض أساساً مع النعمة .

إن السؤال الجوهرى فى المسيحية ليس « ماذا أفعل الآن ؟ أو هل هذا جائز أم غير جائز ،

حلال أم حرام ؟ » لكن السؤال الجوهرى هو :

« أى نوع من الناس ينبغى أن أكون ، مادمت قد اختبرت نعمة الله فى يسوع المسيح ؟ »
ومع أن المسيحية لا تعطينا جواباً مباشراً لتطبيقات هذا السؤال فى بعض المسائل الاجتماعية والسياسية المعاصرة لنا ، لكنها تدفعنا إلى الحكم على هذه الأمور فى نور معرفتنا لطبيعة الله الذى افتدانا(١١) .

وثمة سؤال أخير يفرض علينا نفسه ونحن نفكر فى مجال ووظيفة الأخلاق المسيحية والسؤال هو عما إذا كانت الأخلاق المسيحية تهتم بحياة الإنسان الفردية ، أم تهتم أيضاً بنظم المجتمع المختلفة اجتماعية وسياسية واقتصادية ؟

وقد تعود الناس على التمييز بين الأخلاق الفردية الشخصية والأخلاق الاجتماعية . على أنه إذا كان تقسيم الأخلاق إلى فردية ، واجتماعية جائزاً ، فهو جائز لمجرد الدرس والشرح ، ولكن الفصل بين هذين النوعين من الأخلاق يقود إلى الخطأ فى الأحكام . ذلك أننا نعيش حياتنا دون انعزال عن المجتمع ، ونحن ندخل العالم كأفراد فى عائلات ، وحياتنا تتأثر بوحدات أكبر نصير فيها فى داخل المجتمع .

فمن يهملون الأخلاق الاجتماعية متصورين أنه يكفِى أن تكون أخلاقهم الفردية أو سلوكهم الشخصى السليم تعبيراً عن طاعتهم للمسيح ، يقعون فى وهم كبير ، لأن الحياة الفردية والاجتماعية نسيج متشابك ومترابط معاً ، حتى لقد قال إميل برونر : « لا يوجد شىء اسمه الأخلاق المسيحية الفردية . إن الله ينظر إلينا بالنسبة لعلاقتنا بالقريب وليس بالنسبة لعلاقتنا بأنفسنا . إن الإيمان ينادى الإنسان قائلاً : لا تهتم بنفسك فيما بعد فقد رتب الله لك أمورك ... ومن يحيا فى الإيمان ، وحياة التبرير ، يجب أن يتحرر من القلق الذى يراوده عن ذاته ، إننا ننكر ذواتنا لكى نوجهها نحو الله فى الخدمة .. خدمة الآخرين » .

مراجـــــع وهـــوامش

الباب الأول

مدخل إلى دراسة الاخلاق المسيحية

(١) Paul Lehmann, **Ethics in a Christian Context,** New York, Harper and Row, 1962,pp. 23, 24

(٢) قاموس محيط المحيط

(٣) المرجع السابق

(٤) Fayez Fares, **Towards an indiginous Understanding of principles** of Christian Ethics for Egyptian Christians, A doctoral Dissertation to San Francisco Seminary, 1981, pp. 4-7

(٥) مراجع هذا الفصل متعددة من كتب الفلسفة والأخلاق ، وأهمها باللغة العربية : مشكلات فلسفية ، دكتور توفيق الطويل وآخرين ١٩٥٤ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم . مباهج الفلسفة ـ ول دورانت (مترجم) وبالانجليزية

Aristotle, **The Nichomachean Ethics,** Trans. by W. D. Ross, London, Oxford University Press, 1925

Jeremy Bentham, **An introduction to the principles** of Morals and legislation, London, 1823,

J.S. Mill, **Utilitarianism,** New York, Dutton, 1914.

J. Butler, **Works,** Oxford, the Claredon Press, 1896

C.D. Broad, **Five Types of Ethical** Theory, New York, Harpers, 1930

Philip Wheelwright, **A critical Introduction to Ethics,** New York, **The Odyssey Press,** 1949

(٦) William Temple, **Nature, Man and God,** London, Macmillan, 1940, Lecture 12

(٧) George Thomas, **Christian Ethics and Moral philosophy,** New

York, Charles Scribners Sons, 1955, pp. 370-375

(٨) المرجع السابق ص ٣٧٧ – ٣٨١

(٩) Reinhold Niebuhr, **The Nature and Destiny of Man,** New York, Charles Scribners Sons, 1941, Vol. I., p. 158

(١٠) Emil Brunner, **The Divine Imperative,** translated by W.L. Jenkins, The Westminster Press, 1947, pp. 43,44

(١١) Sydney Cave, **The Christian Way,** London, James Nisbet and Co., 1961, M. 117-121

الباب الثانى

الأساس الكتابى
للأخلاق المسيحية

الفصل الأول

مصـــادر الأخلاق المسيحية

١ - الناموس والأنبياء

لا يمكننا ونحن نفكر فى مضمون الأخلاق المسيحية أن نتجاهل أساسها الكتابى الموجود فى العهد القديم . إن مبادىء المسيحية كما تظهر فى أسفار العهد الجديد لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً دون الرجوع إلى العهد القديم . والمبدأ الأخلاقى الأساسى للعهد القديم ، هو طاعة مشيئة الله . هذا المبدأ يمّيز أخلاقيات العهد القديم تماما عن سائر الفلسفات الإنسانية . فقد اعتقد الشعب العبرانى بأن الإنسان ينبغى أن يحقق ذاته ، ويدرك معنى وجوده ، ليس بمجرد البحث عن السعادة ، والوصول إلى انجازات معينة فى حياته ، إنما بخدمته لله وتحقيق مقاصده تعالى فى حياته . ولو أننا بحثنا عن سرّ هذا الاعتقاد اليقينىّ ، نجد أنه لم ينشأ نتيجة الملاحظة العلمية والتجريبية لطبيعة الإنسان ، أو من التأمل العقلى الفلسفى ؛ إنما جاء نتيجة لمجموعة من الإعلانات الإلهية التى أعلنها الله للشعب العبرانى ، وأن بداية هذه الإعلانات كانت بسلسلة من الأحداث التاريخية فى حياة ذلك الشعب . فقد اختبر العبرانيون الله عندما أنقذهم من العبودية فى أرض مصر ، وشعروا بأنهم مديونون لله بحفظهم ورعايتهم وقيادتهم حتى وصلوا إلى الأرض التى وعدهم بأن يمتلكوها ، وهكذا أصبحوا يعيّدون ذكرى هذا الخلاص فى

شكل « عيد الفصح » ، ويتذكرون رحمة الرب التى صارت أساساً لكل رجاء عندهم ، لأن الذى أنقذهم من العبودية مرةً ، يمكنه أن يفتديهم من كل ضيق فى المستقبل . ولقد أعقب خروجهم من مصر أن الله أجرى معهم عهداً فى جبل سيناء ، وبموجب هذا العهد وعد الله أن يستمر فى رعايتهم وحفظهم بإعتبارهم شعباً له ، وفى نفس الوقت طالبهم بأن يكونوا أمناء له ، وألا يعبدوا آلهة أخرى ، وأن يطيعوا وصاياه . ونحن نقرأ أن الأساس الذى بمقتضاه أعطى الله الشريعة الأدبية المتضمنة فى الوصايا العشر ، هو أن الله افتداهم وأخرجهم من أرض مصر . لذلك جاء فى صدر هذه الوصايا هذا القول : «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ....» (خروج ٢٠ : ٢ و٣) .

وقد أورد العهد القديم روايتين لنص هذه الوصايا الأولى فى الخروج ٢٠ : ١ - ١٧ ، والثانية فى التثنية ٥ : ٦ - ٢١ . وقد وردت الوصايا فى لوحين : الأول يختص بالعلاقة مع الله ، والثانى يختص بالعلاقة مع الناس . وتعتبر الوصايا العشر أشهر شريعة أدبية فى العالم ، ومن أقدم الشرائع الأدبية . ومع أن أغلب هذه الوصايا جاءت فى صورة نواهٍ ، لكن المفسرين من اليهود ، وفيما بعد من المسيحيين ، اعتبروها تتضمن أوامر ووصايا إيجابية ترتبط بأغلب نواحى الحياة الأخلاقية عند الإنسان - ويمكن أن نلاحظ ذلك فى أصول الإيمان المختصر ، فإن واضع الأسئلة المتعلقة بالوصايا العشر ، وضع سؤالاً عما تأمر به كل وصية ، وسؤالاً عما تنهى عنه ؛ كما أن إجابات هذه الأسئلة تضمنت توسعاً ملحوظاً فى مضمون الوصايا ؛ فمثلاً اعتبرت الوصية الخامسة التى تأمر بإكرام الوالدين ، أنها تتضمن تقديم الكرامة لجميع الناس بمقتضى رتبهم كالمعلم والحاكم وغيرهما ؛ واعتبرت الوصية السادسة التى تنهى عن القتل بأنها تتضمن أن نبذل كل اجتهاد فى صيانة حياتنا وحياة الآخرين ، وهكذا ....[1]

ويظن البعض أن المبادىء الأخلاقية الواردة فى العهد القديم هى مجرد تشريعات وقوانين وضعها الله لشعبه ، وأعطاهم إياها ، وطلب منهم اتباعها بأسلوب تحكمى مفروض عليهم ، بدافع الرغبة فى الثواب أو الخوف من العقاب ، ويستند أصحاب هذا الرأى إلى بعض ما جاء فى العهد القديم من إشارات إلى الثواب والعقاب مثل القول الوارد فى إشعياء ١ : ١٩ و ٢٠ « إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض ، وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم » .

إلا أن هذا الإتجاه يتجاهل حقيقة إعلان الرب عن مراحمه ونعمته لشعبه ، وهذه تتضح من حقيقة افتقاده لهم ... هذا الإله الرحيم البار بشعبه لا يمكن أن يتصوره الشعب طالباً الطاعة

لوصاياه لمجرد فرض الأحكام بصورة تحكمية استبدادية ؛ وإنما هو يطلبها تجاوبا مع محبته ورحمته ، بل أكثر من ذلك ، إنه يقدم هذه الشريعة تعبيراً عن ذاته وطبيعته ؛ فلأن الله فى ذاته صالح ، لذلك فهو يريد من شعبه أن يكون مثله ، كما قال : « إنى أنا الرب إلهكم فتتقدسون وتكونون قديسين لأنى أنا قدوس » (لاويين ١١ : ٤٤) — فالله ليس مجرد واضع للأحكام والقاضى فيها ، لكن من طبيعة الله نفسه تنبع الأحكام . فما هى صفات الله التى صدر عنها تيار الأخلاق هذا ؟ إن الكتاب المقدس يصف الله بأنه « بار » أى عادل ، ويصفه بأنه « رحيم » . « الرب بار فى كل طرقه ورحيم فى كل أعماله » (مز ١٤٥ : ١٧) .

ومن هذه الصفات الإلهية تستمد الشريعة مادتها ومضمونها . وسنرى فيما بعد كيف تتبلور هذه الصفات فى المحبة المسيحية التى تلتقى فيها صفة الرحمة مع صفة البر .

لقد تلقى الشعب العبرانى الشريعة الطقسية مع الشريعة الأدبية ، لاعتبارات مختلفة لا نريد أن نتعرض للبحث فيها ، لأنها ليست الهدف من هذه الدراسة . لكننا نجد أن الأنبياء فى القرن الثامن قبل الميلاد ، احتفظوا بالأخلاقيات الأساسية عند الشعب العبرانى ، وسموا بها إلى مستوى أعلى . فقد أعلنوا بوضوح وإصرار ما سبق أن اعلنه الله من قبل (انظر ١ صم ١٥ : ٢٢) وهو أن الله يطلب البرّ أكثر من الذبائح والطقوس . ففى بدائية فهم الناس للديانة انشغلوا بالطقوس أكثر من السلوك الأخلاقى ، وتصوّروا أنهم ماداموا يحفظون هذه الطقوس والشعائر ، ويمارسونها فى مواعيدها ، فإنهم بذلك يكونون قد قاموا بالتزامهم أمام الله . لكن الأنبياء وقفوا بثبات ضدّ هذا الاتجاه الذى يجرّد الدين من معناه الأخلاقى ، وأعلنوا أن الله لا يُسَرّ بُكل تلك الممارسات إذا خلت حياة الناس من الحق والرحمة والمحبة . ونستطيع أن نقرأ نموذجاً لذلك فى سفر ميخا :

« بم أتقدم إلى الرب ، وأنحنى للإله العلى
هل أتقدم بمحرقات ، بعجول أبناء سنة
هل يُسرَّ الرب بألوف الكباش ، بربوات أنهار زيت

هل أعطى بكرى عن معصيتى
ثمرة جسدى عن خطية نفسى

قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح
وماذا يطلبه منك الرب
إلا أن تصنع الحق ، وتحب الرحمة

وتسلك متواضعا مع إلهك » (ميخا ٦ : ٦ - ٨)

وكذلك فى أقوال عاموس النبىّ :

« بغضتُ كرهت أعيادكم
ولست ألتذ باعتكافاتكم
إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى
وذبائح السلامة من مسمّناتكم لا ألتفت إليها

أبعد عنىّ ضجة أغانيك
ونغمة ربابك لا أسمع
وليجر الحق كالمياه ، والبر كنهر دائم » .(عاموس ٥ : ٢١ - ٢٤) .

ويوضح هوشع النبى غضب الله على شرور الناس بقوله :

« إن للرب محاكمة مع سكان الأرض ، لأنه لا أمانة ولا إحسان ولا معرفة الله فى الأرض . لعن وكذب وقتل وسرقة وفسق ... يعتنفون ودماء تلحق دماء ... »
(هوشع ٤ : ١ و ٢)

« إنى أريد رحمة لا ذبيحة ، ومعرفة الله أكثر من محرقات » (هوشع ٦ : ٦)

إذاً فالله يريد الأمانة والإحسان والرحمة والحق . كانت تلك هى رسالة الأنبياء ...

وثمة مفهوم آخر فى الفكر الأخلاقى كشف عنه الأنبياء فى القرن الثامن قبل الميلاد ، هو إعلان عمومية القانون الأخلاقى ، وانطباقه على جميع الناس . ونحن نلاحظ أنه فى بداية تاريخ الشعب العبرانى كان هناك إحساس بتضامن الشعب أحدهم مع الآخر ، مع ضعف فكرة عمومية القانون الأخلاقى . ففى سفر الخروج نجد فى الأصحاح الحادى والعشرين إلى الثالث والعشرين أحكاماً أعطاها الله للشعب العبرانى فى تعاملاتهم مع بعضهم البعض ، دون الغرباء ؛ بل إن بعض التصرفات التى كانت ممنوعة بين العبرانى وأخيه العبرانى ، كان مسموحاً بها بين العبرانى والغريب . ففى سفر التثنية نقرأ القول :

« لا تُقْرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء ما مما يُقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا ، لكى يباركك الرب إلهك »
(تث ٢٣ : ١٩ و ٢٠)

ربما كان هذا الاتجاه مرحلة ابتدائية فى التعليم الأخلاقى لحفظ تماسك الشعب وتضامنه فى

إطار النظام القَبلَى . وحتى فى هذا الإطار كان على العبرانى أن يهتم بالغريب ذاكراً أنه هو نفسه كان غريباً فى أرض مصر . « ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب . لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر » (خر ٢٣ : ٩) . وكانت الأحكام تقتضى تحرير العبد فى السنة السابعة (خر ٢١ : ٢) وتوصى بالاهتمام باليتيم والأرملة والفقير (خر ٢٢ : ٢٢ – ٢٥) ؛ لكن الأنبياء أعلنوا عمومية القانون الأخلاقى على جميع البشر ، وأنه إذا كان الله قد اختار الشعب العبرانى لرسالة خاصة ، فإن هذا لا يجعله يخفف من مطالبيه منهم ، بل بالحرى يجعلهم أكثر مسئولية أمامه . ويعلن الله للشعب قائلاً :

> « إياكم فقط عرفت (= أحببت محبة خاصة) من جميع قبائل الأرض ، لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم » (عاموس ٣ : ٢) .
> والله يهتم بجميع الشعوب اهتمامه بشعب إسرائيل إذ يقول : « ألستم لى كبنى الكوشيين يا بنى إسرائيل ، يقول الرب ، ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر ، والفلسطينيين من كفتور ، والأراميين من قير » (عاموس ٩ : ٧) .

إذاً فلا ينبغى أن يتصور شعب إسرائيل أنه بمنجاة من عقاب الله ، لكنه سينال عقابا إذا خالف القانون الأخلاقى ، شأنه فى ذلك شأن باقى الشعوب .

ولقد كان سمّو الشريعة الإلهية ، واهتمامها بالحق ، والرحمة ، والإحسان ، ومطالبة جميع الشعوب بنفس المستوى الأخلاقى ، راجعاً إلى اختبارهم لإلههم كإله متعال ، ذى إرادة بارة . ففى بداية رسالته النبوية رأى إشعياء السيد الرب « على كرسى عال ومرتفع » فى قداسته ، وشعر فى محضره المقدس بنجاسته وعدم استحقاقه ، فقال : « ويل لى إنى هلكت لأنى إنسان نجس الشفتين ، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين ، لأن عينىّ قد رأتا الملك رب الجنود » (إشعياء ٦ : ٥) .

وقد أوضح الشراح واللاهوتيون أن اختبار « القدوس » (The Holy) هو اختبار روحى عميق يشعر فيه الإنسان أنه أمام الله المتعالى المتسامى غير المدرك ذى الجلال ، فيخشع أمامه ويشعر بوضاعة المخلوق أمام القدوس . « فقداسة الله بالنسبة للأنبياء لم تكن مجرد اختلافه الكامل عن كلّ من عداه ، بل هى أيضاً كمال نقاوته وبرّه »[٢] . إن إرادة هذا الإله الكامل فى برّه ، هى أساس مطالبيه الأخلاقية السامية من الإنسان .

وبرّ الله لم تكن له صفة السكون والجمود ، أى أنه لم يكن كامنا فى إرادته تعالى بمعزل عن العالم ، وإنما أعلنه الله فى صورة أوامر أخلاقية ، وأن الناس دينوا حسب موقفهم منها ، فمن

أطاعوا نالو المكافأة خيراً وسعادة ، ومن قاوموا إرادته الصالحة ، حمى غضبه عليهم . كان هذا هو جوهر رسالة الأنبياء لأنهم تبينوا قداسة الله ، فعرفوا أن مطاليبه أسمى من مطاليب الأخلاق التقليدية لشعوبهم . لقد كانت مطالب الله للبر والعدالة هى أيضاً أساس الشعور العميق بالخطية ، والحاجة إلى الغفران ، وكان هذا واضحا فى رسالة الأنبياء . لقد اعتبر إشعياء الخطية عصيانا ضد الله ، واعتبرها إرميا أكثر من مجرد مخالفة ظاهرية لوصايا الله ، بل رآها حالة مستقرة فى النفس ، وفساداً يشبه المرض الذى يصيب الإنسان من هامة الرأس إلى أخمص القدم[٣] .

إنها داء متأصل يصعب علاجه ، لذلك قال :

« هل يغيّر الكوشى جلده أو النمر رُقَطَهُ . فأنتم أيضاً تقدرون أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر » (إرميا ١٣ : ٢٣) .

وأعلن الأنبياء أنه بسبب شر ورفضه التوبة ، فإن المستقبل القريب مظلم بالنسبة له ، ذلك لأنه إذا كان الرب باراً ، فلابد أن يدين إسرائيل من أجل عدم أمانته ولأجل المظالم التى يقترفها . وسوف يستخدم الله فى الدينونة شعوبا ودولاً أخرى لتنفيذ هذه الدينونة . فقد حذّر إشعياء بأن مملكة أشور سوف تغزو إسرائيل وتهزمه وتسبى أولاده . وبعد نحو قرن من الزمان تنبأ إرميا بأن أورشليم سوف تُخْرَب وتفقد استقلالها تماما .

إلا أن رؤية الأنبياء لم تقف عند هذا الحد ، ولم تكن متشائمة على المدى البعيد ، فقد شبّه هوشع مشاعر يهوه نحو إسرائيل بمشاعر الزوج المحبّ تجاه زوجته الخائنة ، ووضح أن الله يتوق إلى إعادة هذه الزوجة إلى مكانها ، مكان المحبوب ، وهو على استعداد أن يأخذ المبادرة بأن يبحث عنها رغم عدم استحقاقها ــ فلنتأمل فى هذا النص :

« كيف أجعلك يا أفرايم
أصيرّك يا إسرائيل
كيف أجعلك كأدمة ، أصنعك كصبوييم (*)
قد انقلب علَىَّ قلبى
اضطرمت مراحمى جميعا
لا أجرى حموّ غضبى

(*) (أدمة وصبوييم أسماء مدن خربت مع سدوم وعمورة) .

لا أعود أخرب أفرايم
لأنى الله لا انسان
القدوس فى وسطك
فلا آتى بسخط » (هوشع ١١ : ٨ و ٩)

لقد كانت رؤية الأنبياء للتاريخ متفائلة على المدى البعيد ، ذلك لأنهم آمنوا أن الله هو سيِّد التاريخ ، وأن له قصدا للإنسان ، لذلك فإنه بمراحمه الكثيرة سوف يفتقد شعبه ، وبقدرته الفائقة سيعيد هذا الشعب إلى البّر والرخاء ، لأن مقاصده الصالحة لا يمكن أن تخيب .

إن الله الذى يستخدم الأمم والإمبراطوريات العظيمة لتكون عصا تأديب لشعبه ، سوف يدين هذه الأمم والإمبراطوريات عندما تتكبّر وتتجبّر وتظن أنها بقوّتها وقدرتها نالت تلك الانتصارات . وأما شعبه ، فبعد أن يجلدهم ويؤدبهم بالحروب ، والمجاعة ، والأسر ، فإنه سيعيد « بقيّة » إلى أرضهم ، وسيقيم الله « المسيًا » من نسل داود ليحكمهم ، ويبدأ عصر جديد يتميزّ بالرخاء والعدل والسلام .

« لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا مشيراً إلهاً قديراً أبا أبديا رئيس السلام . لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد »

(إش ٩ : ٦ و ٧)

وفى تطورات لاحقة لهذا « الرجاء المسيّوى » لا نجد ذكراً متكرراً بأن هناك ملكاً معيناً بالذات ، بل نرى أن من المتوقع أن الله نفسه سيفدى شعبه ، ويحكمهم بنفسه.(٤) .

ومن بين الرؤىء الرائعة التى رآها إرميا للمستقبل فى وسط أظلم أيام تاريخ مملكة يهوذا ، أن الله سوف يؤسس « عهداً جديداً » مع إسرائيل ، ويكتب ناموسه لا على ألواح حجرية ، ولكن على قلب كل فرد ، فيقول :

« ها أيام تأتى يقول الرب ، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً . ليس كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدى فرفضتهم يقول الرب ، بل هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب : أجعل شريعتى فى داخلهم

وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلها وهم يكونون لى شعبا .
ولا يعلّمون بعدُ كلُّ واحد صاحبه وكلُّ واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلّهم سيعرفوننى من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب . لأنى أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد »

(إرميا ٣١ : ٣١ — ٣٤)

بل إننا نستطيع أن نجد رؤيا أروع للمستقبل فى الجزء الثانى من سفر إشعياء النبىّ ، فإن النبىّ يعزّى المسبيين فى بابل بوعد الله بتحريرهم وإعادتهم إلى إسرائيل ، ويؤكد لهم أن سيّد جميع الشعوب ومتسلط عليها لتحقيق مقاصده ، وأن قصد الله ليس قاصراً على خلاص إسرائيل وسعادته وحده ، بل خلاص جميع الشعوب .

وأساس هذه النظرة العمومية للمستقبل هو الإيمان بإله واحد لجميع الشعوب ، فهو يهزأ بمن يظنون أن هناك آلهة أخرى بجانب يهوه ، ويقول إن آلهة بابل هى مجرد أصنام صنعتها أيدى الناس من الخشب أو المعادن بلا حول ولا قوّة ، وبذلك فإنها لا تستطيع أن تقف فى طريق اتمام مقاصد يهوه .

وهكذا نرى فى رسالة الأنبياء وحدانية الله النقية ، وعمومية سلطان الله على الجميع ، والديانة الشخصية أى التكليف الفردى للإنسان ومسئوليته أمام الله .

وقد افترض الأنبياء أن الإنسان يستطيع أن يميّز بين الخير والشر ، وأن يختار الخير . ومن الواضح أن الأنبياء أدركوا مقدار الفساد الذى يصيب إرادة الإنسان بسبب الخطية ، وكيف أنها تحاول أن تميت ضميره ، وفى هذا يصرخ إشعياء :

« ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً ، الجاعلين الظلام نوراً ، والنور ظلاما الجاعلين المرّحلوا ، والحلو مرّاً » . (إش ٥ : ٢٠)

إلا أن الأنبياء لم ينادوا بأن أفكار الإنسان وأفعاله تحكمها عوامل خارج قدرة الإنسان ، فقد اعتقدوا أن للإنسان قدراً من الحرّيّة ، وبالتالى فإنه يمتلك إمكانية التغيير الخلقى . ورغم أن الخطية تقسىّ قلبه لكنه يستطيع أن يتوب — ومع أنهم اعتقدوا بسلطان الله على الحياة الإنسانية ، إلا أنهم استطاعوا أن يوفقوا بين سلطان الله وحرية الإنسان ، فإن الحرية فى نظرهم كانت فى « أن يسلمّ الإنسان شخصيته بإرادته لله » .

والإتجاه الغالب فى العهد القديم فى موضوع علاقة حرية الإنسان بالنعمة الإلهية تبدو

للبعض مختلفا عن الفكر اللاهوتى السائد فى المسيحية ، فإن تعاليم بولس الرسول ومن ـ منه أمثال القديس أوغسطينوس ، ولوثر ، وكلفن ، تؤكد حاجة الإنسان إلى نعمة خاصة لتحرره من عبودية الخطية . بينما نحن نقرأ فى الأنبياء وفى المزامير ما يُفهم منه البعض قدرة الإنسان على التوبة ، ومع ما فى الإنسان من دوافع تجذبه إلى الخطية ، فإنه لا يخلو من دوافع نحو الخير .مما حدا بالبعض أن يظنوا أن الأنبياء اعتقدوا أن الإنسان إذا أراد التوبة مخلصاً فإنه يستطيع أن يغيّر مجرى حياته . لكننا نرى فى كتابات الأنبياء نغمة مختلفة عن ذلك الرأى السائد ، وهى نغمة تكاد تصل إلى درجة اليأس الأخلاقى من قدرة الإنسان – ومن ذلك ما كتب فى المزمور الحادى والخمسين وهو وليد اختبار شخصى لداود النبى الذى يقول :

« هأنذا بالإثم صوّرت
وبالخطية حبلت بى أمى ...
قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله
وروحا مستقيما جدد فى داخلى
لا تطرحنى من قدام وجهك
وروحك القدوس لا تنزعه منى » (مزاه : ٥ و ١٠ و ١١)

هنا نستطيع أن نرى الشعور بالحاجة إلى تدخل الله ليعطى للإنسان قلباً جديداً وروحاً مستقيماً .

ولعل الوصف المشار إليه سابقاً فى إرميا للعهد الجديد بين الله وشعبه ، وكذلك ما جاء فى رؤيا حزقيال للعظام اليابسة التىأعادها روح الله إلى الحياة (حزقيال ٣٧) ، هذه الإشارات تؤكد أن الفداء يحتاج إلى تدخل الله بكيفية خاصة ، وهنا نجد فكر العهد القديم لا يختلف عن فكر العهد الجديد .

٢ – صفات الله : البِّر والرحمة

ذكرنا أن الصفتين البارزتين اللتين يصف بهما العهد القديم الله تعالى هما البِّر والرحمة – (والبِّر) ترجمة عربية لكلمة «צֶדֶק»(صيدق) العبرية ، ونفس الكلمة تترجم أحيانا « العدل » ، لأن المقصود بالكلمة معنى العدالة عندما تتجه من الله نحو الإنسان . وهذه الكلمة تختلف عن الكلمة العبرية «מִשְׁפָּט» (مشباط) التى تترجم فى اللغة العربية « الحق » .

يقول أغلب الدارسين للغة العهد القديم الأصلية إن صفة « البر » (= صيدق) تُنسب إلى

الله تعالى وحده ، وهذا البر يصير معياراً أو مقياساً نموذجياً للعدل عند الإنسان ؛ فعندما يطبّق الإنسان العدل يطبقه تحت صفة « الحق » (= مشباط) .

وبهذا تصف الكلمة الأولى « صيدق » العدل الإلهى وهو البِّر ، وتصف الكلمة الثانية « مشباط » العدل الإنسانى وهو الحقّ ، لذلك تستخدم هذه الكلمة الأخيرة فى وصف القضاء وأحكامه بين البشر .

عندما ندرس آيات الكتاب المقدس ، نلاحظ أن بِّر الله يظهر فى خلاص الإنسان ، ففى مزمور ٧١ : ٢ يقول المرنم : « بعدلك نجّنى وأنقذنى ، أمل الىَّ أذنك وخلصنى » . والكلمة المترجمة « بعدلك » هى «בְּצִדְקָתְךָ» (بصيدقاتك) أى تبرُّك .

وبمقارنة عدة آيات تتحدث فى نفس المعنى نستطيع أن نرى أن طبيعة الله هى الاهتمام بخلاص الإنسان وهذا العمل جزء من نشاط الله المبنى على بِّره أو عدله . مثل « بمخاوف فى العدل تستجيبنا يا إله خلاصنا » (مز ٦٥ : ٥)

« أما رحمة الرب فإلى الدهر والأبد ... وعدله على بنى البنين » (مز ١٠٣ : ١٧)

« بعدلك نجّنى » (مز ٣١ : ١)

فعندما يظهر الله برّه أو عدله ، فإنه يظهره فى خلاص الإنسان وفى الرأفة عليه . هذا الأسلوب فى التعبير عن البّر مخالف لما تعود الناس أن يفكروا فيه ، فالناس يتصورون أن البّر أو العدل يقتضى العقاب أو الحساب على الأقل ، وهم عادة يقولون إن الله عادل وبارّ ، **وبالرغم من ذلك فهو مخلّص** – ولكننا عندما نقرأ العهد القديم قراءة غير متحيزة لهذا الفكر الشائع ، نستطيع أن نرى أن الله عادلٌ وبارّ ولذلك فهو مخلص . وهنا نقترب صفة البّر فى الذات الإلهية من صفة أخرى هى صفة **الرحمة**[٥] . والكلمة العبرية المترجمة « رحمة » فى العهد القديم هى كلمة « חֶסֶד » (حيسد) وتترجم الرحمة أو الإحسان ، وهى لا تعنى الرحمة بمعنى الشفقة ، ولا الإحسان بمعنى العطف على الاحتياج ، ولكنها تعنى ما يمكن أن نسميه « الإحسان الأبدىّ » أو اتجاه الله الثابت نحو محبة الإنسان وإغاثته والإحسان إليه – إن معنى الكلمة يشير إلى اتجاه مثابر للمحبة بإصرار لا يتغير رغم الظروف . وبذلك تكون هذه الكلمة قريبة من الكلمة اليونانية «ἀγάπη» (أجابى أو أغابى agape) التى تعنى « المحبة » بمعناها المسيحى ، وتصف المحبة المسيحية الكاملة ، وقد ترجمت فى الترجمات الإنجليزية القديمة للعهد الجديد «Charity» ومعناها الإحسان ، وبذلك تكون هذه الترجمة قريبة إلى معنى الرحمة (حيسد) فى العهد القديم . (ولنا حديث مطول فيما بعد عن المحبة) .

على أننا عندما نواصل الدراسة والمقارنة نجد أن كلمة « البر » وكلمة « الحق » تتداخلان معاً ، ويبادل كتبة العهد القديم فى إستخدامهما فى وصف الله تعالى ، ولا يصير استخدام الثانية قاصراً على وصف التطبيقات البشرية للعدل ، ويظهر هذا فى عدة آيات تستخدم فيها الكلمتان للدلالة على معنى واحد ، أو يستخدمهما الكاتب فى مقابلات شعرية بنفس المعنى ، مثلما جاء فى عاموس ٥ : ٢٤

« ليجر الحق كالمياه والبّر كنهر دائم »

ومثل الصلاة لأجل الملك فى مز ٧٢ : ١ - ٤

« اللهم أعط أحكامك (مشباط) للملك
وبرّك (صيدق) لابن الملك .
يدين شعبك بالعدل (صيدق)
ومساكينك بالحق (مشباط) .
تحمل الجبال سلاما للشعب
والآكام بالبر .
يقضى لمساكين الشعب .
يخلص بنى البائسين ويسحق الظالم »

ولعلّ السرّ فى هذا هو أن عدل الله يصير أساس الحياة فى ملكوت الله أو دائرة سلطانه ، وبذلك تستمد قوانين حكم الشعب أساسها من طبيعة الله ، ومن هذا تستخدم كلمتا البرّ والحقّ استخداما مترادفاً .

وهكذا يظهر لنا أن هذه الصفات : البر والحق والرحمة تقترب معانيها من بعضها البعض لأنها كلّها أصلاً من صفات الله التى تتجه نحو الإنسان ، والتى تجعل الإنسان ملتزما أخلاقياً بممارسة هذه الفضائل على أساس أنها من طبيعة الله الذى يريد أن يكون الناس مثله فى أخلاقه وصفاته ، ونستطيع أن نرى ذلك جليا فى القول :

« لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب الإله العظيم الجبار المهيب الذى لا يأخذ بالوجوه ولا يقبل رشوة الصانع حق اليتيم والأرملة والمحب الغريب ليعطيه طعاماً ولباساً . فأحبوا الغريب لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر » . (تث ١٠ : ١٧ - ١٩) .

ولعل هذا يفسر أيضاً تلخيص السيد المسيح فيما بعد للناموس كلّه المستمد من طبيعة الله فى وصية المحبة لله وللقريب .

وينبغى أن نلاحظ أن معنى العدل فى الكتاب المقدس يختلف عن معناه فى فكر الإنسان البشرى . فالفكر الإنسانى يصوّر العدل بأنه المساواة بين الجميع مادامت مراكزهم متساوية فى المعايير أو الأسس التى يُبنى عليها توزيع الحقوق .

ويوجد مثل مصرى شائع يقول إن « المساواة فى الظلم عدل » ، أى أن التنبير هنا هو المساواة فى المعاملة . والسؤال الجوهرى الذى يواجهه الإنسان عند تطبيق العدالة البشرية هو « هل أعطيت للشخص حقّه كما يستحقه ؟ » . وهكذا يفكر الإنسان فى درجات هذا الاستحقاق ، وعلى سبيل المثال عند تقدير مرتبات الموظفين وترقياتهم توضع قواعد عامة معينة تراعى بعناية لتحقيق العدالة ، فيؤخذ فى الاعتبار الدرجة العلمية ، ومدة الخدمة ، والكفاءة ، وتقارير العمل إلى غير ذلك – هذا هو « العدل التوزيعى » أى العدالة فى توزيع الحقوق ، وأحياناً يُسمَّى « العدل التصحيحى » أى تصحيح الأوضاع – أما فى مفهوم الكتاب المقدس فإننا نرى العدل نوعا من الرحمة للفقير والمحتاج ومن ليس له معين أو نصير ، ولذلك فإننا يمكن أن نسميه « عدلاً فادياً » لأنه يفتدى المسكين وينتشله ويرحمه . وفى نبوة إشعياء نقرأ عن مثل هذا العدل الذى يجريه المسيّا بالقول :

« ولذته تكون فى مخافة الرب فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه ، بل يقضى بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض » (إش ١١ : ٣ و ٤) .

ولقد أنقذ الله شعبه الغريب من مصر دون أن يكون هذا الشعب مستحقا لذلك ، بل لأنه كان يحتاج إلى معونة . وهنا نرى إرتباط العدل أو البّر بالخلاص والرحمة . وعلى هذا يكون أساس الأخلاق ليس مجرد الطاعة لسلطان الله ووصاياه ، ولكن العرفان بالجميل الذى يدفع الإنسان بأن يلتزم بأن يكون له نفس اتجاه الله الذى أحسن إليه . وفى حديث ناثان النبى مع داود عندما أخطأ بقتل أوريّا الحثى وأخذ زوجته ، أدان داود نفسه فى المثل الذى أعطاه له ناثان النبىّ عن الغنىّ الذى لم يأخذ لضيفه نعجة من غنمه الخاص ، وإنما أخذ نعجة الرجل الفقير ، ولو قرأنا عن سبب دينونة داود لهذا الرجل كما أعلن ذلك نجدها فى قوله : « لأنه لم يشفق » (٢ صم ١٢ : ٦) . وكما أعلن النبى بعد ذلك أيضاً لأنه « جعل أعداء الرب يشمتون »[٦] (٢ صم ١٢ : ١٤) . فالخطية أساساً لم تكن بالدرجة الأولى بسبب عدم تناسق الفعل مع طبيعة الأمور ، أو مع العقل ، ولكن بسبب مخالفة التزام الشفقة التى كان

ينبغى أن يلتزم بها داود باعتباره داخلاً فى عهد مع الله ، لذلك كانت الخطية أولاً وأخيراً ضد الله . (٢ صم ١٢ : ١٣ ؛ مزمور ٥١ : ٤)[٧] .

ونستطيع أن نرى نفس هذا الإتجاه الموجود فى العهد القديم مستمراً فى العهد الجديد ، فليس هناك اختلاف فى أساس الأخلاق ، ونستطيع أن نتبين ذلك من بعض أقوال السيد المسيح التى توصى بنوع من السلوك الذى لا يعتبر فى نظر المقاييس البشرية عدلاً ، كقوله مثلاً « من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردَّه » (مت ٥ : ٤٢) ، كما نرى ذلك فى مثل الفعلة والأجور (مت ٢٠ : ١ – ١٦) ففيه نرى صورة للعدالة فى ملكوت السموات ، فإن السيد لم يُسَرّ بالفعلة الذين تذمروا لأنه أعطاهم ديناراً واحداً وقد اشتغلوا طيلة اليوم ، بينما أعطى ديناراً أيضاً لمن عملوا ساعة واحدة أو ساعات أقل . ونرجو أن نشرح هذا بالتفصيل فى الفصل الخاص بالمحبة المسيحية (agape) .

إن فكرة العدالة الفادية لم تخطر على الفكر البشرى ، لكننا نراها فى الكتاب المقدس مرتبطة بالرحمة ولا يمكن أن تنفصل عنها ، لأنها نابعة من طبيعة الله التى ترتبط فيها الرحمة مع البّر ، فهو الذى يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ؛ ولكى نكون مثله يجب أن نحب أعداءنا ونبارك لاعنينا ونحسن إلى مبغضينا ، لنكون كاملين كما أنه هو كامل (مت ٥ : ٤٨) وقد فسَّر البعض كلمة « كاملين » بمعنى شاملين فى المحبة ، أى ألّا ننظر إلى الناس من حيث استحقاقهم بل من أجل حاجتهم .

٣ – أخلاقيات الكمال فى تعليم السيد المسيح

مما تقدم نستطيع أن ندرك مصدر تعاليم السيد المسيح . إن مصدرها هو طبيعة الله الكاملة ، لذلك يمكن أن نطلق على الأخلاقيات فى تعليم السيد المسيح « أخلاقيات الكمال » . وإذا استعرضنا هذه التعاليم نرى أنها تتميز بعدة أمور :

(أ) لقد علَّم السيد المسيح الناس أن تتحرر دوافع سلوكهم من الرغبة فى الحصول على استحسان الناس ، وإلا فإن البشر يمكن أن يفعلوا الصلاح بدافع نوال الجزاء من الناس لا من منطلق الطاعة لأمر الله . ولعل هذا يذكرنا بحديث فى « جمهورية أفلاطون » يقول فيه أفلاطون على لسان احدى شخصياته إن الامتحان الحقيقى إذا ما كان إنسان ما فاضلًا فى الواقع وليس تظاهرا هو أن نرى ما يفعله هذا الانسان لو أمكنه أن يلبس خاتما سحرياً يخفيه عن أنظار الناس ، ويسمح له أن يرتكب الرذائل دون ملاحظة أحد أو عقاب من أحد ، فإذا استمر فاضلًا كان بالحق كذلك . (٨)

وفى حديث السيد المسيح عن الصدقة والصوم والصلاة يوصى الناس ألا يفعلوا ذلك لكى يراهم أو يمدحهم الناس (مت ٦ : ١ — ١٨) فإن من يفعلون هذا لينالوا استحسان البشر ، يستوفون أجرهم بمجرد ثناء الناس عليهم . والحكمة وراء هذا التعليم هى أننا إذا أردنا أن نرضى الناس ، فلن نستطيع أن نرضى الله ، إذ ستدفعنا هذه الرغبة الى سلوك لا يرضاه الله ، إذ تحكمنا حينذاك قيم ومقاييس الناس الناقصة أو المعوّجة . والهدف الذى يضعه المسيح أمام المؤمنين هو أن يكونوا « أبناء » أبيهم الذى فى السموات (مت ٥ : ٤٥) وأن يكونوا ملحا للأرض ونوراً للعالم (مت ٥ : ١٣ و ١٤)

(ب)والكمال فى تعاليم المسيح الأخلاقية يظهر أيضا فى المعيار أو النموذج الذى يضعه أمامهم ، فهو يضع أمامهم طبيعة الله الكاملة قائلًا لهم : « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» (مت٥ : ٤٨) وفى هذا يختلف السيد المسيح عن فلاسفة الأخلاق كأرسطو مثلًا الذى فهم الأخلاق من منطلق عقلى إنسانى ، فجعل حكماء اليونان وأفعالهم نماذج أخلاقية . لكن يسوع يقارن المحبة الناقصة التى كانت عند الناس العاديين ، بمحبة الله الكاملة ؛ بل إنه يقارن أيضاً بين بر الناس الذين هم على أرقى مستوى دينى ، وبين البّر المطلوب من المؤمنين فيقول لهم « إن لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات » (مت ٥ : ٢٠) فقد كان هؤلاء أكثر الناس تدقيقاً فى تفاصيل الناموس ، ومع ذلك فقد كان النموذج الذى يضعه يسوع أعلى من كل مستوى بشرىّ .

(جـ)والكمال الذى يطلبه يسوع يظهر أيضاً من توجيه النظر إلى دواخل النفس لا إلى ظواهر الأمور ؛ فلا يكفى أن تكون الأفعال صالحة ، بل ينبغى أن تكون الدوافع نفسها نقّية ، والعواطف والأشواق مقدّسة . ويتضح ذلك بشكل ظاهر فى العظة على الجبل عندما يقارن المسيح بين تعاليمه وبين ناموس موسى بقوله « سمعتم أنه قيل للقدماء .... وأما أنا فأقول لكم ... » . وفى كل ما يذكره يؤكد أن الغضب مثل القتل ، والنظرة الشريرة مثل الزنا .. (مت ٥ : ٢٢ — ٢٨) — وليس المقصود بتعليمه هنا أن الغضب قد يقود إلى القتل ، أو أن النظرة الشريرة هى الخطوة الأولى فى الطريق إلى الزنا ... فقد لا تؤدى الدوافع إلى هذه النتائج ، ومع ذلك فالدينونة واقعة على الإنسان ، إذ من الواجب أن يضبط الإنسان عواطفه ورغباته ، ذلك لأن الغضب والشهوة هما ضد المحبة ؛ والمحبة تؤكد قيمة الآخرين وتعاملهم على أساس هذه القيمة ، وعلى هذا الأساس فإن ميل الإرادة ، والصفات الشخصية للإنسان ، لها دلالة أخلاقية ؛ فالاتجاه لصنع السلام ، والغفران ، وتقبّل الأمور ببساطة الأطفال ، ضرورية

لكمال الصلاح . وبعض الصفات كالوداعة ونقاوة القلب والرحمة ، هى صفات أبناء الملكوت كما جاء فى التطويبات . لقد اهتم الرب يسوع المسيح بكل ما هو أصيل وعميق فى الشخصية الإنسانية ، لأن هذه هى الينابيع التى تفيض منها الأخلاق العملية ، فالشخصية هى التى تحدّد السلوك « كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة ، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية » (مت ٧ : ١٧) – ولعل هذا يوضح لنا ماذا كان موقف المسيح يكون إزاء بعض النظريات الحديثة فى الأخلاق ، كمذهب النفعيين الذين لا يهتمون بأصول الأخلاق فى داخل الشخصية ، مكتفين فقط بنتائج الأفعال .

على أننا نقع فى خطأ لو تصورنا أن الاهتمام بدوافع النفس ودواخلها هو وحده ما يطلبه المسيح بصرف النظر عن النتائج ، فإن النص الذى سبق الاقتباس منه يقول أيضاً إن « كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطَع وتلقى فى النار . فإذاً من ثمارهم تعرفونهم » (مت ٧ : ١٩ و ٢٠) – وفى خاتمة العظة على الجبل يقول السيد المسيح إن المشبَّه بمن يبنى بيته على الصخر ليس من « يسمع » فقط بل من يسمع و « يعمل » بأقواله (مت ٧ : ٢٤ – ٢٧) .

(د) وهناك جانب آخر نرى فيه الكمال فى أخلاقيات السيد المسيح وهو المعارضة الكاملة لكلّ ما هو أنانىّ . يقول العلّامة رينهولد نيبور « إن الإصرار المطلق على الكمال فى أخلاقيات المحبة عند المسيح ، يجعلها تقف موقفا حاسما بلا تهاون أو محاولات توفيقية ، ليس فقط إزاء الدوافع الطبيعية الذاتية ، بل حتى إزاء المدافعة عن النفس ضد أنانية الآخرين »[٩] .

إن السيد المسيح ينهى عن القلق من أجل الطعام واللباس ، وينهى عن الكبرياء بكل مظاهرها ، وعن مقاومة الأعداء ؛ فلابد أن تكون المحبة عامة ، وحتى الولاء للعلاقات الأسرية يجب أن يخضع لولاءٍ أسمى يكون للمسيح نفسه ولله ، وهذا يفسر أقوال المسيح التى تطالب بمحبة له أكثر من محبة الآباء والأمهات والأولاد والبنات والأزواج والزوجات . وإذا تساءلنا عن المبرر لهذه المطاليب التى تقتضى الرفض التام للذاتية ، نجد المبرر دينياً وليس اجتماعياً أو أخلاقياً ... إن المبرر هو التطابق مع مشيئة الله الكاملة وطبيعة الله الكاملة .

ويقول نيبور أيضاً :

« إن المسيح يوجهنا رأسيا لا أفقياً ، دون اعتبار لأية نتائج أو دوافع طبيعية ، فقد

تكون مواجهة شر الأعداء بالمحبة والإحسان سبيلا لتخليصهم من مشاعر العداء ، وقد تكون ذريعة لاسترسالهم فى مزيد من العداوة ؛ وقد يكون الغفران للمسىء سببا فى تغييره ، وقد لا يكون – إن يسوع يضع فى إعتباره مشيئة الله الكاملة فحسب ، دون اعتبار للنتائج »[١٠] .

هنا تبرز المشكلة التى تسبب الحيرة لكثيرين ، وهى : هل هذه المطاليب السامية إلى درجة الكمال عملية يمكن تحقيقها فى الواقع ؛ أو بتعبير آخر : كيف يمكن أن نطبّق الأخلاقيات المثالية الكاملة فى عالم خاطىء تملؤه النقائص والضعفات ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ليست سهلة يسيرة ، ولا يمكن الوصول إليها إلا بمزيد من الدرس والتعمق فى فهم هذه التعاليم ، ودراسة علاقة يسوع المسيح بالناموس ، لنرى هل أراد يسوع أن يضع ناموساً جديداً أسمى من ناموس موسى ، وهل هذا هو الإنجيل ؟

٤ – نظرية الأخلاق الانتقالية المؤقتة

كانت تعاليم السيد المسيح الأخلاقية سببا فى حيرة كثيرين من اللاهوتيين لأنهم وجدوها أسمى من أن تكون ممكنة التطبيق فى عالم ضعيف خاطىء ؛ وكانت هذه الحيرة سبباً فى عدة افتراضات أو نظريات فسَّر بها اللاهوتيون هذه التعاليم . ومن بين هذه النظريات رأى نادى به اثنان من علماء اللاهوت هما يوهانز وايس ، وألبرت شويتزر . وخلاصة هذا الرأى أن يسوع المسيح كان متأثراً بالتفكير الرؤوى (نسبة إلى الرؤيا وسنشرحه فيما بعد) والتفكير الاسخاتولوجى أى المتعلق بالآخرة ، فى مفهومه عن مجيء ملكوت الله ؛ وأنه كان يعتقد بأن الله سيتدخل سريعاً فى وقت قريب ويغيّر أوضاع ذلك « العالم الحاضر » ، ويدينه ، ويبيد الأشرار ؛ ويأتى « بالعالم الآتى » أو الجديد ، الذى ينتفى فيه الشرّ ويعلن حكم الله البار ، وهو ما كان اليهود يطلقون عليه « الدهر الآتى » . ويقول شويتزر إن يسوع كان يعتقد أن ملكوت الله سيظهر فى حياته ، ولكن عندما لم يحدث شيء من هذا القبيل ، عدَّل يسوع رأيه ، وصار يعتقد بأن الملكوت سيظهر بعد موته وفى حياة تلاميذه ، ولذلك أعطى لتلاميذه العظة على الجبل لتكون أخلاقاً خاصة مؤقتة لفترة انتقالية تقع بين كرازة المسيح وظهور الملكوت – ولهذا – حسب هذا الرأى – دعت العظة على الجبل إلى عدم مقاومة الشر ، ومسالمة الناس ، وإعطائهم ما يرغبون ، ذلك لأن الله سوف ينصرهم دون جهد منهم وبتدخل مباشر منه ، لذلك فليس هناك ما يدعو إلى مقاومة الشر بل إن الوداعة ستجعلهم يرثون الأرض ومسكنة الروح ستعطيهم ملكوت السموات[١١] . وكأنما يرى أصحاب هذا الرأى أن الهدف من تعاليم

المسيح الأخلاقية كان أن يبيّن للناس ماذا ينبغى أن يعملوه ليعدّوا أنفسهم للدخول فى الملكوت وفى الفترة الانتقالية بين إعلان الملكوت بواسطة المسيح وبين مجيء الملكوت الفعلى السريع والمنتظر .

ولكن هذا الرأى منقوض من أساسه لأنه يفترض جهل يسوع بالمستقبل ، والواقع أن حياة يسوع تبين لنا عكس ذلك تماما ، والآية التى قال فيها يسوع إنه حتى الابن لا يعرف الأزمنة التى جعلها الآب فى سلطانه (مر ١٣ : ٣٢) لا تعنى جهل يسوع بالأزمنة ، ولكنها تعبّر عن إخلائه لنفسه بإرادته كجزء من عملية الاتضاع التى قام بها . كما أن التيار الذى يجرى خلال الكتاب المقدس كلّه يبين لنا أن يسوع جاء ليكون الذبيحة الفدائية عن البشر ، وأن دمه معروف سابقاً قبل تأسيس العالم - كما أننا سنرى فيما بعد أن يسوع تحدث عن ملكوت الله بأنه أقبل فعلاً ، بل أنه صار داخل التلاميذ - ووعد يسوع لبطرس بأن أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة يؤكد خطأ رأى شويتزر فى أن يسوع كان يعتقد بسرعة النهاية بالنسبة لعالم الشرّ ، وإلا فإنه لا يكون فى المستقبل مكان للصراع بين الكنيسة وبين أبواب الجحيم .

إذاً فهذه النظرية ثابتة الخطأ ، وإن كانت تلقى ضوءاً على الظروف التاريخية والدينية لعصر المسيح ، وعلى مفهوم ملكوت الله بالتفسير الاسخاتولوجى (الأخروى) ، لكنها لا تستقيم فى استنتاجاتها المسترسلة . ولهذا يجدر بنا أن نوضح شيئاً عن التفكير الرؤوى وعن ملكوت الله .

أ - التفكير الرؤيوى أو الأبوكاليبتى (Apocalyptic)

من يدرس العهد القديم يلاحظ أن الأنبياء اعتقدوا بسيادة الله على تاريخ الشعوب ، وكانت للأنبياء نظرة متفائلة إلى مستقبل شعب الله ، إذ سيشرق عليهم عصر جديد يعمّ فيه السلام والخير . هذا الرجاء تطور إلى ما يُعرف باسم « الرجاء المسيوى » (Messianic Hope) وبموجب هذا الرجاء اعتقد اليهود أن عصر المسيا سيتّم هنا على الأرض ويكون عصراً مجيداً يعلو فيه شعب الله فوق جميع الشعوب . وقد حدث أن الشعب اليهودى ذاق مرارة السبى زمنا طويلاً وكان يتوقع عصر المسيّا لكى ينقذه من محنته ، لكن هذا لم يحدث ، ولم يأت المسيّا . وفى الفترة الواقعة ما بين العهدين وهى نحو أربعة قرون ، وبينما كان اليهود يرزحون تحت نير السلطة الأجنبية نشأ نوع من التفكير أطلق عليه اللاهوتيون اسم التفكير الرؤوى ، وهو نوع من التطوير على « الرجاء المسيوى » يعتبر أكثر دراماتيكية وغموضاً ،

وقد كتبت بعض الكتابات التى تسمى الأدب الرؤيوى مثل بعض أجزاء من سفر دانيآل وبعض أسفار الأبوكريفا مثل سفر أخنوخ ، يغلب عليها الغموض والرمزية – ويتلخص هذا الرجاء الرؤيوى فى أن « العالم الحاضر » الذى يلاقون فيه المظالم والاستبداد واقع تحت تأثير قوى الشر والظلام والشيطان ، ولا رجاء فى إصلاح هذا العالم إلا بإنهيار تام لهذا العالم بتدخل مباشر من الله أو بواسطة من أسماه سفر أخنوخ « ابن الإنسان » ، وبهذا التدخل تحدث كوارث وظروف عصيبة فى وقت يسمونه باسم « يوم الرب » حين يدين الله الأشرار ويبدأ الله مع شعبه عهداً جديداً أطلقوا عليه « العالم الآتى » أو « الدهر الآتى » .

ونحن يهمنا أن نفهم هذا التفكير لأن فى بعض الأناجيل أفكار رؤيوية مثل مرقس ١٣ ، متى ٢٤ ، كذلك سفر الرؤيا كله سفر رؤيوى – ومع أن البعض يسخرون من مثل هذا التفكير ويعتبرونه تنفيساً عن شعور اليهود بالظلم ونوعا من « أحلام المستعبدين » ؛ لكن أهمية هذا الفكر لا تأتى من مطابقته التامة للأحداث ، ولكن فى نظرته إلى الله ، واعتباره ليس مجرد الإله العادل فحسب ، بل هو أيضاً صاحب قصد أخلاق فى التاريخ يعمل لانتصار الخير على الشر ؛ كما أن هذا التفكير يتضمن الاعتقاد بعجز الإنسان عن إصلاح العالم دون تدخل مباشر من الله باعتباره سيِّد التاريخ . إن هذه المبادىء صحيحة حتى إن لم تترجم فى الأحداث التى تصوَّرها اليهود ، لكنها تحمل جانباً كبيراً من الصدق فى أن الله عن طريق الأحداث العظيمة فى التاريخ يعلن دينونته لبعض النظم ، ويفتح أبواباً لآفاق جديدة ، ولآمال جديدة لمن يستجيبون لدعوته . وهذه فكرة يقرّها جميع المفكرين اللاهوتيين فى العصر الحديث .

ب – ملكوت الله :

يقول مرقس البشير فى مستهل إنجيله : « وبعدما أُسلِم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول : قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مرقس ١ : ١٤ و ١٥) .

وقد كان كثيرون – إلى وقت قريب – يعتقدون أن ملكوت الله هو إيمان الناس بالله وقبولهم سلطانه على حياتهم ، لذلك فملكوت الله هو مجال ملكه ؛ وهو فى رأى البعض « الكنيسة » أو على الأقل « الجماعة المؤمنة بالحق فى الكنيسة » ، لذلك كانوا يتخذون بعض الشعارات أساساً لخدمتهم لمحاربة الشر وإصلاح العالم والمجتمع تحت شعار « بناء الملكوت » أو « نشر الملكوت » أو « امتداد الملكوت » – ولازال البعض يعتقدون بهذا الرأى الذى يسميه اللاهوتيون التفسير الحر (الليبرالى) للملكوت ، وهو أن مجىء الملكوت متعلّق بتجاوب

البشر مع رسالة المسيح ، وقبولهم سلطان الله على حياتهم . وصورة الملكوت عندهم أنه كائن الآن فعلاً ويتسع بقبول عدد أكبر من الناس لرسالة المسيح .

لكن هناك تفسيراً آخر للملكوت يسمى التفسير الاسخاتولوجى أى المتعلق بعقيدة الآخرة (Eschatalogical) . هذا الرأى يقول إن الملكوت عمل يتعلق بإرادة الله ، وهو عمل تاريخىّ يتدخل به الله فى تاريخ العالم ، ويظهر به مجده ويبارك أتقياءه ويدين الأشرار .

ولم تكن المناداة بالتوبة واسطة لتقريب مجىء الملكوت ، لكنها كانت استعداداً لمجىء الملكوت ، لكى يكون للناس حق الاستفادة من بركة الملكوت والهروب من غضب الله — إنما مجىء الملكوت ليس متعلقاً بتجاوب الناس وتوبتهم أو عدم توبتهم ؛ لأنه سيجىء سواءً تجاوب الناس مع الدعوة أو لم يتجاوبوا .

ويعتقد أصحاب هذا الرأى أن السيد المسيح فى كرازته ببشارة الملكوت كان متأثراً بالتفكير الرؤوى الذى ساد عند اليهود وبخاصة فى فترة ما بين العهدين . ولكن إلى أى حد كان هذا التأثر ؟

إن معنى الملكوت كما يتحدث عنه السيد المسيح لا يعنى شيئاً جامداً أو حقيقة ثابتة ، ولكنه مجال حيوى متحرك فيه يظهر سلطان الله . إن ملكوت الله لا ينفصل عن الله نفسه فهو الحاكم الدّيان والفادى فى نفس الوقت . وفى أمثال المسيح عن الملكوت نرى أنه لم يصوّره بشىء جامد ميّت بل دائماً بشىء متحرك أو بشخص يعمل عملاً ما . إنه حبّة مزروعة تنمو (مت ١٣ : ٣١) أو خميرة فعّالة فى مجالها (مت ١٣ : ٣٣) أو شخص يتحرك ويزرع (مت ١٣ : ٢٤) أو يبحث عن شىء (مت ١٣ : ٤٥) .

كما أن ملكوت الله متعلق بالله وليس بالشر . فليس فى العهد الجديد شىء اسمه نشر الملكوت أو بناء الملكوت أو توسيع الملكوت بواسطة البشر . إن الكلمة المستخدمة فى الإنجيل عن علاقة الناس بالملكوت هى أن لهم فرصة **للدخول** إلى هذا الملكوت أو **امتلاكه** ... إن الناس يدخلون إلى شىء موجود فعلاً (مت ٥ : ٢٠ ، ٧ : ١٣ و ٢١) إنه أشبه بوليمة زواج أو عشاء مُعَّد منذ تأسيس العالم . إنه شىء موجود فعلاً ولكنه أيضاً مستمر ، وسيأتى بصورة أوضح ، أو سيراه البعض قد أتى بقوة كما ذكر فى مرقس ١٩ : ١ . إذاً فقد أخذ المستقبل طريقه إلى الحاضر ، أو دخل المستقبل إلى الحاضر ، وأصبح العريس فى وسطهم الآن فعلاً ، لذلك فإن ملكوت الله داخلهم كما قال يسوع — لقد أتى الملكوت فعلاً — وعلاماته هى التى ظهرت فى معجزات المسيح . فعندما أرسل إليه يوحنا اثنين من تلاميذه يسالانه :

« أنت هو الآتى أم ننتظر آخراً ؟ » كان جواب المسيح أنه قال لهم إن علامات الملكوت قد ظهرت .. « العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهّرون ، والصمّ يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يُبشَّرون » (متى ١١ : ٢- ٥) .

وقد اعتبر يسوع أن المعجزات التى قام بها السبعون تلميذاً دليلاً على مجىء الملكوت فعندما قالوا له : « ياربّ حتى الشياطين تخضع لنا » ، كان ردّه عليهم « رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء » (لو ١٠ : ١٧ و ١٨) . وشفاء الرجل الأخرس كان دليلاً على أن الملكوت قد أقبل إذ قال لمنتقديه : « إن كنت بإصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله » (لوقا ١١ : ٢٠) .

ولقد اعتبر يسوع أن الولاء له علامة الولاء للملكوت ، وبعد اعتراف بطرس العظيم فى قيصرية فيلبس أنه المسيح ابن الله الحىّ قال لتلاميذه : « من أراد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى . فإن من أراد أن يخلصّ نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من أجلى ومن أجل الإنجيل فهو يخلصها » (مرقس ٨ : ٣٤ و ٣٥) .

وقد تساءل كثيرون عما إذا كان الرب يسوع قد اعتبر نفسه « ابن الإنسان » المشار إليه فى سفرى حزقيال ودانيآل و أسفار الأبوكريفا او « المسيا » الذى كان اليهود ينتظرونه لتحقيق الملكوت ، أم أنه لم يعتبر نفسه كذلك ... ؛ إلا أنه من المؤكد أن التلاميذ كانوا على يقين من أنه المسيا ، ولم يكن هذا مبنياً على أقوال المسيح عن نفسه بل كان مؤسساً على ما لاحظوه هم عن شخصية المسيح[١٢] ، واعتباره أن الولاء له يعتبر ولاء لملكوت الله ، وأعماله التى كان يجريها بسلطان . ففى تطهيره للهيكل (مرقس ١١ : ١٥ - ١٨) وتحديه للقيادات الدينية فى مثل الكرم والكرامين (مرقس ١٢ : ١ - ١٢) . وفى نقده اللاذع للكتبة (مرقس ١٢ : ٣٨ - ٤٠) كان يسوع يؤكد بأقواله كما بأفعاله أنه كان يتكلم ويتصرف بسلطان نيابةً عن الله وعن ملكوته .

٥ - يسوع والناموس :

إذا لم تكن تعاليم السيد المسيح أخلاقاً انتقالية أوصى بها تلاميذه ليحفظوها فترةً وجيزة فيما بين إعلانه للملكوت والمجىء الفعلى للملكوت ، فالبديل الطبيعى لهذه النظرية أن يكون السيد المسيح قد وجّه تعاليمه لجميع المؤمنين به فى كل عصر . فما علاقة هذه التعاليم بالشريعة الأدبية التى أعلنها الله لموسى ؟ وهل تعتبر تعاليم المسيح ناموساً جديداً للمسيحيين ؟

إن المعروف هو أن السيد المسيح أعلن أن الناموس كلّه والأنبياء يمكن تفسيرهم عن طريق

المحبة . فعندما سأله الناموسيّ ليجربه قائلاً : « يا معلم أية وصيّة هى العظمى فى الناموس » قال له يسوع « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . هذه هى الوصية الأولى والعظمى . والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء » (مت ٢٢ : ٣٦ – ٤٠) (انظر أيضاً مرقس ١٢ : ٢٨ – ٣١ ؛ تث ٦ : ٥ ؛ لا ١٩ : ١٨) . إلا أنه من الصعب على المسيحى أن يميّز بين أخلاقيات المحبة ، وأخلاقيات الناموس ، فغالبية المسيحيين شأنهم فى ذلك شأن اليهود فى عصر المسيح ، يعتبرون أن الحياة الأخلاقية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقواعد ونواميس ، سواء كانت مكتوبة أو متعارف عليها ؛ بينما لو درسنا حياة السيد المسيح وروح تعاليمه لوجدنا أنها تختلف عن الأخلاقية الناموسية ؛ كما أن نظرة المسيح إلى الناموس كانت تختلف عن نظرة الكتبة ومعلمى الناموس فى عصره إلى الناموس – فلم يكن يسوع قانعاً بتحليل الناس التفصيلى للناموس ، بل كان يطلب أن يعرف الناس مشيئة الله فى نقاوتها وكمالها بنوع مباشر من البصيرة ، وقد لاحظ الناس أن تعليمه كان يختلف عن تعاليم الكتبة ... كانوا يرونه ويسمعونه يتكلم « بسلطان » (مر ١ : ٢٢) .

إن يسوع لم يهمل الناموس والأنبياء ، بل كان يقتبس منهما ، وقد قال صراحة : « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » (مت ٥ : ١٧) . فما معنى تكميل الناموس؟

لقد أعاد يسوع تفسير الناموس وقدّم للناس معانياً يمكن أن نسميها « ثورية » فى تفسير الناموس . لقد **عمقّ** معانى بعض تعاليم الناموس فجعلها تتعدّى الأفعال الظاهرة إلى النيَّات والرغبات والعواطف ؛ فجعل الشهوة والغضب يتساويان مع الزنا والقتل . كما أنه **وسّع** مجال تطبيق الناموس ، وخير مثال لذلك هو معنى كلمة « القريب » فى الوصية « تحب قريبك كنفسك » ، فقد كان من المعروف أن هذه الوصية فى سفر اللاويين تعنى علاقة اليهودى باليهودى (وإن كانت هناك فى نفس الأصحاح وصية مشابهة عن الغريب المقيم مع اليهودى.. لا ١٩ : ٣٣ و ٣٤) ، لكن يسوع جعل القريب هو كل إنسان يحتاج إلى المحبة والعون ، حتى لو كان عدوّاً ، ويظهر هذا من وصيته « أحبوا أعداءكم » ، ومن مَثَل السامرى الصالح .

وفى بعض الأحيان كان تفسير يسوع للناموس **تجديداً** له ، كتفسيره لعلاقة الزواج بأن موسى أعطى شريعة الطلاق لقساوة قلوب الناس ، وتوضيحه أن مشيئة الله الكاملة هى الاتحاد والإرتباط مدى الحياة .

وفى قوله إنه بوصية المحبة « يتعلق الناموس كله والأنبياء » جعل المسيح قانون المحبة أسمى

من أية تفاصيل ثانوية فى الناموس ، ولم يتردد يسوع فى أن يطرح جانبا تقاليد الكتبة والشيوخ الموروثة وتفسيرهم الحرفى للناموس ، فسمح لتلاميذه أن يقطفوا من سنابل القمح ويأكلوا عندما جاعوا قائلاً « السبت إنما جُعِل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت » (مر ٢ : ٢٧) ، وشفى الرجل ذا اليد اليابسة فى السبت متسائلاً : « هل يحل فى السبت فعل الخير أو فعل الشر . تخليص نفس أو قتل ؟ » (مر ٣ : ٤) . وكأنه يؤكد بذلك أن خدمة الإنسان لها أولوية على الشرائع المتزمتة . ولم يتردد يسوع فى أن يهجر تقاليد الشيوخ فى غسل الأيدى مؤكداً أن كثيراً من تفسيرات الكتبة للناموس تقود الناس إلى أعمال تبطّل كلام الله وقصده (مر ٧ : ١ - ٢٣) .

ونحن إذا اكتفينا بهذه الأمثلة عن موقف السيد المسيح من الناموس ، نستطيع أن نتقدم خطوة أخرى ونتساءل عن التعاليم التى علّمها يسوع شخصياً للناس ، دون أن تكون مرتبطة بتفسير الناموس ، هل يمكننا أن نعتبرها ناموساً جديداً يكمّل الناموس القديم أو يحل مكانه ؟

والإجابة القاطعة على هذا السؤال هى بالنفى . إن تعاليم المسيح أرست مبادىء عامة واتجاهات يمكن للإنسان أن يستنير بها فى اتخاذ قرارات معيّنة إزاء المواقف المتجددة فى حياته . ولو أننا اتخذنا من وصايا السيد المسيح ناموساً نسعى لتطبيقه حرفياً فى كل موقف ، لصادفتنا صعوبات كثيرة ، ترغمنا على أن نسقط فى فخ تفسير هذه الوصايا بحسب أهوائنا أو ظروفنا ، وفى نفس الوقت نتصور أننا ننفّذ وصايا المسيح التى تُظهر لنا مشيئة الله الكاملة النقية - ويكفى أن نتصور ما يمكن أن يحدث لمجموعات متباينة من الأفراد ، فى مواقف متنوعة ، أراد كل منهم أن يطبّق هذه الأقوال حرفيا على نفسه أو على غيره . وهذه بعض الأقوال على سبيل المثال :

« من سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه » (مت ٥ : ٤٢) .

« من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً » . (مت ٥ : ٤٠)

« بيعوا مالكم وأعطوا صدقة » (لو ١٢ : ٣٣)

« إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك » . (مت ٥ : ٢٩) .

٦ - القيمة الأخلاقية لتعاليم المسيح :

إذا لم تكن تعاليم السيد المسيح أخلاقاً خاصة لفترة انتقالية تسبق مجىء الملكوت كما قال

شويتزر ومن ساروا على دربه ؛ وإذا لم يكن المقصود منها أن تكون ناموساً آخر يحل محل ناموس موسى ، فما هى القيمة الأخلاقية لتعاليم المسيح إذاً ؟

إن الصورة التى ترد بها تعاليم المسيح الأخلاقية تخاطب الإنسان بالواجب المثالى الذى عليه أن يعمله إزاء القريب فى ضوء البّر أو العدل كما نراه فى طبيعة الله ، والذى رأينا أنه برّ فدائى مرتبط بالمحبة والرحمة . والصورة المثالية دائماً صورة فريدة تخاطب الفرد فى واجبه نحو الفرد ، ولا تضع فى اعتبارها تشابك مصالح الأفراد المختلفين ، لأن ذلك يهبط بها إلى الواقعية . ونحن نحيا فى عالم واقعىّ لابدَّ أن يكون فيه أكثر من قريب ، وعندئذ تتضارب مصالح الأفراد ، وعلينا أن نتخذ قراراً على أساس التفضيل لا على أساس المثالية . لذلك فإن تعاليم السيد المسيح هى وازع اسخاتولوجى يوضح للناس مشيئة الله النقية الكاملة لكى يسترشد بها الإنسان فى اتخاذ قراراته فى الحياة ، لا على شكل أوامر ونواه ناموسية ، ولكن على أساس العلاقة بين المؤمن وربّه الذى تكشف هذه التعاليم طبيعته الكاملة . وقد لا يفهم البعض المقصود بالتعبير « وازع اسخاتولوجى » ، ومعناه أن الله الذى افتدى الإنسان وأعطاه الحياة الأبدية بمعرفته ويريده أن ينمو إلى النهاية فى القداسة باعتباره شريكا للطبيعة الإلهية ، يقدم للمؤمن بهذه التعاليم تحدّيات هائلة ويدفعه إلى السعى نحوها ، لكى يقترب من الصورة التى يريده أن يكون عليها .

لكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نعتبر تعاليم المسيح صورة خيالية لا نستطيع تطبيقها ، ومن ثَمَّ تصير تحفة جميلة نتباهى ونستمتع بها دون أن يكون لها أثر فى حياتنا . إن وجود هذه التعاليم يمثل ضرورة للإنسان ، وإذا كناً نتجاهلها أو نحوّرها لنهبط بمستواها الأخلاقى ، فإننا نرتكب خطأً كبيراً . إن مثالية هذه التعاليم لا تدفعنا إلى التواكل والتهاون والتماس المعاذير لأنفسنا فى حياتنا الأخلاقية ، فإن معنى ذلك أننا نُغّير هذه التعاليم ، بينما المقصود هو أن هذه التعاليم تغّيرنا نحن ، وتكون دائماً قوةً ناقدة لنا تدين تصرفاتنا التى تهبط عن مستوى مطاليبها ، لنشعر دائماً بضعفنا ونقصنا ونقص مجتمعنا .

إن العيب فى الناموس – أى ناموس – هو أنه يركزّ على مظاهر السلوك ، وبالتالى يجعل البعض يظنون أنهم يستطيعون أن يتمّموه ، فيقولون مع بولس « من جهة البّر الذى فى الناموس بلا لوم » (فى ٣ : ٦) دون أن يدركوا المضمون الحقيقى لقول بولس . لكن الأخلاق الواردة فى تعاليم المسيح تهتم بالنوايا والدوافع الداخلية ، ولا يستطيع إنسان مخلص – ولو إلى حد قليل من الاخلاص أن يقول عن نفسه أمامها إنه بلا لوم .

كتب أديب معاصر ، فى موضوع الصدق ، يقول :

« هل أنت صادق » ؟

سؤال سوف يجيب عليه الكل بنعم ، فكل واحد يتصور أنه صادق وأنه لا يكذب . وقد يعترف أحدهم بكذبة أو كذبتين ويعتبر نفسه قد بلغ الغاية من الدقة والصراحة مع النفس ، وأنه أدلى بالحقيقة بصورة لا تقبل مراجعة .

ومع ذلك فدعونا نراجع معاً هذا الإدعاء العريض ، وسوف نكتشف أن الصدق شيء نادر جداً ... وأن الصادق الحقيقى يكاد يكون غير موجود . وأكثرنا فى الواقع مغشوش فى نفسه حينما يتصور أنه من أهل الصدق .

بل اننا نبدأ فى الكذب من لحظة أن نستيقظ فى الصباح وقبل أن نفتح فمنا بكلمة أحياناً تكون مجرد تسريحة الشعر التى نختارها كذبة . فالكهل الذى يسرح شعره على طريقة الخنافس ليبدو أصغر من سنه ، يكذب ، والمرأة العجوز التى تصبغ شعرها لتبدو أصغر من سنها تكذب

والباروكة على رأس الأصلع كذبة

وطقم الأسنان فى فم الأهتم كذبة

والبدلة « السبور » الخفيفة التى تخفى تحتها فانلة صوف كذبة

والمكياج الذى يحاول صاحبه أن يخفى به التجاعيد هو نوع آخر من الكذب الصامت

كل هذا ولم يبدأ اللسان ينطق ، ولم ينفتح الفم بعد .

فاذا فتح الواحد منا فمه وقال صباح الخير فإنه يقولها على سبيل العرف والعادة لمن ينوى له الخير ولمن ينوى له الشر ، فهو يكذب وهو يلقى بالسلام على من يبيت له العدوان ، فهو يكذب .

فإذا رفع سماعة التليفون مضى يطلب ما لا يريد من الأشياء لمجرد أنها مظاهر ومجاملات .. فهو يكذب

وقد يرفض ما يريد خجلاً أو ادعاء ... فهو يكذب

وفى عالم السياسة والسياسيين وفى أروقة الأمم المتحدة

وعلى أفواه الدبلوماسيين نجد أن الكذب هو القاعدة

بل ان فن الدبلوماسية الرفيع هو كيف تستطيع

أن تجعل الكذب يبدو كالصدق ، وكيف تقول ما لا تعنى ،

وكيف تخفى ما تريد وكيف تحب ما تكره ، وكيف تكره ما تحب

وأذكر بهذه المناسبة النكتة التى رويت عن تشرشل
حينما رأى شاهد مقبرة مكتوبا عليه
« هنا يرقد الرجل الصادق والسياسى العظيم »
فقال ضاحكاً :
هذه أول مرة أرى فيها رجلين يدفنان فى تابوت واحد .

وفى عالم الدين ودنيا العبادات يطل الكذب
الخفى من وراء الطقوس والمراسيم

شهر الصيام الذى هو امتناع عن الأكل يتحول إلى شهر أكل فتظهر المشهيات والحلويات والمخللات والمتبلات ، من كنافة إلى مشمشية إلى قطايف إلى مكسرات ، ويرتفع استهلاك اللحم

وبين كل مائة مصلّ أكثر من تسعين يقفون بين يدى الله وهم شاردون مشغولون بمصالحهم الدنيوية يعبدون الله وهم فى الحقيقة يعبدون مصالحهم وأغراضهم ويركعون الركعة لتقضى لهم هذه المصالح والأغراض

وقد عاش بابوات القرون الوسطى فى ترف الملوك والسلاطين ورفلوا فى الذهب والحرير والسلطة والنفوذ وامتلكوا الاقطاعيات والقصور باسم الدين وباسم الإنجيل الذى يقول إن الغنى لن يدخل ملكوت الله إلا إذا دخل الجمل من ثقب إبرة .. بل إنهم تصوروا أنهم امتلكوا الجنة فباعوها صكوكا لطالبى الغفران .
أين الصدق إذاً ؟

ومتى تأتى هذه اللحظة الشحيحة التى نتحرى فيها الحق والحق وحده ؟

إنها تأتى على ندرة لهذا كانت الخلوة مع النفس شيئاً ضرورياً ومقدساً بالنسبة لإنسان العصر الضائع فى متاهات الكذب والتزييف .
تلك المكالمة الإنفرادية والافشاء والاعتراف والطرح الصريح من الأعماق إلى سطح الوعى فى محاولة مخلصة للفهم ، وهى « لحظة من أثمن اللحظات .

وقد تأتى تلك اللحظة فى العمر مرة فتكون قيمتها بالعمر كله »[١٣] .

إن تعاليم المسيح طريق به نعرف نفوسنا أمام الله ، ونعرف أخطاءنا وأخطاء مجتمعنا ، فنبقى دائماً فى إحساس بالحاجة إلى غفران الله ومعونته . إنها صورة من الدينونة الأخيرة لكنها دينونة تتكرر كل يوم إذ نقف أمامها ، لأن الدينونة الأخيرة ليست دينونة مظاهر الناس ، بل سرائرهم . إنها صورة لدينونة كل النظم فى المجتمع ، لذلك يخطىء من يظن أن المسيحية جاءت لتؤسس نوعاً من « المدنية الدينية » أو لتكون « دينا ودولة » ، لأن المسيحية تقر بالضعف البشرى الذى يجعل كل نظام بشرى معرضا للخطأ مهما حاول واضعوه أن يختاروا له أفضل الأسس ، فالمسيحية ضمير ناقد فى كل نظام وفى كل مدنيَّة سواء كانت دينية أم غير دينية . إنها حكم على البشر فى ضوء مقاييس الله الكاملة وبرَّ الله الكامل ، كما يظهر فى تعاليم المسيح .

والسيد المسيح لم يأت ليكون معلماً فحسب ، ولكن شخصية السيد المسيح هى الأساس لأنها إعلان الله . ونحن لا نستطيع أن نفصل تعاليم المسيح عن شخصيته ، وهو القدوس الذى بلا شر ، الذى انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات (عب ٧ : ٢٦) .

إن يسوع لم يكن يضع بتعاليمه ناموساً جديداً ، وليست تعاليم المسيح هى الإنجيل . فالإنجيل هو الخبر السار أو البشارة المفرحة . وكيف يمكن أن تكون تعاليم المسيح لو أخذناها كناموس حرفىّ إنجيلاً أو خبراً ساراً ، وهى فى الواقع تزيد على الناس أعباء لا طاقة لهم بها ؟ إذا كان ناموس موسى يدين القتل ، وناموس المسيح يدين الغضب ؛ إذا كان ناموس موسى يدين الزنا ، وناموس المسيح يدين النظرة الشريرة ؛ فهل يُعتبر خبراً ساراً أن تزداد المطاليب على الإنسان ؟ إن الإنسان إذا أراد الإخلاص ، ولم يخدع نفسه – وطبيعى إنه لن يستطيع أن يخدع ربّه – فلسوف يكتشف فى كل لحظة أنه أدنى من المستوى بصورة محزنة . كيف يمكن أن يقال عن هذه التعاليم التى تخجّل الإنسان وتحطمّ كبرياءه وغروره ، إنها إنجيل أو بشارة سارة ؟

الحق إن ما كان يكرز به المسيح هو إنجيل الملكوت إعلانا عن تدخل الله فى حياة الناس لكى يفتديهم من سلطان الخطية ، ويعطيهم روحاً جديداً وقوة متجددة ليعرفوا الرب ويجاهدوا تحت ظل نعمته الغافرة لينموا بعمل روحه فى طريق القداسة ، وليسلكوا لما يحق للدعوة التى دعاهم بها . إن يسوع كان يعلن الأسلوب الذى اختاره الله لخلاص البشر ... هذا هو الإنجيل ، « إن الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم » ... الله هو الذى يخلّص الإنسان لأنه دفع فيه الثمن ووفىّ الدين . فرسالة السيد المسيح كانت شخصه نفسه ، وحياته ، وموته الكفارى من أجل البشر .

إننا فى العهد الجديد لا نقف أمام تعاليم ووصايا ، لكننا نقف أمام شخصية المسيح الذى أعلن لنا فى حياته وتعليمه وموته وقيامته طبيعة الله وحبّه ، لكى نسعى بالإيمان به والإتكال عليه وعمل روحه ، أن نكون أبناء أبينا الذى فى السموات .

وهذه هى القيمة الأخلاقية الكبرى لحياة وتعاليم السيد المسيح .

الفصل الثانى

المحبة فى تعليم المسيح

تمهيـــد :

المحبة هى قمة « الفضائل المسيحية » الثلاث : الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ؛ وهى أعظم قوة فى هذا العالم وأكثرها غموضاً ؛ وهى تتحدى التعريف لأن معناها الحقيقى لا يُعرَف إلا فى الاختبار الدينى . ويقول البروفيسور بول تيلليك إن تعريف المحبة مستحيل لأنه لا يوجد مبدأ أعظم منها يمكن أن نشرحها به ؛ فهى الشيء الطيب المطلق فى هذا العالم ، ولا يمكن للإنسان أن يحيا بدون المحبة لأنها القوة الدافعة العظمى للحياة .

وكل إنسان يعرف نوعاً من أنواع المحبة على الأقل . فهناك محبة العائلة ، وتستخدم اللغة اليونانية لها تعبيراً خاصاً (Storge) . فالأم تحب أولادها بالطبيعة ، وهكذا سائر العلاقات العائلية . وهناك محبة الصداقة أو ما اصطلح على تسميته « المودة الأخوية » وهى باليونانية « فيليو » (Philio) حيث يعطى الإنسان المحبة لصديقه ويتقبّل منه المحبة — وهناك محبة الجنس الآخر وهى باليونانية « ايروس » (Eros) وهى التى تعرف بالعشق أو الغرام أو المحبة الجنسية[١٤] وهى التى يحاول فيها كل طرف أن يمتلك الطرف الآخر ، وفى نفس الوقت يسلّم

نفسه له . وهناك محبة الذات وهى أمر طبيعى فى الإنسان ولكن إذا لم يراع الشخص اعتبارات معينة فى هذه المحبة فإنه يتعرض لأخطار كثيرة كما سنبيّن فيما بعد .

فى كل هذه الصور من المحبة ، يوجد جانب ذاتىّ يريد الإنسان أن يحقّقه . أما العهد الجديد فإنه يستخدم تعبيراً مختلفاً ليصف المحبة هو اللفظ اليونانى « أغابى » (Agape) ، وهو تعبير غير مألوف ، استخدم ليبين محبة الله الفادية للإنسان . وقد حاول البعض أن يجدوا كلمة متميّزة يترجمون إليها لفظ « أغابى » اليونانى ليحتفظوا له بمعناه المتميز ، لكنهم وجدوا صعوبة فى ذلك . وفى بعض الترجمات الانجليزية ترجم اللفظ بكلمة «Charity» لكن الناس خلطوا بين هذه الكلمة ومعنى الإحسان – وذكر البعض كلمتين معا «Charity - Love» . وبعض الكتاب يكتبون بالانجليزية الحروف اللاتينية لكلمة « أغابى » (agape) لكى يميزوا بينها وبين المحبة العادية – وفى اللغة العربية شاع بين المسيحيين تعبير « المحبة » كترجمة لهذا المعنى بينما عبروا عن باقى أنواع المحبة بلفظ « الحب » ، معتبرين أن هذا اللفظ الأخير يصف أنواع الحب الإنسانى ، بينما « المحبة » شيء مقدس ؛ إلا أنه ليس هناك أساس لغوى للتمييز بين لفظى المحبة ، والحب .. والواقع أن هذه الألفاظ تستخدم لوصف مختلف أنواع المحبة ، والمشكلة ليست فى التعبير الذى ننطقه ولكن فى المعنى الذى نقصده عند الكلام .

إن أساس المحبة هو الله لأن « الله محبة » ، وقد أُعلنت هذه المحبة للبشر على الصليب . والمحبة المسيحية هى تجاوب الإنسان مع هذه المحبة بمحبته لله وللآخرين .

ومحبة الله للإنسان ، محبة تطلب الإنسان وتسعى إليه وتخلصه دون أن يسعى إليها ، وهى محبة تتجه إلى الإنسان بالنعمة – ومحبة الإنسان لله يعبَّر عنها بالتكريس لله ، ومحبة الإخوة ؛ وفى هذه المحبة تلعب العاطفة دوراً ، لكن دور الإرادة أكبر . إن محبة الله لنا هبة تنقذ حياتنا من الغرور وتجعل علاقتنا بالله صحيحة ، وكذا علاقتنا بالقريب ؛ وهكذا يتم التناسق فى شخصية الإنسان .

وفى هذا المقام لن ندرس المحبة من الجانب الإلهى ، فمجالها الدراسة اللاهوتية ؛ لكننا ندرس المحبة من جانب الإنسان ، فنتأمل فى وصية المحبة لله ، وللقريب ، ثم نعرج قليلا على محبة النفس لأن الوصية تفترضها فى القول : « تحب قريبك كنفسك » ، ثم نحاول أن نشرح بعض تطبيقات أو نماذج المحبة المسيحية كما تبدو فى حياة وتعاليم السيد المسيح ، الذى اعتبر أن المحبة هى جوهر الناموس .

١ – محبتنا لله

يذكر السيد المسيح أن الوصية الأولى هى : « تحبّ الرب إلهك من كل قلبك ومن كل

نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » (مرقس ١٢ : ٣١) وهذا اقتباس من (التثنية ٦ : ٤ و ٥) « اسمع يا إسرائيل : الرب الهنا ربٌّ واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك » . ولقد وصف الله بأنه محبة (١ يو ٤ : ٨) ، ووَاجبنا أن نحبه من كل كياننا (مت ٢٢ : ٣٧ - ٤٠) - هذا الأمر بمحبة الله يواجهنا بمشكلتين :

الأولى : إن المحبة تتطلب عواطف ومشاعر تلقائية ولا يمكن الأمر بها[١٥] .

والثانية : إن المحبة الطبيعية تتجه نحو الأشخاص والأشياء المحسوسة ، فنحن نحب من نراه ، فكيف نؤمر بأن نحب الله الذى لا نراه ؟ ولكى نناقش هذين الاعتراضين يجب أن نفكر تفكيراً تحليلياً فى معنى المحبة وكنهها . فنلاحظ أولاً أن المحبة لله ، نعمة وهبة كالإيمان والرجاء ، تعطى للإنسان عند التجديد . « لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس » (رو ٥ : ٥) - إن الله هو الذى يعطينا أن نتعلم محبته ، والأمر بمحبة الله إنما هو حافز دائم لنا لنمارس هذه الفضيلة لتكون جزءاً من شخصيتنا . ولنلاحظ أن حرارة المشاعر أو التهاب المحبة ليست من الأمور المتوقعة فينا ونحن نمارس هذه المحبة . ربما يكرمنا الله بحرارة حبّ حقيقية له ، لكننا يجب أن نذكر دائماً أننا بسبب عدم رؤيتنا لله بالحواس ، فإن محبتنا له ستبقى عملاً من أعمال الإرادة لا العاطفة ، ويكون معناها أننا نضع الله أولاً فى كل قراراتنا . الوصية تأمرنا بأن نحب الله من كل القلب والفكر والقدرة أى بحماس ؛ والحماس هو عكس الفتور أو السّبات ، وهو أمر متعلق بالإرادة . وحتى التعبير « من كل القلب » لا يعنى الجانب الوجدانى كما هو شائع ، فإن استخدام العهد القديم لكلمة « القلب » يشير دائماً إلى كيان الإنسان الداخلى كله فكراً ووجدانا وإرادة . وعندما تكون الحياة المسيحية هى حياة المحبة العاملة فعلاً ، لن يكون فيها مكان للفتور من ناحية ، وللتظاهر الشكلى بالحنوّ ورقة الاحساس من الناحية الأخرى ، إذ أن كل الشخصية ستنشغل بأعمال المحبة أكثر من التعبير الوجدانى عنها - كذلك عندما تتصف الإرادة بحماس المحبة ، تمتلىء الحياة بالسرور والأشواق والتكريس . أما السرور فبسبب جمال الله الذى ندركه من فيض نعمته وروعة محبته ؛ أما الأشواق فلأن غنى الله الذى لا يستقصى يثير فى قلب المؤمن روح الاكتشاف والمخاطرة ، فيشتاق إلى مزيد من الإختبارات الروحية مع الله ؛ أما التكريس فلأن صلاح الله وعظمته اللتين تجلتا فى فدائه تعظّمان من قدر الله فى حياتنا بحيث لا يمكن إلا أن نعبده ونضحى بكل شيء من أجله . من أين يأتى حماس محبتنا لله ؟ إنه يأتى عندما نختبر غفران الله العجيب لنا ، فنكون كالمرأة التى سكبت الطيب على قدمى المسيح ؛ وكبولس الرسول الذى عاش وهو يحس دائماً بأنه مغمور بمحبة الله ، لذلك كان يريد أن يتفانى فى الخدمة وأن يُنفِق ويُنْفَق من أجل الإنجيل .

أ – نظرة تحليلية إلى محبتنا لله :

هناك جانبان للمحبة : محبة الحاجة ومحبة العطاء . أما محبة الحاجة فتظهر عندما نجد شيئاً جذّاباً فى شخص ما ؛ هذا الشيء يسترعى انتباهنا وينال محبتنا لأننا نشعر بحاجتنا إلى السعادة التى تتملكنا عندما نتطلع إلى ما يجذبنا ويثير اعجابنا . ونحن نحبّ الله لأنه يستحقَ المحبة ، ونحن نشعر بجمال الله ومحبته لنا وصفاته السامية فى شخص المسيح . فلقد وجدنا فيه الخير الأسمى والحياة الأبدية . على أننا لا نرى جمال الله بصورة محسوسة كما نرى شخصاً حلو المعشر أو صورة جميلة ، أو نلمس عملاً طيباً من إنسان ما . اننا لا نعرف المسيح حسب الجسد ، ويقول بولس : « وان كنّا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد » (٢ كو ٥ : ١٦) – ومع ذلك فإننا نحبه « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨) إننا نعرفه بالإيمان ولأجل هذا نشغّل طاقات فكرنا وإرادتنا حتى يحكم العقل بأن الله هو خيرنا الأسمى فتتجه إرادتنا نحوه دائماً ، ونحفظ أنفسنا فى محبة الله (يهوذ ٢١) .

وطبيعى إننا سنجد أموراً متعددة تحاول أن تنافس الله فى حياتنا فى هذا العالم ، وهذه هى التجربة التى نتعرض لها ، لكن عندما يقتنع العقل فعلا ، وتُطوِّع الإرادة ، فإننا نختار الله أولاً – إن المحبة معناها الاختيار ، ومعنى محبة الله من كل القلب والفكر والنفس أننا فى كل موقف نتعرض له ، نضع الله أولاً .

أما محبة العطاء ففيها نعطى أنفسنا لله بدون أن نعمل حساباً لأنفسنا – ففى المحبة الإنسانية تعطى الأم نفسها لخدمة طفلها الصغير غير ناظرة إلى ذاتها ... لكن بالنسبة لعلاقة الإنسان بالله ماذا يستطيع الإنسان أن يعطى لله ، والله هو الكل فى الكل ؟ وأى شيء لا يملكه الله حتى يعطيه الإنسان له ؟

إن هناك طريقين لنحب الله فى هذا الإطار :

(١) أن نقدم له العبادة والتمجيد الدائم – وهذا يقتضى التسبيح له وذكره فى قلوبنا والفرح بشخصه – ونحن نعبد الله بإعتباره الخالق الذى نعتمد عليه اعتماداً كاملاً فى وجودنا وقيمتنا – والخشوع أمام الله ليس مجرد مظهر خارجى لكنه اتجاه فى الحياة . كما أن الخشوع ينبغى أن يرتبط بالتواضع تحت يده ، ففى ذلك اعتراف بأننا خليقته ؛ كما يرتبط بشعورنا بأننا أمام الله كاشف أسرارنا ، وفاحص قلوبنا ، واستعدادنا أن نسلك قدامه كمخلوقات مطيعة بالإيمان . « أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملاً » (تك ١٧ : ١) . ولقد أصبح التواضع فى كثير من الأحيان تظاهراً ، إنما التواضع الحقيقى

هو معرفة النفس على حقيقتها ، ويعقبه الاعتراف والتسليم لله . وليس معنى التسليم إذعانا لما لا مفرّ منه ، ولكنه قبول مشيئة الله باعتبارها صالحة ومرضية وكاملة ، وقبول هذه المشيئة بسرور .

(٢) والطريق الثانى هو إخضاع الإرادة لله . لقد أعطانا الله إرادة حرّة ، ولنا الحرية إما أن نخضعها لله أو نمنعها عنه — إن الله لا يرغمنا ، ولكنه بمحبته يخلق فى نفس الإنسان جوعاً ، يمكن أن نسميه شوقاً إلى تقديم المحبة لله ، فيشتاق الإنسان أن يعطى نفسه لله ولخدمته عن طريق خدمة الآخرين ، وتمجيده ، ولإعلاء اسمه فى كل مكان دون دافع أنانىّ .

وهناك بُعْدٌ آخر لمحبة الله ، هو أن نحبَّ الله لذاته ، وهذا هو أسمى أنواع المحبة التى عرفها المتنسكون .

ب — أثر محبة الله فى حياتنا :

عندما يسكن الله فى قلوبنا ، وعندما نحب الله فعلاً ، سيغيّر الله كل أنواع المحبة الأخرى التى فى حياتنا وينقيها لتكون كلها لمجده . هذه التنقية ليست أمراً سهلاً ، ففيها انتزاع لكثير من العواطف والأشياء المحببة إلى نفوسنا إذا كانت تتعارض مع محبتنا لله . إن محبتنا لله لا تجعلنا خشنين ، ولا تترك الإنسان خالياً من العواطف ، لكنها توّجه أولويات الإنسان ، وتعينه على النضج ، لذلك فهى لا تخلو من الألم والمعاناة ، واجتياز اختبار الصليب ، لتتجه عواطفنا وعقولنا وإرادتنا نحو الله . وقد قال السيد المسيح : « إن كان أحد يأتى الىَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً — ومن لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً » (لوقا ١٤ : ٢٦ و ٢٧) ، ولا يقصد السيد بذلك كراهة الأهل والنفس ، ولكن أن يكون الله الأول فى حياة الإنسان فعلاً ، فلا نضحى بمبادئه وقيمه وطاعته بسبب علاقاتنا العادية .

إن المحبة الكاملة لله ليست أمراً سهلاً بالنسبة للإنسان الذى تشدّه العواطف والرغبات ؛ ولكنها الهدف الذى يجب أن يسعى اليه دائماً .

وكلما تقدّم الإنسان فى محبته لله وإدراك جماله وجلاله ، نما فى هذا الاتجاه ، وشعر ببعده عن محبة الله الكاملة ؛ لذلك فالأتقياء بالحق هم أكثر الناس شعوراً بالخطية ، فعلاً لا كلاما أو تظاهراً .

٢ – محبة القريب

الوصية الثانية هى « تحب قريبك كنفسك » وقد اقتبسها السيد المسيح من لاويين ١٩ : ١٨ : « لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك ، بل تحب قريبك كنفسك . أنا الرب » . وقد اعتبرها المسيح مثل الأول ، أى لا تقل عنها أهمية . وقد ذكرنا أن الكلمة اليونانية « أغابى » (agape) لها معنى يختلف عن باقى الكلمات المترجمة « محبة » ، وسنحاول الآن أن نتوسع قليلا فى شرح معنى هذه المحبة ، التى نفضّل اطلاق صفة « المسيحية » عليها تمييزاً لها وما هى أوصافها ، وما هدفها ؟

أ – معناها :

إنها أول كل شىء **محبة شخص لشخص** ، فهى ليست معنى عاماً كمحبة الجنس البشرى أو محبة الإنسانية ؛ فنحن عندما نقرأ الأمثلة التى يقدمها المسيح عن المحبة المسيحية للقريب نجد أنها تتجه دائماً نحو أشخاص محددين مثل الرجل الجريح فى مثل السامرى الصالح . وقد كان السيد المسيح نفسه نموذجاً كاملاً لهذه المحبة ، فقد كان ودوداً جداً للخطاة بشكل يجسّد لنا هذه المحبة . كانت محبته كمحبة الله ، محبة فادية ، دائماً تأخذ جانب المبادرة وتبحث عن شخص الخاطىء حيثما يوجد ؛ بل إن معجزاته كانت تعبيرات عن محبته وحنانه ، ففى عدد كبير من المعجزات تقرأ أن الربّ « تحنن » ثم أجرى المعجزة (مت ٩ : ٣٦ الخ ، مت ١٤ : ١٤ ، ١٥ : ٣٢ ، ٢٠ : ٣٤ ، مرقس ١ : ٤١ ، ٩ : ٢٢ ، لوقا ٧ : ١٣) . وفى مستهل خدمة المسيح نراه يلمس الأبرص الذى أتاه جاثياً طالباً الشفاء (مر ١ : ٤١) وقد كان مرض البرص يعتبر نجساً ، وكان المريض به يعيش معزولاً عن الناس ؛ لكن المسيح « لمسه » وبذلك عبَّر عن عمق محبته وأسلوب محبته التى تجلَّت فى تقديم ذاته على الصليب لأجل الخاطىء .

ومشكلة المجتمع الحديث ضعف « اللمسة » الشخصية والعلاقة الشخصية ؛ فمعظم علاقاتنا عامة لا شخصية ؛ وعندما نتعامل مع الناس عادة فى حياتنا اليومية ، لا ننظر إليهم كأشخاص لهم أبعاد مختلفة لشخصياتهم ولهم حاجات وأعماق وظروف ، ولكننا ننظر إليهم كموظفين يؤدون لنا عملا ما ، أو مهنيين نلتقى بهم ونتعامل معهم لأغراض تختص بمهنتهم . نحن نتعامل مع البائع باعتباره مصدراً نشترى منه البضاعة ، ونتعامل مع المدرس كأداة لتعليم أطفالنا وهكذا ... إن ما يهمنا فى العلاقة هو مهارة الشخص وكفاءته فى أداء الخدمة التى نطلبها منه ؛ فنحن فى الواقع نتعامل مع جانب واحد من جوانب شخصيته هو جانب الوظيفة التى يؤديها أو

الخدمة الفنية التى نتلقاها منه ؛ وبذلك فنحن لا نلتقى إلا بجانب سطحىّ هو الذى نحتاج إليه ويربطه بنا . وعلى العكس من هذا الاتجاه لو أننا تعاملنا مع إنسان ما كشخص متكامل فإن اهتمامنا به لا يكون من جانب واحد بل يكون بالنسبة لنا شخصا نظيرنا ، له اهتمامات وظروف وأشواق ومتاعب وحياة مستقلة عنا — ونحن نستطيع أن نجرّب ذلك مع أى شخص نتعامل معه ، إذا قضينا وقتا نتحدث معه عن ظروفه الشخصية وعائلته بعيداً عن المجال الذى يربطنا به ، ونحتاج اليه فيه . مثلا مع النجاّر الذى يصلح لنا منضدة أو كرسّياً فى البيت ؛ أو مع المدرس الذى يعطى لأولادنا درساً ... إذا ما دخلنا إلى أعماق حياته « بلمسة شخصية » سيْنكشف لنا عالم جديد تماما ، وسوف نكتشف أن هذا الإنسان ليس مجرد مخلوق يؤدى وظيفة معينة ، بل نراه شخصاً بكل معانى الإنسان المستقّل عنا ، الذى يمتلك الكثير من العواطف والاحساسات ، وربما يعانى من المتاعب والمشكلات التى قد نشعر بواجبنا أن نساعده فيها ، أو نعطف عليه بسببها ، أو نلتمس له عذراً إذا لم يقدّم لنا الخدمة بالمستوى الذى نريده . ما الذى كشف لنا هذا الأمر ، أو ما الذى أحدث هذا التغيير فى إدراكنا لشخصيته وعلاقتنا به ؟ السبب هو أننا استطعنا أن نرى الشخص من داخله ، وليس من ظاهره ...

وقد قرأت قصة لعلها توضح لنا هذه الحقيقة . فقد كان أحد كبار رجال الأعمال مسافراً فى قطار فاخر ، وذهب إلى عربة الطعام ليتناول العشاء ؛ لكنه استاء من أسلوب الخدمة ، فقد كان خادم المائدة مرتبكا ومتلعثما لدرجة أنه نسى إحضار بعض أدوات المائدة الضرورية ، وتأخر فى إحضار بعض عناصر الطعام ، فاستدعاه رجل الأعمال ووبخه وقال له إن الخدمة سيئة على خلاف المعتاد فى مثل هذا القطار . فأخذ الخادم يعتذر له وقال له : « اعذرنى يا سيدى ، فلم يكن مقرراً أن أسافر فى هذا القطار ، وكنت مجرد احتياطى ، وكنت أرجو أن يحضر العامل الأصلى ، لكى أعود إلى المستشفى لأمكث هذا الوقت مع ابنتى الوحيدة التى ستجرى لها عملية جراحية خطيرة الليلة ؛ ولكن العامل الأصلى لم يحضر فكنت مضطراً أن أستقل القطار بدلاً منه ، وأترك ابنتى فى المستشفى ، وفكرى مشغول بها جداً . اعذرنى يا سيّدى إذا كنت ارتبكت أو قصّرت ..

وهنا تغيّرت نظرة رجل الأعمال إلى ذلك الخادم ، وأشفق عليه ، واعتذر له عن كلمات التوبيخ القاسية التى سبق أن وجهها إليه ، وتمنى لابنته الشفاء . هذا هو ما يمكن أن يحدث لو استطعنا أن نرى الشخص الآخر من داخله وليس من ظاهره .

ومشكلتنا أننا لا نجد فى المعتاد وقتاً أو لا نريد أن نصرف جهداً فى النظر إلى حياة القريب نظرة عميقة بهذا الشكل ؛ والنتيجة أننا لا نرى سوى جانبا منه . وربما كان السبب أننا لا نريد أن ندفع الثمن من وقتنا وجهدنا وكياننا لنعرف قريبنا المعرفة العميقة ؛ وربما كان السبب الأهم هو أننا ندرك تماماً أننا لو عرفنا القريب بهذا النوع من المعرفة فإن ذلك سيكون سبباً فى أن نتحمل شيئاً من الألم أو المعاناة لأجله ، لأننا نجد أنفسنا مضطرين أن نقدم ليس مجرد المال أو الوقت أو الجهد ، بل عصارة أعصابنا ، وذوب قلوبنا واهتمامنا ... ذلك لأن الطريق الوحيد الذى نستطيع أن « نلمس » به شخصاً ما ، هو مشاركته حياته واهتماماته وآماله وأشواقه وأحزانه وأفراحه ومخاوفه ، ولأن هذا الثمن الذى يجب أن ندفعه باهظ جداً – وهو حياتنا نفسها – لذلك فإن للناس « معارف » كثيرين ، ولكن لهم « أصدقاء » قلائل ، أو ليس لهم أصدقاء على الاطلاق ، بمعنى الصداقة المشار إليه . فإن الشخص الذى نعرفه معرفة سطحية لا يكلفنا كثيراً من الطاقة والجهد والألم ، لكن الصديق يكلفنا هذه كلها وأكثر منها .

ومن الواضح أن **الأنانية** وتركيز الاهتمام فى الذات يعتبران من العوامل التى تمنعنا من أن ننقل علاقاتنا بالآخرين من دائرة اللاشخصية إلى دائرة العلاقة الشخصية العميقة . إننا مشغولون فى دائرتنا الضيّقة بأشواقنا وطموحنا ونشاطاتنا حتى إننا لا نستطيع أن ندخل بعمق إلى حياة الآخرين ، والنتيجة هى أننا لا نستطيع أن نحصل على الشركة مع الغير ، وفى عزلتنا هذه لا نستطيع أن نشعر بحاجتهم ، وحتى لو حدث طارىء جعلنا نواجه هذه الحاجة فإننا لا نستطيع أن ندرك مشاعرهم بنفس قدر إحساسنا بمشاعرنا نحن ، لذلك فنحن لا نرغب جادين من أعماقنا أن نخفف من آلامهم ونشبع حاجاتهم لأن هناك حاجزاً يفصل بيننا وبينهم ؛ وهكذا نضع أنفسنا فى « قوقعة اللامبالاة » بالغير فلا نستطيع أن نسمع صرخاتهم الصامتة التى تعبّر عن حاجتهم إلى التقدير والصداقة والمحبة .

هذا بالإضافة إلى أن هناك بعض الناس تدفعهم الرغبة فى السلطة إلى مزيد من « الاغتراب » عن غيرهم من الناس ، وهؤلاء هم الذين يظلمون الضعفاء ، ويستغلّون الفقراء ، ويستبدّون بالشعوب ، التى تضطر بسبب القهر والنفاق والخوف إلى أن تُظهر مشاعر التأييد الصورية لهم ، مع أنها فى الواقع تشعر بعزلتهم عنها ؛ وإن كان هؤلاء أقلية بين الناس ، لكننا جميعا بدرجة أقلّ قد نقع تحت حكم هذه الأنانية عينها فى مجالات علاقاتنا المحدودة ، ونسبّب كثيراً من الآلام للقريب . ولعل السيد المسيح لم يتحدث كثيراً عن أولئك العتاة المستبدين لأنه كان يخاطب طبقة عادية من الناس[١٦] ، ولكنه تحدث عن نفس المبدأ ، عن الناس العاديين الذين يتجاهلون حاجات الآخرين ، وهؤلاء خطاياهم سلبية وليست

إيجابية ، مثل الغنى فى مثل « الغنى ولعازر » ، والغنى الغبى . ويؤكد السيد المسيح أن خطية عدم الفعل لا تقل أبداً عن خطية الفعل . وفى مَثَل السامرى الصالح نجد خطية الكاهن واللاوى فى أن كلا منهما رأى الجريح واجتاز إلى جانب الطريق الآخر « جاز مقابله » . وفى وصف الدينونة الأخيرة نجد أن أولئك الذين طرحوا فى النار الأبدية هم أولئك الذين كانت خطيتهم هى عدم الفعل ، فهم لم يطعموا الجياع ، ولم يسقوا العطاش ولم يزوروا المرضى والمحبوسين (مت ٢٥) .

وليست الأنانية وحدها هى سرّ عدم معاملتنا للآخرين كأشخاص لكن ثمة سببا آخر هو **الكبرياء الروحية والأدبية** . فلقد صدم يسوع جماعة الفريسيين بمعاملته الرقيقة للمرأة الخاطئة ، وقد كانوا ينتقدونه بأنه كان يأكل مع العشارين والخطاة ، وبدلاً من أن يترفّع عليهم بإعتباره رجلاً باراً ومعلماً صالحاً ، نجده يكسر الحواجز بين « الأبرار » الذين يحفظون الناموس ، و« الخطاة » الذين يكسرون الناموس . وقد كانت هناك شرائع للطهارة الطقسية ، وكان الكتبة والفريسيون يلاحظونها بعناية لكى لا يتنجسوا ، لكن يسوع علم بأنهم يعملون ذلك بدافع الكبرياء الروحية ، وقال عنهم إن « كل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس ، فيعرّضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق وأن يدعوهم الناس سيّدى سيّدى » (مت ٢٣ : ٥ - ٧) .

إن الدراسات التاريخية تبين لنا أن حياة الفريسيين كان لها جانب لامع وليست بالصورة التى نتصورها نحن الآن بسبب نقد المسيح لهم . لقد كانوا جماعة من المدققين الغيورين الأتقياء الذين يحفظون الناموس . ووجهة نظر الإنجيل أن أولئك الناس كانوا فعلاً غيورين ومخلصين فى رغبتهم أن يطيعوا الناموس سواءً المكتوب أو المتواتر فى التقاليد ، ويمكن أن نقارنهم ونشبههم بكثيرين من المدققين والمتزمتين فى كل عصر . لكن هذه الغيرة أوجدت فيهم نوعاً من البّر الذاتى والرضا بحالتهم ، بصورة فصلتهم عن الشركة مع غيرهم ممن لم يكونوا يحفظون كل شرائع الناموس الأدبية والطقسية مثلهم . ونحن لا ينبغى أن نفترض أن الكتبة والفريسيين كانوا واقعين فى خطية الرياء الواعى ، لأن معظم الرياء غير واع ، أى أن معظم المرائين لا يدركون أنهم كذلك ، بل غالباً ما يكونون مخدوعين فى أنفسهم ويظنون بإخلاص أنهم أتقياء وصالحون . وفى الغالب لم يكن الفريسيون يدركون أنهم بإهتمامهم البالغ بالعشور وقواعد الغسلات والأمور الطقسية والحرفية ، كانوا يتركون أثقل الناموس : الحق والرحمة والإيمان (مت : ٢٣ : ٢٣) ذلك لأن الاتجاه الناموسى فى الأخلاق ، عادةً يهتم بالتفاصيل الصغيرة التى تضمها قواعد وقوانين ، لدرجة أن هذا الاهتمام يطغى على الأمور الجوهرية

الكبيرة . على أنه سواء أكان أولئك يدركون رياءهم أو لا يدركونه ، فإن النتيجة الواحدة هى أن بّرهم الذاتى وعماهم الروحىّ عزلاهم عن الناس العاديين ، ووضعا عائقاً فى طريق تعرفّهم على حاجات الناس الماسّة ، وبذلك لم يستطيعوا أن يقدموا لهم خدمة ؛ ولعل هذا ما كان يسوع يعنيه عندما قال لهم : « ويل لكم ... لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون » (مت ٢٣ : ١٣) . إن محبة القريب تتخذ اتجاهاً مختلفاً عن أسلوب اللامبالاة والشعور بالتفوق الذى يفصل الناس بعضهم عن بعض ؛ إنها تعامل كل فرد كإنسان وتطلب الشركة الحقيقية معه ، فلا تجعل الأمور السطحية مثل الثروة والطبقة والثقافة والجنس والمستوى الروحى تشكّل حواجز بين الإنسان وأخيه ، وهذا يتضح من نصيحة السيد المسيح :

« إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدعُ أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ، ولا الجيران الأغنياء لئلا يدعوك هم أيضاً فتكون لك مكافأة ، بل إذا صنعت ضيافة فادعُ المساكين الجدع والعرج والعمى . فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافوك » (لوقا ١٤ : ١٢ – ١٤) .

إن أصدق تمثيل لمحبة القريب ذكره الرب يسوع فى مثل « السامرى الصالح » الذى قدّمه إجابة على السؤال : « من هو قريبى ؟ » ففى هذا المثل يقارن السيّد المسيح بين جمود مشاعر الكاهن واللاوى تجاه الرجل الجريح ، وبين ما عاناه السامرىّ – رغم العداوة التقليدية بين اليهود والسامريين – إذ نزل وضمّد جروحه وحمله إلى الفندق واهتم بأن يوصى عليه ويلتزم بدفع التكاليف (لوقا ١٠ : ٢٩ – ٣٧) . إن هذا المثل يعطى صورة ثورية عن معنى القريب فيغّير المفهوم القديم للقريب ، ويبين أن كل إنسان يمكن أن يكون قريباً للآخر ، بل يجب أن يكون قريباً مادامت له حاجة ، فيكون على استعداد أن يشاركه حياته وآلامه مشاركة حقيقية ، ويدفع الثمن .

إن الرب يسوع إذ يكشف لنا عن هذه الأعماق فى فهم معنى المحبة المسيحية يوقفنا أمام أخلاقيات الكمال التى سبق أن أشرنا إليها ، وإذ يفحص كل واحد نفسه أمام هذا المقياس ، يشعر بضآلته وبقصوره ... فمن يستطيع أن يفتح قلبه لكل من يحتاج إليه بهذا المقدار وبهذه الصورة ؟!! وماذا يمكن أن تكون نتيجة مشاركة الآخرين بهذا العمق ، إلا مزيداً من المعاناة الدائمة واعتصار حياة الإنسان واحتراقه أو ذوبانه فى خدمة الغير ؟ لكن هذا هو الصليب لمن يريد أن يتبع المسيح ... وهذا هو الطريق الذى اتخذه المسيح إذ دفع حياته وهو يحب القريب لكى يخلّصه ، وهو يريدنا أن نتبعه ونمشى فى طريق الصليب .

إنّ عجزنا عن الوصول إلى هذه الشركة الكاملة لا يثبّط من همتنا ، ولا يجعلنا نستكين للضعف الإنسانى ونقبل ونرضى بالمستوى الأقّل ؛ إنما ينبغى علينا – كما ذكرنا من قبل – أن لا نهمل هذا الطريق ، بل نجاهد بمعونة المسيح أن نسير فيه ؛ وفى نفس الوقت نشعر بحاجتنا إلى التوبة المستمرة إذا قصّرنا أو ضعفنا فى أثناء رحلتنا معه فى طريق الصليب ... وهكذا نعيش دائماً متطلعين إليه ، راضين بكل ما يتطلبه طريق الطاعة والتلمذة له ، فلا نطلب الراحة بالحلول التوفيقية ، لأنه ويل للمستريحين فى الكنيسة !!

ب – أوصافها :

نستطيع من خلال أحاديث السيد المسيح وحياته أن نلاحظ أوصاف المحبة المسيحية (أغابى agape) وكيف أنها تختلف عن المحبة العائلية (Storge) والمحبة الأخوية أو الصداقة (Philio) ومحبة الجنس الآخر (Eros) . إنها شيء آخر يختلف عن كل ما نطلق عليه فى تعاملاتنا العادية لفظ « حب » أو « محبة » – وقد رأينا معناها وأعماقها . إنها شركة عميقة مع الشخص الآخر . وهذه أوصافها :

(١) المحبة المسيحية **شاملة فى مداها** . ففى مثل السامرى الصالح رأينا أن القريب هو أى إنسان يصادفنا مهما كانت جنسيته ولونه وعقيدته . إن هذا الوصف ثورى بالفعل ، ورغم مرور القرون على تقدّم المدنّية والفكر الإنسانى فإن الناس لم يصلوا بالكامل إلى أعماق هذا المعنى وثوريته ، والدليل على ذلك هو ما نراه فى عصرنا الحاضر من تعصّب وتحيّز وتفرقة عند تابعى ديانة المسيح ، كما عند غيرهم . وعندما قال المسيح : « أحبوا أعداءكم » لم يكن يقصد معنىً سلبياً أى عدم كراهيتهم ، بل قصد أن نقوم بعمل إيجابى لنبدأ علاقة معهم ونسالمهم ونغفر لهم ونريد لهم الخير . إن المحبة المسيحية لا تكتفى بالاتجاه السلبّى « لا تقاوموا الشرّ » بل تتعدى ذلك إلى العمل الإيجابى كالصلاة والمباركة والإحسان « اغلب الشرّ بالخير » .

(٢) والمحبة المسيحية **لا تؤسس على انتظار ردّ المحبة** أى لا تنتظر ردّ المحبة كشرط لتقديمها . فقد قال السيد المسيح :

« وإن أحببتم الذين يحبّونكم فأى فضل لكم ، فإن الخطاة أيضاً يحبّون الذين يحبونهم . وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأى فضل لكم . فإن الخطاة أيضاً يفعلون هكذا . وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل

لكم ، فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة لكى يستردوا منهم المثل » . (**لوقا ٦ : ٣٢ - ٣٤**)

وكأنما يريد السيد المسيح أن يقول إن الإنسان العادى يمكن أن تكون عنده محبة الزمالة والصداقة (Philio) ، أما محبة أبناء الملكوت فيجب أن تختلف عنها لأنها تُعطَى **مجانا وبسخاء** . إنها لا تعطى لكى تأخذ ، بل تعطى لأن طبيعتها العطاء .

(٣) والمحبة المسيحية **لا تعطى بالاستحقاق** ، ولا تعتمد على صفات أو إمتيازات من تتجه نحوه . إن المحبة العادية تتجه نحو صفات معّينة تستحق المحبة مثل الجمال والصلاح والرّقة والوفاء والذكاء والمرح وغير ذلك من الصفات ... لكن المحبة المسيحية لا تنظر إلى كل هذه الأمور فقد اتجه يسوع بحنانه وحبّه نحو المرضى والمجانين والمصابين بالبرص والمطرودين والخطاة ، وعندما سأله الفريسيون لماذا يقبل خطاةً ويأكل معهم قال لهم : « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى » (مرقس ٢ : ١٧) — وقد عبَّر يسوع عن هذا الاتجاه فى حياته وفى أمثاله .

والخلاصة : أن المحبة المسيحية فى تعليم المسيح ليست مثل محبة الناس العادية ، محبة ناقصة ، لكن مثالها هو محبة الله الذى يصفه بأنه « مُنِعمٌ على غير الشاكرين والأشرار » (لو ٦ : ٣٥) . و« يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين » (مت ٥ : ٤٥) وعلى المؤمنين أن يكونوا مثل أبيهم الذى فى السموات » « فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم » (لو ٦ : ٣٦) « فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (مت ٥ : ٤٨) .

هنا لبُّ الموضوع ، فالإنسان الذى يريد أن تكون محبته مسيحية ، لا يتمثل بمحبة الناس المتحفظة المحترسة ، بل بمحبة الله السخية المنطلقة . هذه هى ثورية المسيحية لأنها تظهر محبة الله الغنيّة السخية تجاه الناس ، وقدرة الناس باعتبارهم كائنات روحية أن يعكسوا هذه المحبة فى حياتهم ، وهنا يتصرف الإنسان كمخلوق على صورة الله ، لا كحيوان يتنافس مع غيره فى صراع الحياة وتنازع البقاء ؛ أو كجماعات تحكمها قواعد الجماعة وصراعاتها الاجتماعية . إن برَّنا لن يزيد على برّ الكتبة والفريسيين ما لم تحرّكنا محبة الله هذه ، وتنعكس علينا[١٧] .

حـ - هدفها

من دراستنا للمحبة كما ظهرت فى حياة المسيح ، نجد أن طبيعتها تختلف عن

المحبة المعروفة والمألوفة . فإنه قال : « لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » ، وفى نفس الوقت ربط نفسه بالناس المعروفين أنهم خطاة ، وبذلك هاجم الفكر اليهودى الشائع الذى كان مضمونه أنه يوجد فاصل واضح فى نظر الله بين الأبرار والأشرار . لقد طرح يسوع جانبا النظرية التى كانت تقول بأن نظرة الله إلى الناس تحكمها فكرة **العدل الجزائى** والعقابى على أساس علاقة الناس بالناموس . وتعليم يسوع عن المحبّة غيرَّ المفاهيم إذ أظهر أن محبة الله سخيّة وشاملة للأبرار والأشرار ، وبذلك فتح الطريق إلى إدراك مفهوم جديد **للعدل الفدائى** ؛ ومن أفضل الأمثلة التى تشرح هذه الحقيقة مَثَل الفعلة والأجور (مت ٢٠ : ١ - ١٦) الذى شبَّه به المسيح ملكوت السموات . فى ذلك المَثَل نرى صاحب العمل ، أو (ربّ البيت) يستأجر فعلة لكرمه ويتفق معهم على دينار كأجرة يومية ؛ ونراه يخرج بعد ساعات من بدء النهار ، ثم فى منتصف النهار ، ثم قبل نهاية اليوم بساعة ، وفى كل مرَّة يرسل فعلة ليعملوا فى الكرم . وعندما جاء فى ختام اليوم (الساعة الثانية عشرة حسب التوقيت اليهودى) ليدفع الأجرة ، دفع ديناراً للذين اشتغلوا متأخرين ؛ وتوّقع الذين عملوا من أول النهار أنه سيعطيهم أكثر من دينار ، لكنهم فوجئوا بأنه أعطاهم أيضاً كل واحد ديناراً واحداً . فتذمروا قائلين : « هؤلاء الآخِرون عملوا ساعة واحدة ، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر » . وكان هذا تذمراً طبيعياً إذا نظرنا إلى العدل من ناحيته النسبية والتوزيعية . لكن ربَّ البيت قال لواحد منهم : « يا صاحب ما ظلمتك . أما اتفقت معى على دينار . فخذ الذى لك واذهب ، فإنى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك . أوَما يحلّ لى أن أفعل ما أريد بما لى ، أم عينك شريرة لأنى أنا صالح » (مت ٢٠ : ١٣ - ١٥) .

يقول أحد اللاهوتين تعليقا على هذا المَثَل إننا لا نستطيع أن « نبرىء » رب البيت فى هذا المثل من تهمة الظلم وعدم المساواة إذا كنا نقيس العدالة بالمقاييس البشرية(١٨) ، لأنه مع أن صاحب العمل اتفق مع العمال على أجر دينار واحد ، لكن كونه دفع أجراً كبيراً نسبياً لمن اشتغلوا متأخرين ، يعتبر أمراً غير طبيعى مع أنه لا يخالف أى قانون أو وعد ، لكن العدالة البشرية تتوقع أجراً أكبر للعمل الأكثر .

والنقطة الجوهرية فى المثل هى أن الله غير مقيّد بالمقاييس البشرية فى العدالة عندما يتعامل مع الناس . إن محبته الفيّاضة بلا سبب جعلته يعطى مكافأة لمن اشتغلوا متأخرين أكثر مما كان يمكن أن يطلبوا . وأولئك الذين اشتغلوا أكثر وهم يفكرون من وجهة نظر العدالة التوزيعية والاستحقاق طالبوا بأن يأخذوا أكثر ، لكن الطلب رُفِض لأن المحبة المسيحية تقف على مستوى أعلى من العدالة التوزيعية وتبطلها وتحل مكانها .

ونفس هذا الفكر نجده فى مثل الابن الضال ، فإن الابن الأكبر يمثل جانب الاستحقاق والعدل ، ومن وجهة نظره يحق له أن يتذمر ويشكو لأنه خدم أباه سنين كثيرة ولم يتجاوز وصيته قط ، ومع ذلك فلما جاء الابن الأصغر الذى كان مستهتراً فى سلوكه ، إذا بالأب يبذل له ما لم يكن يستحقه ...

لكن المسيح يريد أن يبيّن أن محبة الله لا تقيس الشخص بقيمته واستحقاقه عندما تعطى نفسها له . هذا ما تفعله المحبة الإنسانية ، إنها تقيس قيمة الشخص وتقدم له من المحبة بقدر ما ترى أنه يستحق ... لكن محبة الله ليست هكذا ، فإن الله خالق ، ومحبة الله هى التى تخلق القيمة ...

إن الخاطىء فى نظر الله له قيمة معّينة كمخلوق على صورة الله ، وحتى إذا كانت هذه الصورة قد تشوهت فى الإنسان بسبب الخطية لكنه يستطيع استعادتها بالإيمان وعمل الروح القدس الذى انسكبت المحبة فيه ، والمحبة تثير فيه الحياة .

عندما نقول إن محبة الله هى التى تخلق القيمة ، لا نقصد أنها تعطى قيمة معَينة لكائن لا قيمة له – **إن محبة الله فى المسيح تحقق إمكانيات للإنسان قيمته التى فقدها بسبب الخطيه ، والمحبة تعيد للإنسان الحياة لأنها تخلقه من جديد .**

هذا هو هدف المحبة . فبالرغم من أن الله يعطينا المحبة دون اعتبار لاستحقاقنا الحقيقى ، لكن هذه المحبة لا تكون فعّالة فى حياتنا إلا إذا تجاوبنا معها بالأسلوب الصحيح . وعلى سبيل المثال فإن السيد المسيح يوضح أن غفران خطايانا يتوقف على استعدادنا نحن أن نغفر للآخرين ؛ كذلك فإن الإنجيل يوصينا بأن نحب القريب ويقول يوحنا فى رسالته الأولى إن اختبار وامتحان محبتنا لله هو محبتنا للإخوة .

فكأنما محبة الله تتجه الينا سواءً كنا نستحقها أم لا نستحقها ... إنه يحبنا فضلاً ، لكن هدف المحبة هو أن **توقظ فينا الرغبة فى المحبة والقدرة على محبة الله والقريب .**

لذلك ينبغي ألّا نعتبر أنفسنا مجرد متلقين لمحبة الله سلبياً ، بل ننظر إلى نفوسنا كمخلوقات نشطة مسئولة يدعونا الله أن ننجز قصد محبته فى حياتنا وفى حياة الآخرين .

وهكذا نرى أن الله يحبنا ليس لأنه يحتاج إلى شيء يمكن أن نقدمه له رداً على هذه المحبة ، وَلكنه يحبنا بهدف أن هذه المحبة تثير فينا الرغبة فى ردّ المحبة والتجاوب معها ، فندخل فى شركة معه إذ نقدّم له ذواتنا .

إن محبة الله تتجه إلى أسفل ، إلينا ، لكنها تهدف أن تثير فينا حركة محبة إلى أعلى ، نحو الله .

وعلى نفس القياس ، فنحن يجب أن نحب الآخرين دون أن يكونوا مستحقين ، ودون انتظار ردّ المحبة ، ولكننا نحاول عن طريق محبتنا السخيّة المخلصة أن نوقظ فى الآخرين القدرة على أن يقدموا المحبة كما يتلقون المحبة . وهكذا نعاون الآخرين أن يتبينوا ويكتشفوا قيمتهم التى يستطيعون الحصول عليها بالتوبة والإيمان بالمسيح . فكم من أناس لديهم قدرات وطاقات هائلة على الحبّ والعطاء ، لكن هذه القدرات تظل خامدة ساكنة لأنها لا تجد من يطلقها من ركودها ... وعندما تصادف هذه القدرات لمسات حبٍّ حقيقية مخلصة مضحية بلا أهداف أنانية ، تتفجر هذه الطاقات فتعطى حبّاً وافراً للآخرين ؛ وهكذا يدخل الإنسان فى شركة متبادلة من العطاء والأخذ مع الآخرين ، فيمتلىء العالم من المحبة ، أو يمتلىء العالم من الله ، لأن الله محبة . هذا هو هدف المحبة المسيحية .

٣ - محبة النفس

نأتى الآن إلى موضوع يعتبر مثار الجدل . إن الوصية التى اقتبسها الرب يسوع من العهد القديم تقول : « تحبّ قريبك كنفسك » فهل يتضمن هذا القول وصية ثالثة هى « تحبّ نفسك » ؟ إن القانون الذهبى الذى ذكره المسيح : « فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم » (مت ٧ : ١٢) يبدو أنه يؤيد هذا الرأى لأنه يفترض أن يكون الإنسان راغباً فى الخير لنفسه ، لذلك فواجبه أن يفعل الخير للغير . لكننا فى نفس الوقت لا نجد نصوصاً فى العهد الجديد توصى بمحبة النفس ، بل ربما كانت أحاديث السيد المسيح تعارض محبة النفس أكثر مما تؤيدها .

ونحن نقرأ لبعض الآباء فى تاريخ العصور الأولى للكنيسة وفى العصور الوسطى ، نجد أنهم

كانوا يقبلون فكرة محبة النفس باعتبارها جزءاً من الأخلاق المسيحية . فالقديس أوغسطينوس يعتبره أمراً عادياً أن يطلب الإنسان السعادة الدائمة لنفسه باعتبارها الخير الأسمى ، إلا أنه يقول إن سعى الإنسان نحو السعادة لا ينجح إلا إذا استطاع الإنسان أن يتجاوز نفسه ويبتعد عن الأشياء الزائلة ويتجه نحو الخير الأبدى وهو الله . وفى اللحظة التى يعرف فيها الإنسان محبة الله ، يتعلم أن المحبة الحقيقية للنفس تتطلب محبة الله باعتباره الخير الأسمى للنفس ، وأنه يجب أن يحبَّ نفسه « من أجل الله »(١٩) .

وقد كان لمثل هذا النوع من التفكير أكبر الأثر فى الفكر المسيحى فى القرون الوسطى ، فقد قال القديس برنارد أوف كليرفو (St. Bernard of Clairvaux) إن الإنسان يتدرج فى المحبة فيبدأ بمحبة نفسه ، ثم ينتقل إلى محبة الله لأجل خير نفسه ، ومن ذلك إلى محبة الله لأجل ذات الله وإلى محبة نفسه من خلال محبة الله ولأجل الله(٢٠) .

وبين حين وآخر كان النساك المسيحيون (Mystics) يتحدثون عن إلغاء الذات وإنكارها تماماً حتى يفنى أو يذوب وجود الإنسان الفردى فى الله ، وقال بعضهم إن محبة الله الكاملة هى التى لا يوضع فيها اعتبار لخير الذات على الإطلاق(٢١) .

فإذا أتينا إلى المفكرين المحدثين نجد كثيرين منهم يرون أن فكرة محبة النفس غريبة على الخط الفكرى للعهد الجديد ، ويجب أن تُرفض تماماً ، ويقول أحدهم : « إن محبة الذات هى حالة الإنسان الطبيعية وهى أساس انحراف إرادته نحو الشرّ ، وكل إنسان يعرف بالطبيعة كيف يحبّ نفسه ، لذلك فتفسير الوصية الثانية هى أن تحب قريبك كما أنك بالطبيعة تحب نفسك ؛ وهكذا فإن الوصية بمحبة القريب كالنفس لا تعنى محبة النفس ، بل بالعكس ، إنها تجعل محبة القريب تتغلب على محبة النفس(٢٢) .

وإننا نرى فى هذا الرأى وجاهة ومعقولية ، لأن الوصية الثانية تفترض أن محبة النفس أمر طبيعى فى الإنسان ، فلا توصى به ؛ ومادام الأمر كذلك فإن أية محبة للنفس مهما كانت سامية وروحانية ، لا تتفق مع جوهر الأخلاق المسيحية .

على أن فكرة « إنكار الذات » فى المسيحية ، لم تفهم فهما صحيحاً من كثيرين ، فلقد تصوّرها البعض احتقاراً للذات . والواقع أن احتقار الذات ليس مطلبا تقتضيه الأخلاق المسيحية ، وقد قال العالم اللاهوتى الحديث إميل برونر إن المسيحى الذى يشعر بأن خطاياه قد غُفِرت ، وأنه قد « تبّرر » أمام الله ، لابد أن « يقبل » نفسه ، ويقثر بقيمته التى أوصله إليها الله بخليقته وفدائه ، وأن يفعل ذلك شاكراً . هذا هو معنى « تقبُّل الذات » الذى يقود

الإنسان إلى « احترام ذاته » باعتباره هدفا لمحبة الله ورحمته مفديا من عبودية الخطية والموت ، وفى عداد أبناء الله[٢٣] .

هذا هو السبب الذى جعل اتضاع المسيحيين لم يقف عائقاً دون وقوفهم بثبات من أجل عقيدتهم وأسلوب حياتهم رغم الانتقادات التى وُجهت إليهم ، بل إن اتضاعهم لم يمنعهم من أن يفتنوا المسكونة ليجعلوها تسير فى تناسق مع المُثُل العليا التى كانت لديهم . إلّا أن تقبل الذات واحترامها لا ينبغى أن يختلط مع « الاعتداد بالذات » لأن هذا الاتجاه الأخير أساسه الاعجاب بالذات والفخر بالنفس بدلاً من الإيمان بالله .

فى ضوء هذا المفهوم ماذا يكون موقفنا من الاهتمام بالذات سواء أكان بحاجات الذات الجسدية أو الروحية ؟ إن الصلاة الربانية تتضمن طلبات تتعلق بخبزنا اليومى ، وغفران خطايانا ، وانقاذنا من التجربة ؛ هذا فضلاً عن أن بعض أقوال المسيح تشير إلى النفس والجسد وحاجاتهما كقوله : « اطلبوا أولاً ملكوت الله وبّره ، وهذه كلها (حاجات الجسد) تزاد لكم ، وكسؤاله : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه » — هذه الأقوال تفترض أن هناك واجباً للاهتمام بالنفس من ناحية خيرها الأسمى .

فإذا كانت محبة الذات هى أساس الشرّ الذى يجب أن نتغلب عليه ، فكيف يكون الاهتمام بالذات لتحقيق الحياة الأبدية أمراً جائزاً ومقبولاً ؟ ألا يُعَدُّ هذا نوعاً ذكياً من الأنانية بالاهتمام بجانب أنقى وأبقى للنفس من الجوانب الزائلة ؟

إن المفتاح لهذا التناقض الظاهرى نجده فى جواب السيد المسيح على طلب يعقوب ويوحنا ابنى زبدى ، أو على طلب أمهما حسب رواية متى البشير — أن يكون واحد منهما عن يمينه والآخر عن يساره فى مجده . فقد قال المسيح : « من أراد أن يصير فيكم عظيماً يكون لكم خادماً . ومن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبداً . لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت لُيخْدمَ بل ليخدِم ، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مر ١٠ : ٤٣ — ٤٥) — ونفس هذا التناقض الظاهرى نجده فى القول « من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها » (مت ١٦ : ٢٥) . إننا إذا أردنا أن نفهم هذه الأقوال ، ينبغى علينا أن نفرّق بين « محبة الذات » ، و « محبة الخير » — ففى محبة الذات يكون التركيز على مصلحة الذات ورغباتها وشوقها أن تنال إشباعا لحاجاتها وتتعلق بها أطول فترة ممكنة ؛ بينما فى محبة الخير تسعى الذات إلى أن تتخطى ذاتها وتعلو عليها ، بأن تكرّس نفسها لملكوت الله باعتباره الخير الأسمى ، وتكون على استعداد لأن تضحّى بكل شيء فى سبيل تلك الغاية ، حتى لو كان هذا الشيء هو الحياة نفسها .

هذا يوضح كيف يكون من الممكن لشخص ما أن يهتم بملكوت الله دون أن يحب نفسه لأن هدفه ورغبته ليست إرضاء ذاته بل المشاركة فى الخير الأسمى وهو الحياة الأبدية . وينبغى أن نلاحظ أن الحياة الأبدية ليست « مكافأة » أو « جائزة » تُعطى للإنسان تعويضا عن متاعبه وتضحياته فى هذه الحياة ؛ إن الحياة الأبدية ليست شيئاً خارجياً نقتنيه ، بل هى استمرار لحياتنا فى صورة تحقيق الامكانات التى بدأت تظهر فيها فعلاً ... إن الحياة الأبدية هى نوع من الحياة فيها إنجازات حياة المحبة فينا وفى شخصياتنا ، وهو إنجاز يستمر بعد أن بدأ فعلا بحياة الإيمان العامل بالمحبة ، حتى نبلغ الكمال . وفوق ذلك فإن ملكوت الله الذى نطلبه مع بّره ، لا نطلبه كشىء من ممتلكاتنا الخاصة التى تقتنيها الذات ، بل إنه علاقة بالله وبالقريب يدخل فيها الإنسان ؛ إنه شركة ينسى فيها الإنسان كلَّ انشغاله باهتماماته الخاصة ، فإن تطلعات الإنسان نحو حياة الملكوت تتطلب منه أن يرفض محبة الذات . وفى عطاء ذاته سيجد الحياة الحقيقية والسعادة الحقة .

إن أساس الحياة « فى الجسد » هو محبة الذات وهدفها إرضاء رغبات النفس ، وأساس الحياة « فى الروح » هو محبة الله ومحبة القريب التى تقود إلى تخطِّى الذات والسموّ عنها – وعلى كل فرد أن يختار أن يتبع واحداً من هذين المبدأين المتعارضين – فإذا اختار « الحياة فى الروح » فإنه سيفعل ذلك من أجل محبة الملكوت لأجل ذات الملكوت ، وليس لأجل ذاته هو ، وبذلك لا تصير رغبة الإنسان فى الحياة الأبدية فى ملكوت الله نوعا من الأنانية المهذبة التى يحب فيها الإنسان ذاتاً راقية بدلاً من ذات دنيا ... بل تصير رغبة الإنسان فى الملكوت هى تطلّعه كمخلوق روحىّ إلى أن يتخطى نفسه تماماً بتقديم نفسه تماماً لله والقريب .

٤ – المحبة والتسامح والمصالحة

بعد أن استعرضنا المحبة كوصية ، نجد أنفسنا فى حاجة إلى التأمل فى بعض نماذج المحبة المسيحية كما تبدو فى تعاليم وحياة مخلصنا له المجد ، الرب يسوع المسيح . وبادىء ذى بدء يجب أن نكرر ما سبق أن ألمحنا اليه وهو أننا إذا نظرنا إلى أقوال السيد المسيح كناموس جديد ينقّح ناموس موسى ، فإننا نتعرض لكثيرين من الحيرة والأخطاء ؛ إنما ينبغى أن ننظر إلى هذه الأقوال بإعتبارها نماذج لما يمكن أن تعمله المحبة فى بعض المواقف ، فنستخلص منها المبادىء الأساسية للسلوك ، لا حرفيات التشريع .

ومن خصائص الأخلاقيات عند السيد المسيح التى أشرنا إليها أنها تتجه إلى بواطن النفس قبل ظواهرها ، وعلى هذا الأساس كانت إدانة المسيح للغضب (مت ٥ : ٢٢ – ٢٤) – إن

هذه الإدانة تلقى ضوءاً على موقف المحبة من أحد الانفعالات الإنسانية القوية التى ينتج عنها الكثير من التوتر فى العلاقات بين الناس . ومن المعروف أن الإنسان إذا استسلم لانفعال الغضب ولم يضبط أعصابه فإنه كثيراً ما يجرح مشاعر غيره ، ويهين كرامته ، فينشأ بذلك حاجز نفسى بينه وبين الآخرين ، وبذلك يكون الغضب عاملاً من عوامل إضعاف مشاعر الأخوة بين الناس ، ومن الضرورى معالجته بأسرع ما يكون . ولقد اعتبر الرب يسوع أن واجب الإنسان مداواة مشاعر المرارة المتولدة عن الغضب ، وإعادة الصفاء إلى العلاقات ، اعتبر يسوع أن لهذا الواجب أولوية تسبق واجب التعبد لله ذاته ، « فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك ، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً أصطلح مع أخيك . وحينئذ تعال وقدّم قربانك » (مت ٥ : ٢٣ و ٢٤) ولا يمكن التصالح بعد الغضب إلا بالغفران أو التسامح . وفى الصلاة الربانية علّمنا السيد أن نصلى قائلين « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا » (مت ٦ : ١٢) ، وقد أضاف السيد المسيح بعد ذلك قوله : « فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى ، وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم » (مت ٦ : ١٤ و ١٥) . ونستطيع أن نتبين أهمية استعداد الإنسان للتسامح من رد السيد المسيح على بطرس عندما سأله : « يارب كم مرة يخطىء إلىّ أخى وأنا أغفر له . هل إلى سبع مرات » . وهنا يظهر الفكر الناموسىّ ، أى الإلتزام بالحرف ، وعدد المرات . لقد ظن بطرس أن سماحة تعاليم المسيح يمكنها أن تسمح بزيادة عدد مرات الإساءة القابلة للغفران من ثلاثة كما كان شائعاً عند اليهود ، إلى سبعة . لكن إجابة المسيح تبين ثورية تعليمه على ناموسية التفكير ، فقال له : « لا أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين مرة سبع مرات » (مت ١٨ : ٢١ و ٢٢) ، والمقصود هنا أن يكون الغفران بلا حدود ؛ وقد شرح السيد المسيح أعماق هذا الفكر الثورى فى التسامح فى ملكوت الله بمثل المديونين (مت ١٨ : ٢٣ — ٣٥) ، وهو يحكى قصة العبد الذى سامحه سيّده بَدين كبيراً جداً (عشرة آلاف وزنة وهى فى تقدير البعض تساوى الآن ملايين الجنيهات) ، ولكن ذلك العبد لم يرحم رفيقه العبد الذى كان مدينا له بمئة دينار (حوالى عشرين جنيها) ، فكانت النتيجة أن سيّده سلّمه إلى المعذّبين حتى يوفى كل ما كان له عليه ، وكان ذلك بالطبع مستحيلاً .

إن العلاقة بين التسامح ووصية المحبة واضحة بلا شك ، فالتسامح هو تجاوب طبيعى عند من يعرف أن الله سامحه ورحمه ، ويقول السيد المسيح إن استمرار رحمة الله وغفرانه للإنسان ، مشروط بروح التسامح التى تظهر فى الإنسان نفسه ؛ فالشخص غير المتسامح محروم من نعمة التواضع التى تجعله مؤهلا لنوال غفران الله ، مهما كان استعداد الله أن يسامحه . هذا

جانب واحد من التسامح ؛ أم الجانب الثانى فهو هدف التسامح وهو إعادة الشركة بين الإنسان والله ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان . إن كل طرف من الأطراف البشرية يحتاج أن يعطى الغفران ، وأن ينال الغفران ، ذلك لأن الجميع قد أخطأوا بقدر ما ، والعلاقة بينهم وبين الله قد أصابها شرخ أو صدع ؛ والجميع يحتاجون إلى غفران الله . وكما ينال الإنسان غفران الله ، يجب عليه أيضاً أن يغفر لغيره ، فتعود العلاقة وتتم المصالحة .

وبديهى أن السلام لا يتحقق بين الناس الذين أساءوا إلى بعضهم البعض بدون المصالحة ، ولهذا قال السيد المسيح فى مستهل العظة على الجبل : « طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » (مت ٥ : ٩) فإن من يأخذون على عواتقهم تحقيق المصالحة بين الناس ، يدعون أبناء الله ، لأنهم يقومون بعمل الله الذى كان فى المسيح مصالحا العالم لنفسه (١ كو ٥ : ١٩)[٢٤] .

إن التسامح عمل من أعمال الرحمة النابعة من المحبة ، وهدفه إعادة الإنسجام والشركة بين الناس ، فهو من أسلحة المحبة القوية التى تنشر بها السلام والأخوّة بين البشر .

٥ – محبة الأعداء وعدم مقاومة الشرّ

من أقوال السيد المسيح فى العظة على الجبل قوله :

> **« سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسنّ بسنّ . وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخّرك ميلا واحداً فاذهب معه أثنين . من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه » .**
>
> **« سمعتم أنه قيل تحبّ قريبك وتبغض عدوّك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم .... » (مت ٥ : ٣٨ – ٤٤) .**

هذه الأقوال تضع أمام الناموسيين والحرفيين فى التفسير صعوبة بالغة . وهناك أجزاء أخرى فى العهد الجديد مستوحاة من هذه الأقوال ، مثل أقوال بولس الرسول فى رسالة رومية ١٢ : ١٧ ، ٢١ ، وكذلك أقواله فى رسالة كورنثوس الأولى ٦ : ٧ ، وأقوال بطرس فى رسالته الأولى ٣ : ٩ .

وأول ما نلاحظه هو اختلاف هذه الأقوال عن ناموس العهد القديم الذى كان يسمح بالمعاملة بالمثل فى حدود الضرر الواقع فعلاً . تقول شريعة العهد القديم : « وإن حصلت أذية

تُعطى نفساً بنفس ، وعينا بعين ، وسنّا بسن ، ويداً بيد ، ورجلاً برجل ... الخ » (خروج ٢١ : ٢٣ و ٢٤ - كذلك لاويين ٢٤ : ١٧ - ٢١ ؛ تث ١٩ : ٢١) . وإن ما يثير الالتفات هو أن السيد المسيح يوصى برد الإساءة لا بمثلها ، ولا بالسكوت عليها ، ولكن بعكسها ؛ فهو لا يكتفى بعدم مقاومة الشر ، لكنه يوصى بأن يقوم الإنسان بإختياره بتجاوب من نوع آخر ، أساسه مزيد من العطاء والسخاء ، فهو يعرض له الخدَّ الآخر للضرب ، ويترك الرداء مع الثوب لمن أراد المخاصمة ، ويسير ميلين مع من يريد تسخيره ميلاً واحداً .

ولو أننا أردنا تفسير هذه الأمثلة تفسيراً ناموسياً حرفياً لشعرنا بكثير من الحيرة . فماذا يكون الموقف لو أن المعتدى لم يكتف باللطم على الخدّ بل تطاول إلى مزيد من الضرب والاهانة والإيذاء بكل الوسائل ؟ وماذا يكون الموقف لو أن ذلك الطامع المفترى لم يكتف بالرداء مع الثوب ، بل طمع فى أثاثات البيت ، وباقى المقتنيات والمنقولات ؟ وماذا لو استرسل المسخِّر فى تسخيره للإنسان وأراد أن يستعبده بالقوة عبودية دائمة ؟ هنا نرى سذاجة محاولة تفسير هذه الأمثلة كناموس حرفىّ . لكننا لو نظرنا إليها بإعتبارها نماذج لأسلوب من التجاوب فى مواجهة محاولة الإيذاء ، فإننا سنجد فيها مجالاً رائعاً للاستفادة والاستنارة . لقد رأينا من قبل أن المحبة المسيحية لا تُعطى بناء على الاستحقاق ، ولا تنتظر تجاوباً أو ردّاً لها ، إنما هى تعبير عن اتجاه دائم فى النفس ، لا يتغير بسبب ما يطرأ على من تتجه نحوهم المحبة من ظروف أو مشاعر . إنها كمحبة الله التى يقدمها للأشرار والأبرار . وعندما يقول السيد المسيح لا تقاوموا الشرَّ فهو يقصد أن نستمر فى محبة الشخص الآخر حتى لو كان ذلك الشخص فى وقت ما مؤذيا لنا ؛ لكى نبيّن أن المحبة المسيحية ليست مشروطة ، بل ان المحبة لا تبقى سلبية خامدة ولكنها بإيجابية رائعة تهتم بأن تواجه حاجات الغير مهما كانوا ؛ فإن امتحان محبتنا إذا ما كانت مثل محبة الله أم لا ، يظهر فى موقفنا من الأعداء الذين ليس من السهل على الإنسان العادى أن يتجه إليهم بالمحبة .

لم يكن خافياً على السيد المسيح أن مطالبته لتلاميذه أن يمتنعوا عن الإنتقام ممن يسببون لهم الأذى ، وأن يحبّوا أعداءهم ، لم يكن أمراً عادياً أو طبيعياً . فهو يقول صراحةً إنه لا يطلب من تلاميذه السلوك العادى المألوف عند الناس العاديين ، مثل العشارين والخطاة ، فإن هؤلاء الناس يسلّمون على أحبائهم ، ويردّون المحبة مقابل المحبة . إن يسوع يذكر أنه يطلب من تلاميذه أن يزيد برُّهم على الآخرين ليعبّروا عن محبة الله الكاملة .

وليت الصعوبات العملية فى هذه الأقوال لا تخفى عنّا المزايا السيكلوجية والحكمة الكامنة

فيها . ولا شك أن بولس كان يشير إلى تلك الحكمة عندما كتب قائلاً: « لا يغلبنّك الشرّ ، بل اغلب الشرّ بالخير » ، فإنه من المعروف عمليا واختبارياً فى العلاقات الإنسانية أن مقابلة الشر بالشر ينتج عنها تصعيد عملية الإيذاء ، وتضيف إلى نار العداوة مزيداً من الوقود . ولو أن طرفاً من الأطراف توقف عن رد الإساءة بمثلها . فمن المحتمل أن نيران الأذى والغضب تتوقف أو تخمد . وبالأولى جداً لو أن طرفا من أطراف النزاع قابل الشرّ بعمل صالح ، فإن إحتمال توقف النزاع يكون أكبر ، لأن الطرف المتمادى فى شرّه وأذيته قد يخجل من سخاء وأريحية الطرف الآخر ، وهذا ما قصده بولس الرسول عندما قال : « إن جاع عدوّك فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، لأنك أن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه » (رو ١٢ : ٢٠) .

ولو أننا تعمقنا أكثر ، فى تحليل سلوك الناس لمعرفة سرّ بعض المظاهر العدوانية عند بعض الناس ، والتى يتولد عنها الإعتداد بالذات وإيقاع الأذى بالغير ، لوجدنا أن كثيراً من هذه المظاهر ترجع فى الأصل إلى الشعور بعدم الأمان والإحساس بالخوف — ولقد كشف لنا علم النفس التحليلى أن الإحساس بالنقص الذى ينتاب البشر يعود إلى أسباب قديمة منسيّة ، ويحاول الإنسان أن يعوّض هذا الشعور بمزيد من الإعتداد بالذات ؛ هذا بالإضافة إلى روح التنافس والسعى المتهافت نحو النجاح فى بداية حياة الإنسان العملية ، كل هذا يشجع كثيرين على الإعتداد بالذات ؛ وهكذا نرى أن وراء الشعور بالخوف وعدم الأمان أسباباً شخصية وأخرى اجتماعية . ويحاول المجتمع أن يحفظ التوازن بين العلاقات المتشابكة والمتصارعة ، ومحاولات اعتداء الناس على بعضهم البعض ، بنظام معقّد من الحقوق والواجبات ، يحاول الدعوة إليها وإلزام الناس بمراعاتها بوضع أنواع من الجزاءات والعقوبات لمن يخالفونها ؛ وهكذا تعلمنا جميعاً أن ندافع عن حقوقنا ضد اعتداءات الآخرين ، باللجوء إلى قواعد العدالة البشرية . إلا أن التجاءنا إلى القوانين للدفاع عن حقوقنا ضد اعتداءات الغير لم يعمل شيئاً فى مجال إنتزاع الدوافع العدوانية فينا أو فى غيرنا من الناس . بل إننا أحياناً — فى سبيل الوصول إلى ما نعتقد أنه حق لنا — نبالغ فى طلباتنا لعلنا نصل فى النهاية إلى حقوقنا . وفى المثل الدارج يقول الناس « نتعلق بالباطل حتى نصل إلى الحق » . وفى هذه المبالغة ذاتها ، اعتداء على حقوق الغير . ولابدّ أن الطرف الآخر الذى يواجهنا يبالغ أيضاً فى حقوقه ليواجه مبالغتنا نحن ... وهكذا تحدث المتاعب بهذه الحلقة الشريرة من المطالب المبالغ فيها من الحقوق ...

كيف نستطيع أن نتخلص من هذه الحلقة الشريرة التى نقع فيها ونحن نحاول أن نحقق العدالة البشرية ؟ إن الطريق الوحيد هو أن طرفا من الأطراف يفيض محبة فلا يقاوم الشر ، بل يواجهه بمزيد من العطاء . هنا يستطيع الإنسان المسيحى أن يواجه مرارة المعتدى وشعوره

بعدم الأمان ، بعمل يختلف تماماً عن مشاعر العدوان .

ويمكننا أن نقول إن هناك أنواعاً ثلاثة من الناس : هناك من يحاولون أن يحصلوا على أكبر قدر من الإمتيازات وأن يعطوا أقل قدر ممكن من العطاء ؛ وهناك من هم على استعداد للعطاء الكثير بقدر ما ينالون هم ؛ والنوع الثالث من هم على استعداد للعطاء الكثير دون أن ينظروا إلى ما ينالونه هم . ولا شك أن السيد المسيح يقصد النوع الأول – الذين يريدون الأخذ دون العطاء – وهو يتحدث مستخدماً لقب « الشرير » طالباً عدم مقاومتهم . هؤلاء سوف يستمرون مع أطماعهم وشرِّهم إذا ما كانوا يتعاملون مع النوع الأول المشابه لهم ؛ أو مع النوع الثانى ، فهؤلاء على استعداد للعطاء بقدر ما ينالون ، وبالتالى سوف يتنازعون معهم ، وعلى حق ، ماداموا لم يحصلوا على حقوقهم . أما إذا التقى النوع الأول بالنوع الثالث الذين يعطونهم أكثر من حقوقهم ويظهرون نحوهم أفضل النوايا ، ففى هذه الحالة وحدها يوجد أمل فى أن تتغير حياة هؤلاء الأشرار من أعداء إلى أصدقاء للغير[٢٥] .

إن هدف المسيح هو أن يتعامل الناس بالمحبة إيجابيا مع الإتجاهات الشريرة التى يتعرضون لها ، والدليل على ذلك قوله : « من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه » (مت ٥ : ٤٢) ، هنا نتأكد أن التفسير الحرفى لا يمكن أن يستقيم ، فلو أراد الإنسان أن يطبق هذا القول « كوصيّة حرفية » فإنه بلا شك سوف يفلس بينما يشجع غيره على الكسل والبطالة . ولكننا لو نظرنا إلى هذا القول بإعتباره مرشداً لنا لنحيا بروح التعاطف الحقيقى ، والسخاء النابع من المحبة الواعية ، فسوف نحيا بروح الوصية . فعندما أرسل المسيح تلاميذه ليكرزوا ويشفوا مرضى ويخرجوا شياطين قال لهم « مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » (مت ١٠ : ٨) وقال للغنى الذى طلب معرفة ماذا يعمل ليرث الحياة الأبدية : « اذهب بع كل مالك وأعط للفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » (مر ١٠ : ٢١) – إن هذه الأقوال تبين لنا أن المحبة تقتضى منا نوعاً نادراً من العطاء ، هو العطاء المؤسس على إحساس عميق بحاجات الغير ، بحيث يرغب الإنسان أن يعطى بقدر ما يستطيع وليس بأقل قدر ممكن . إنه العطاء الذى نقدر عليه عندما نتحرر من القلق على أنفسنا وعلى حاجاتنا نحن . والإنسان الذى يستطيع أن يقابل الشرَّ بالخير هو الشخص الذى يكون قد تدرَّب على العطاء دون إعتبار لمقتنياته أو لنفسه . على أننا ينبغى أن نؤكد فى النهاية أنه وإن كان من الممكن أن عدم مقاومة الشرَّ ، ومقابلته بالإحسان ، يحدث تغييراً جذرياً فى الطرف الآخر المعتدى ، إلا أن السيد المسيح لم يتخذ من هذا شرطاً أو هدفاً للمحبة المسيحية – فسواءً نجحت المحبة فى تغيير الشخص الآخر أو لم تنجح ؛ فإن اتجاه المحبة يجب أن يستمر حتى لو زاد الشرير فى عدوانه – وقد يتساءل البعض عما إذا كان معنى ذلك أن المسيح يتطلب حرفية الوصية ، والجواب على

ذلك هو أن السيد المسيح لم يكن يضع قوانين وتشريعات ، لكنه كان يعبِّر عن مشيئة الله الكاملة المطلقة ، دون نظر إلى المحدوديات التى تفرضها على الناس ضرورات المجتمع أو العجز البشرى .

وعلينا نحن البشر أن نحاول تطبيقها ، وفى نفس الوقت نعترف بالنقص البشرى سواء فى الفرد أو فى المجتمع أو الطبيعة الإنسانية ، هذا النقص الذى يعرّضنا أحياناً إلى عدم تطبيقها ، وعلينا أن لا نستكين لهذا الضعف أو نحيا ملتمسين الأعذار لأنفسنا ، إنما علينا أن نتحمل معاناة الصراع ، وآلام التوبة على الدوام .

٦ – المحبة وعدم دينونة الغير

هنا نرى مظهراً آخر للمحبة المسيحية عبَّر عنه السيد المسيح بالقول : « لا تدينوا لكى لا تُدانوا . لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تُدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم » (مت ٧ : ١ و ٢) . ولعل المسيح كان يقصد بهذا القول من يراقبون سلوك الغير من الناس ويصدرون عليها أحكاماً أخلاقية . وهذا العمل فى حد ذاته تعبير عن القسوة وعدم الغفران من ناحية ، ومن الناحية الأخرى هو محاولة لإخفاء عيوب الإنسان الذاتية . وإقامة الإنسان نفسه قاضياً على الآخرين بينما الدينونة هى لله وحده ، دليل على خطية الكبرياء التى تجعل الإنسان يرفع من قدر نفسه ، ويحط من قدر الآخرين . ولدينونة الآخرين نتائج سيئة منها عزل أو استبعاد الغير من الشركة معنا . وقد كانت هذه نقطة خلاف بين الفريسيين والرب يسوع المسيح . فقد اعتزل الفريسيون عمَّن كانوا يسمونهم « خطاة » ، وكانوا يحتقرونهم ويخافون على أنفسهم من « التنجسّ » بمعاشرتهم . والمبدأ الأساسى عندهم كان أن الله يجازى الأبرار ، ويعاقب الأشرار ، وعلى هذا الأساس كان واجب كل إنسان أن يزيد من برِّه ؛ وكانت معاملتهم لمن لم يحفظوا حرفية الناموس محكومة بالعدالة الصارمة دون الرحمة ، فنبذوهم ، وانفصلوا عنهم . كذلك من نتائج دينونة الغير أيضاً ، أن من يدين غيره ، لا يعمل شيئاً لمن يحكم عليه بأنه شرير ، وينفى مسئوليته عنه ؛ وفى أغلب الأحيان يتجاهل النواحى الطيبة فى الغير لأنه ينظر إليه بعين متعالية ، فتكون النتيجة هى أن من يظن نفسه « باراً » يتعامل باحتقار مع من يدينهم ، ويحاول أن يفرض عليهم نوعاً بذاته من السلوك .

وتعتبر دينونة الغير أحد أخطار الديانات الناموسية فمثل هذه النظرة تقسم الناس إلى طبقات من ناحية الأخلاق : الصالح والشرير ، الطاهر والنجس ، وذلك على أساس طاعتهم أو عصيانهم لمجموعة من التشريعات والقوانين الأخلاقية ؛ وبذلك فإن النتيجة الحتمية تكون

أن « الأبرار » يصابون بعلمهم أو دون علمهم بنوع من البرّ الذاتى والرياء وقساوة القلب ؛ وفى نفس الوقت يُصاب « الخطاة » بخيبة أمل وشعور باليأس .

وإن تصنيف الناس بهذا الشكل ليس صحيحاً لأنه مبنى على المقاييس الإنسانية وعلى الظواهر ؛ وبالإضافة إلى أنه يصنع حواجز تمنع فعل المحبة بين الناس ، فإنه يتعارض مع روح الشفقة المسيحية . فإذا كان السيد المسيح نفسه « لم يأت ليدين العالم بل ليخلص به العالم » (يو ٣ : ١٧) ، فخليق بمن يريدون أن يتبعوا طريق المسيح أن يتركوا الحكم على الآخرين لله عالم الخفايا ، وكاشف الأسرار ؛ فإن مقاييس الله وحدها هى الصواب .

إن دينونة الآخرين التى ينهى عنها السيد المسيح هى دينونة الأفراد بعضهم لبعض ، ولا تنطبق على الأحكام التى تصدرها المحاكم المختلفة على المتهمين بعد استعراض الأدلة وسماع الدفاع عنهم ؛ كما أنها لا تحرم المسئولين عن التربية من حق توجيه الأفراد الذين يوضعون فى رعايتهم ؛ ولا تنطبق على الهيئات والجماعات التى من بين أسس نظامها الأساسى تقييم الأعمال والإنجازات أو ملاحظة سلامة التصرف عند أفرادها . فكل هذه الأساليب لا تتضمن أن من يصدر حكما معينا يكون أفضل أخلاقياً من المحكوم عليه ؛ ولكنها تضع قواعد ومعايير لنظام العمل وتتقيد بها ؛ فهى وسائل شرعية لحماية المجتمعات والمواطنين . هذا فضلاً عن أنه فى حالة القاضى فى المحكمة ، أو لجنة التقييم فى هيئة ما ، تصدر الأحكام على أساس العدالة لا على أساس المحبة . ولعلنا نتناول العلاقة بين العدل والمحبة فى مبحث آخر من هذه الدراسة .

٧ - المحبة وعلاقة الزواج والأسرة

لا نريد فى هذا السياق أن نتناول قضية العلاقات الزوجية والعائلية من وجهة نظر الأخلاق المسيحية ، فإن هذا موضوع طويل نرجو أن نخصص له بابا مستقلاً عند دراسة قضايا الأخلاق المسيحية ، لكننا نريد الآن أن نوضح الأسس الأخلاقية لهذا الموضوع فى تعليم السيد المسيح ؛ فقد اعتبر المسيح أن النظرة النابعة من الشهوة تعادل الزنا ، وفى نفس الوقت نهى عن الطلاق . ويقول بعض علماء العهد الجديد أن النص الوارد فى كل من إنجيل مرقس ولوقا عن عدم جواز الطلاق أقرب إلى ما ذكره السيد المسيح عما ورد فى إنجيل متى[٢٦] ، فقد جاء فى إنجيل متى ٥ : ٣٢ « إن من طلق امرأته **إلا لعلة الزنا** يجعلها تزنى ، ومن يتزوج بمطلقة فإنه يزنى » . بينما النص الوارد فى إنجيل مرقس ١٠ : ١١ « من طلّق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها » ، وفى إنجيل لوقا ١٦ : ١٨ « كل من يطلّق امرأته ، ويتزوج بأخرى

يزنى ، وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزنى » – أى أن الأغلب هو أن السيد المسيح لم يضع تشريعاً خاصاً بجواز طلاق الزانى أو الزانية ، ولكنه كان يتحدث عن مشيئة الله الكاملة دون اعتبار لضعفات الطبيعة البشرية .

كانت هناك مذاهب يهودية تبيح الطلاق بلا قيد كمذهب هلّيل ، وكانت هناك مذاهب أخرى تتشدّد فى الطلاق كمذهب شمعى[٢٧] ، وقد فسَّر السيد المسيح إباحة موسى للطلاق بأن ذلك كان « من أجل قساوة » قلوب البشر ، لكن « من البدء لم يكن هكذا » (مت ١٩ : ٨) – أى أن السيد المسيح يرجع بالناس إلى بدء الخليقة كما رواها سفر التكوين حيث يقول الكتاب « لذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً » (تك ٢ : ٢٤) – وعلَّة عدم إباحة الطلاق هى أنه يتعارض مع طبيعة المحبة المسيحية ، فهو مدعاة للحزن ولا يقلّ فى شرِّه عن الزنا لأنه يعتبر خيانة لعهد الوفاء ويكسر قلب المرأة إذ أنه يلغى علاقة حيوية بالنسبة لكيان المرأة ، ويجعل التعامل مع المرأة كأنه تعامل مع شىء وليس تعاملاً مع شخصية لها احترامها . إنه يجعل المرأة مجرد أداة لتحقيق هدف الرجل فحسب ، ولذلك فهو يتعارض مع المحبة المسيحية . ونستطيع أن نفهم هذا أيضاً من نهى المسيح عن النظرة المشتهية . إن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ليست منفصلة عن العلاقة بأبعاد الشخصية المختلفة . وهذه العلاقة تكون صحيحة إذا كانت قمَّة لعلاقة شركة ومودة وإحترام ومشاركة فى الحياة بكل أبعادها . لذلك فإذا فصلنا العلاقة الجنسية عن باقى العلاقات ، فإنها تفقد معناها الروحى ، وإذ ذاك تكون العلاقة استغلالاً للفرد لتحقيق رغبة حيوانية فحسب ، فيصير الشخص وسيلة لا غاية ، وهذا هو الزنا .

ونظرة السيد المسيح إلى الزواج تختلف تماماً عن النظريات التقشفية الزاهدة التى سادت الفترة الأولى من تاريخ المسيحية عندما تأثر الفكر المسيحى بالفلسفة اليونانية ، واعتبر الناس الزواج حالة أدنى من العزوبية ، يتقبلها الإنسان لا كمثال سام عن الحياة ، ولكن كمجرد علاج للشهوة والخطية .

كذلك اعتبر المسيح الولاء لله أهم من الولاء للأسرة ، فعندما جاءت أمه وإخوته ووقفوا خارجاً يدعونه وكان الجمع جالساً حوله ، أجابهم « من أمى وإخوتى . ثم نظر إلى الجالسين وقال ها أمى وإخوتى . لأن من يصنع مشيئة الله هو أخى وأختى وأمى » (مر ٣ : ٣١ – ٣٥) .

وقد ذكر المسيح أنه من الممكن أن يصير هناك انقسام فى الأسرة إزاء بعض القضايا المصيرية الكبرى ، فقال :

« لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ماجئت لألقى سلاما بل سيفاً . فإنى جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه ، والإبنة ضد أمها ، والكنّة ضد حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته - من أحبَّ أباً وأماً أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحبَّ ابنا أو ابنةً أكثر منى فلا يستحقنى » (مت ١٠ : ٣٤ - ٣٧) .

٨ - المحبة والنظرة إلى المقتنيات

مع أنه من المعروف أن أخلاقيات المسيحية تضع المكانة الأولى للروحيات فوق الماديات ، إلا أن السيد المسيح لم يكن يرى شراً فى الماديات ذاتها ، بل كان يوافق على الفكرة اليهودية التى تؤمن بأن العالم المادى بما فيه الجسد الإنسانى ورغباته الطبيعية هو جزء من خليقة الله الصالحة . لذلك فتنمية الحياة الروحية لا تكون بالانفصال عن العالم وإذلال الجسد ؛ ولكنها تكون بالاستخدام الصحيح للعالم وللجسد لأجل الغايات السامية لملكوت الله . ومع أن الماديات ليست شرّاً فى ذاتها لكن يجب أن يُخْضعها الإنسان لما فيه خيرٌ للنفس ؛ بل إن الإنسان يمكن أن يضحى بحياة الجسد كلها من أجل الحياة الأبدية . ولذلك ينبغى أن يختار الإنسان اختياراً حاسماً فيما إذا كان يجعل الله أو المال سيداً على حياته . فلا يقدر أحد أن يخدم سيّدين ... ولا يقدر أن يخدم الله والمال (مت ٦ : ٢٤) .

ويمكننا أن نفهم جميع أقوال السيد المسيح عن المقتنيات فى نور هذا المبدأ وهو أولوية الروحانيات وسموّها . بهذا يمكن أن نفسرّ قول المسيح عندما رفض الغنى أن يبيع كل ما يملك ويعطى للفقراء ، إذ صرّح قائلاً : « ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ... ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله » (مر ١٠ : ٢٣ - ٢٥) ، كذلك أقواله عن عدم القلق لأجل الطعام واللباس ، ووصيته للناس أن لا يكنزوا كنوزاً على الأرض بل فى السموات (مت ٦ : ١٩ - ٢١) . فالسيد المسيح يرى أن القلق من أجل الأمور الجسدية تجربة للإنسان يمكن أن تستحوذ على كل تفكيره فينسى القيم الروحية . وهذا القلق أمر لا داعى له لأن محبة الله تكفل للإنسان كل ضرورياته ، وينبغى على الإنسان أن يثق بالله . هذا فضلاً عن أن القلق لا جدوى منه لأن الكنوز الأرضية يمكن أن تفسد وأن تضيع ولا يمكن أن تعطى للإنسان أماناً حقيقياً . فالتعلّق بالماديات قد يشدُّ اهتمام الإنسان ويبعد فكره عن الأهداف الروحية الباقية .

وقد أوضح السيد المسيح أن الثروة تجربة للإنسان أن ينغمس فى حياة الكماليات ويتقسّى قلبه على الغير ، وبذلك لا ينمّى مشاعر المحبة مع غيره . ومثل الغنّى ولعازر يؤكد هذه الحقيقة (لوقا ١٦) ، كما أن طبيعة البشر تجعلهم كلما إزدادوا ثروة ، زاد طمعهم ، فعندما

طلب واحد من المسيح أن يقنع أخاه بأن يقاسمه الميراث ، أجاب يسوع أنه ليس قاضياً أو مقسما بينهما ، ثم حذر السامعين أن يتحفظوا من الطمع فإنه متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله ، وأعقب ذلك بقصة الغنّى الغبّى الذى لم تنفعه أمواله عندما انتهت ايامه على الأرض وطلب الله نفسه (لوقا ١٢ : ١٣ - ٢١) .

وهكذا يبيِّن لنا السيد المسيح أخطار الاهتمام الزائد بالماديات ، لكنه لا يكتفى بالجانب السلبى ، بل يتقدم إلى الناحية الإيجابية فيقول : « ولكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهده كلها تزاد لكم » (مت ٦ : ٣٣) .

وقد علّم المسيح بأن الماديات وديعة لدينا ينبغى أن نكون أمناء فى استخدامها ، فالأمين فى القليل أمين فى الكثير ، والظالم فى القليل ظالم فى الكثير (لوقا ١٦ : ١٠ - ١٢) - وينبغى أن نفهم الأمانة ليس فقط بمعنى حسن استخدام المال ، بل حسن استخدام الجهد والمواهب أيضاً ؛ فإذا كان المسيح علّمنا أن لا نهتم بالطعام لأن طيور السماء لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبونا السماوى يقوتها (مت ٦ : ٢٦) ، لكن هذا لا يعنى التواكل والتكاسل فى أداء أعمالنا ، كما قال أحد الشراح إن « قليلين من الناس يبذلون جهداً فى سبيل الحياة مثل الجهد الذى تبذله العصافير »[٢٨] .

بقى أن نذكر أن هناك فكراً شائعاً عند بعض الناس بأن السيد المسيح لا يرى أخطاراً فى الثروة ولكن الخطر هو فى الاستخدام السيء للثروة . والواقع أن هذا الرأى قد يضللنا لأنه يحتوى على نصف الحقيقة فقط ، إذ انه يتجاهل تحذيرات السيد المسيح من أخطار الثروة نفسها . فالواقع أنه وإن كانت الثروة فى ذاتها ليست شراً ، لكنها إذا نالت الأولوية عند الناس ، وطغت على اهتماماتهم الروحية ، فإنها تكون خطراً كبيراً حتى لو كان اسخدامها استخداماً صالحاً[٢٩] .

الفصل الثالث

الفكر الأخلاقى فى رسائل العهد الجديد

تمهيد :

لا نستطيع أن نعتبر ما سبق أن قدمناه تلخصياً لتعاليم السيد المسيح الأخلاقية ، إن ما ذكرناه هو مجرد إتجاه الفكر الأخلاق فى هذه التعاليم . والواقع إننا لا نستطيع أن نلخص تعاليم يسوع الأخلاقية ، لأن تلخيصها أو مجرد حصرها وتبويبها يفقدها صفة من صفاتها الأساسية وهى فاعليتها فى مختلف الظروف وإتساع مداها ومرونتها ، والطاقة الخلاقة الموجودة فيها ، القادرة على نقد كل نظام بشرى ، وكل سلوك انسانى ، وتوجيه النظر إلى كمال الأخلاقيات فى ضوء مشيئة الله الكاملة . إن الدراسة الصحيحة لتعاليم السيد المسيح تستدعى التوسع وليس التلخيص ، ولذلك فقد توخينا ألّا نتعامل مع هذه التعاليم كما نتعامل مع أية مجموعة من الوصايا والمبادىء الأخلاقية . لذلك فليس من الأمانة لهذه التعاليم أن نلخصها أو نسردها ولكننا سنلجأ إليها عند كل مبحث أخلاق ، لنرى فيها البحر الزاخر بالمعانى ، والكنز الملىء بالجواهر الثمينة .

لقد كانت الأناجيل ولازالت من أسهل ومن أصعب الكتب فى العهد الجديد ؛ فسهولتها تجىء من تصويرها البسيط للوقائع والأحداث بكيفية تجذب الانتباه وتستحوذ عليه ؛

وصعوبتها تجيء مما لاحظناه عليها وكيف أن مستواها الفكرى والأخلاق يسمو على كل تقدير بشرىّ ، وقد قال أحد الشراح إن يسوع كان دائماً « فوق رؤوس من كتبوا عنه »[٣٠] ، أى أن بساطة لغته كانت ترتبط بأبعاد غير محدودة لتفكيره .

على أن بعض الناس ينتقلون فكرياً من تعاليم السيد المسيح مباشرة إلى المشكلات المعاصرة لهم ، ويتصورون أنهم يجدون حلاً يسيراً لهذه المشكلات بهذا الأسلوب البسيط ، لكن الواقع أننا لا نستطيع أن نقفز هذه القفزة الفكرية بهذه الصورة ، إذ أن كثيراً مما كان غامضاً أو متضمنا فى الإنجيل بصورة أولية ، طُرِح على بساط البحث وصار أكثر وضوحاً فى تاريخ الكنيسة ، وبخاصة فى كنيسة العهد الجديد . فإذا أردنا أن نعالج مشكلات عصرنا الأخلاقية ، وجب أن نستعين بالتراث الفكرى فى تاريخ المسيحية ، وعلى سبيل المثال يجب علينا أن نتعلم من أولئك الذين قدموا رسالة المسيح لليهود والأمم فى الكنيسة المسيحية الأولى ، وكيف واجهوا مشكلات المجتمع حينذاك . ولا شك فى أننا سنجد فائدة كبرى فى متابعة الفكر الأخلاق فى تاريخ الكنيسة .

وفى هذا الفصل سنحاول أن ندرس الفكر الأخلاق فى كنيسة العهد الجديد ورسائله ، وطبيعى أن تحتل رسائل بولس الرسول مكاناً خاصاً بين الرسائل .

١ – الأخلاق فى حياة المسيحيين الأوائل

تعوّد الناس أن يعتبروا يوم الخمسين بأنه ميلاد الكنيسة المسيحية عندما تحقق موعد الآب بحلول الروح القدس على التلاميذ . ولكن البعض يعتبر أن الكنيسة تأسست فى أثناء حياة السيد المسيح نفسه ، فعندما اعترف بطرس أعترافه المشهور فى قيصرية فيلبس وقال للمسيح ؛ « أنت هو المسيح إبن الله الحى » (مت ١٦ : ١٦) قال له المسيح إنه على تلك الصخرة سيبنى كنيسته . على أننا نلاحظ أن السيد المسيح « من ذلك الوقت » ابتدأ يظهر لتلاميذه أنه سيتألم ويُصلب ، وذلك لكى يزيل من أذهانهم الفكرة اليهودية عن المسيّا الأرضى أو السياسى ، ويحيى فى نفوسهم فكرة « البقية » المقدسة التى تظهر فى نبوات الأنبياء وبخاصة إشعياء ، وهى البقية التى ستكون بركة لغيرها ، ورسالة للآخرين ، ولكنها مع ذلك قطيع صغير لذلك قال لتلاميذه : « لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت » (لوقا ١٢ : ٣٢)[٣١] .

على أنه ربما لم يفهم التلاميذ هذه الحقيقة إلى ما بعد صلب المسيح وقيامته وصعوده ، ففى يوم الخمسين اختبر المسيحيون تحقيق نبوة يوئيل ، وأعلن بطرس أن يسوع الذى صلبه

اليهود ، قد جعله الله رباً ومسيحاً .

ولم تكن مظاهر الحرارة فى الإنفعالات والتعبير عنها بالتكلم بألسنة هى أهم صفات الكنيسة فى عصرْها الأول ، فإلى جانب هذه المظاهر الإنفعالية التى كانت تعبيراً عن بساطة وبكارة الإيمان والاختبار ، كانت هناك جوانب أخرى لحياة الكنيسة تتلخص فيما ذكره سفر الأعمال فى القول : « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات » (أع ٢ : ٤٢) ، ومن هذا يظهر اهتمام الكنيسة باسترجاع تعاليم المسيح عن طريق تعليم الرسل ؛ كما أن الظروف ربطت بين المؤمنين فجعلتهم يواظبون على « الشركة » . والشركة ترجمة لكلمة يونانية يصعب ترجمتها فى كلمة واحدة ، وهى «Koinonia» وتعنى المشاركة المتبادلة ، والعلاقة العميقة للمحبة المؤسسة على مشاركة الله حياته معنا فى المسيح يسوع . وقد أصبح لهذه الكلمة مدلول خاص فى الأخلاق المسيحية فى العصر الحديث عندما ظهرت نظرية قال أصحابها إن معيار الحياة الأخلاقية تقرره متطلبات هذه الشركة بين المؤمنين فى المجتمع المتغير .

كان من مظاهر هذه « الشركة » ممارسة عشاء الرب والصلاة معاً ، كما كان من مظاهرها أيضاً فى غير العبادة أن « جميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً ، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج » (أع ٢ : ٤٤ ، ٤٥) – وقد رأى البعض فى هذه الحياة نوعاً من « الاشتراكية » ، لكن قصة حنانيا وسفيرة تبين لنا أنه لم يكن هناك إلزام بتطبيق فكرة بيع الأملاك والمقتنيات (كما ترى النظم الاشتراكية والشيوعية الحديثة) .

ولكن هذه المشاركة كانت نوعاً من الكرم التلقائى الاختيارى النابع من الشعور ، ولم تكن نظاماً اقتصادياً . والواقع أن المسيحيين الأوّل لم يفكروا ، ولم يكونوا فى وضع يؤهلهم للتفكير فى وضع نظام اقتصادى ، بل شعروا بالمحبة والشركة فأحسوا بإحتياجات بعضهم البعض ، فاشتغلوا ، وباعوا ، وقدّموا ؛ وربما ساعدهم على تنفيذ هذه الفكرة اعتقادهم بسرعة مجيء الرب ، الأمر الذى لن يجعل للمقتنيات والأملاك قيمة .

وقد حاول البعض أن ينسب إلى هذا الأسلوب ، السبب فى الفقر الذى أصاب الكنيسة فى أورشليم فيما بعد ، مما جعل بولس الرسول يهتم بأن يجمع مساعدات « للقديسين فى أورشليم » – على أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة ذلك .

وهكذا نرى المسيحيين فى الكنيسة المسيحية المبتدئة يندفعون بعواطفهم نحو الشركة ، ووليمة المحبة ، والصلاة ، وانتظار مجيء الرب ، والمثابرة على تعليم الرسل . ولقد عرف هؤلاء

معنى الألم لأجل المسيح ، إذ صادفوا اضطهادات كثيرة وبخاصة من اليهود ؛ وقد كان رجم استفانوس أحد الأحداث الدامية التي حدثت في ذلك العهد ؛ وهكذا أضيف الألم إلى الشركة والمحبة ؛ وربما كان الألم عاملاً في زيادة الشركة وتقوية المحبة . ومن بين من أسهموا اسهاماً كبيراً في تكوين الفكر الأخلاقي في كنيسة العهد الجديد ، بولس الرسول . لذلك رأينا أن نخصص جانباً ملحوظاً في هذا البحث لتعاليمه الأخلاقية .

٢ – بولس وأخلاقيات الحياة المفدية

يعتبر بولس الرسول أهم شخصية في العهد الجديد استطاعت أن تضع العقائد المسيحية في صورة نظامية ، وتعالج المشكلات الطارئة التي ظهرت في حياة الكنيسة في عصرها الأول . ولكي نستطيع أن نفهم الإطار الفكري الذي كان بولس ينتهجه ، يجب أن نذكر دائماً أنه كان يهودياً ، ولكن من يهود الشتات ، من طرسوس ؛ وأنه كان متعلما للناموس عند قدميّ غمالائيل ، وهو من أشهر معلمي الناموس ؛ وكان من طائفة الفريسيين المدققين ، أو كما قال عن نفسه : « من جهة البّر الذي في الناموس بلا لوم » (في ٣ : ٥) لكنه تأثر في نفس الوقت بالفلسفة الرواقية التي عاش بعض أقطابها في طرسوس ؛ وعاش بولس في بيئة وثنية ودرس الثقافة اليونانية ، وتمتع بالجنسية الرومانية .

أما من ناحية اختباره المسيحي ، فإن قصة تجديده كانت دائماً تملأه بالشكر والعرفان بالجميل . إنه لا يرى سبباً لتجديده سوى أن نعمة الله جعلته يدعوه ، ويعلن له ابنه يسوع المسيح ، ويرسله ليكون رسولاً للأمم . لقد كانت قصة تجديده تملأ قلبه ووجدانه فرواها أكثر من مرة بإعتزاز وعرفان ، ولقد تركت هذه القصة أثراً بالغا في فكره وتعليمه .

إننا نستطيع أن نتصور اختبار بولس عندما نقرأ ما كتبه ، ونحن نلمس إحساساته نحو الناموس والخطية بصورة خاصة في رسالة رومية ٧ : ٧ – ٢٥ ؛ ويبدو بولس في كتابته أنه يعبّر عن إختبار ذاتي . إنه يبين لنا كيف أنه عرف الخطية من خلال الناموس : « فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته » ؟ لقد صار الممنوع مرغوباً ، وصار الأمر بعدم الشهوة فرصة للخطية . إن هذه الوصية لا تتعلق بالأفعال فحسب ، لكنها تتعلق بالإحساسات ؛ وربما سمع بولس بتعاليم المسيح التي تظهر كيف أن الطاعة لا تقتصر على مجرد إطاعة مظهر الوصية ، بل هي شيء أعمق من المظهر . وهكذا لم يستطع أن يّدعى أنه متحرر من الخطية أي مُخّلصّ منها ؛ لأنه حتى لو استطاع أن يضبط أفعاله ، فإنه لا يستطيع أبداً أن يضبط إحساساته ورغباته ؛ إنه يريد أن يعمل الحسنى ولكنه يجد الشرّ ماثلا أمامه .

وربما كان غيره من اليهود يشعرون بنفس المشاعر ، ويتخلصون منها بمجرد القول إن الله غفور رحيم . لكن بولس لم يكن يقتنع بمثل هذه الحلول الوسطى ، فبالنسبة له إما أن يطيع تماماً أو لا – فالأمر حاسم . وهكذا سقط فريسةً لليأس « ويحى أنا الإنسان الشقىّ من ينقذنى من جسْد هذا الموت » !

وهنا ربما اعترضه خاطر عما إذا كان تلاميذ يسوع على حق فيما ينادون به عن الفداء بالصليب ... لكنه يعود ويراجع نفسه ، فإن إيمانه بعدالة الله فى عقابه يجعله يستبعد أن يكون المسيّا شخصاً مصلوباً . وهكذا صار بولس فى وسط دوَّامة فكرية كان أسلوبه للتنفيس عنها هو إزدياد شراسته فى التنكيل بالمسيحيين ، ذلك لأن رجلاً فى مثل طباعة ، متطرف ؛ فهو إمّا أن يحبّ إلى أبعد الحدود ، أو يسترسل فى الكراهية إلى آخر الشوط .

وهنا ينبغى أن نميّز بين اختبار بولس المفاجىء وبين اختبار التلاميذ الذين عاشوا مع الرب يسوع ، واستطاعوا من خلال تكريسهم وولائهم لشخصه أن يتبيّنوا فيما بعد أنه المسيح . أما بولس فإنه اكتشف ذلك فجأة فى الطريق إلى دمشق ؛ اكتشف أن يسوع الذى كان هو يضطهده ، هو المسيح ... !!

ولقد كان لهذا الاكتشاف أعظم الأثر فى تفكيره ، لقد عرف أن يسوع هو ربّه وسيّده ، بل إنه اكتشف شيئاً جديداً عن الله وعلاقته بالبشر . لقد تغيّرت فكرته عن الله وعرف أن التعبير الكامل عن شخصية الله ومقاصده ، لا يظهر فى الناموس ، بل فى النعمة ...

هذا الاكتشاف جعله هو سفيراً يحمل كلمة المصالحة ليس فقط لليهود ، بل للأمم أيضاً .

لقد ترك هذا الاختبار بصماته على شخصية بولس وعلى تفكيره الأخلاقىّ ، فلقد اختبر الله فى أسلوب جديد أو فى حياة جديدة إذ أحس بعمل روح الله وقوته ، وبذلك لم تصر الديانة فى نظره مجموعة مطاليب ؛ وأصبح السلوك الصحيح من وجهة نظره ليس نابعاً من محاولة متكلفة مجاهدة لإتّباع مجموعة تفصيلية من الوصايا ، لكن السلوك الصحيح عنده هو صدى الإيمان بعطية الله العظمى التى لا يُعبَّر عنها ، وهى يسوع المسيح نفسه ، وفى ثمر الروح القدس الساكن فى المؤمن . إننا نقول إن الأخلاق عند بولس الرسول هى أولاً أخلاق الحياة المفدّية أو الحياة الجديدة ، ولا نستطيع أن نفهم فلسفته الأخلاقية إلّا إذا درسناها فى ضوء اختباره وإيمانه .

لقد احتفظ بولس بالخطوط الرئيسية فى التفكير اليهودى عن الله ، مثل سلطان الله فى الخليقة ، وضرورة طاعة مشيئة الله ، وصفات الله كأب وخالق وقاض وديَّان للعالم ،

وكمصدر للرحمة والإحسان والخلاص ؛ إلا أن بولس كان يفكّر فى الله دائماً بإعتباره « أبى رّبنا يسوع المسيح » ، وعندما كان يفكر فى خلاص الله ، كان هذا الخلاص عن طريق يسوع المسيح وبواسطته . وبالنسبة لبولس لم يكن يسوع مجرّد شخصية تاريخية عاشت فى وقت ما ، بقدر ما هو المخلّص والفادى . وهو لا يجعل اهتمامه بمعرفة الشخصية التاريخية ليسوع ، بل اهتمامه كان بعمله الفدائى والخليقة الجديدة التى أجراها . لقد كتب لكنيسة كورنثوس يقول :

« نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد ، وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد – إذاً إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة » (٢ كو ٥ : ١٦ و ١٧) .

لقد جاءت علاقة بولس الجديدة بالله عن طريق يسوع المسيح ، الذى صار فيه ابنا لله ، هذا هو الفداء الذى ناله الإنسان بيسوع المسيح ، وانتقل من حالة العبودية وهى مرتبطة دائماً بالخوف ، إلى حالة الإبن الذى يحب أباه (غلاطية ٤ : ١ – ٧) ، لقد كان الله فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه ، فالصليب هو علامة محبة الله ورحمته الفادية للإنسان .

ولماذا الصليب بالذات ؟ إن البعض يتعثرون منه ، ويتساءلون ألا يمكن أن يكفى مجرد الغفران الإلهى وتجديد الحياة ؟ والجواب هو أن إرادة الإنسان قد فسدت واستعبدت للخطية لذلك فلا يمكنه حتى أن يتوب ، وبالأولى لا يمكنه أن يعمل البر الضرورى للخلاص . إن طبيعة الإنسان الروحية تريد الخير ، ولكن طبيعته الجسدية تقاوم هذه الإرادة ، فالجسد يشتهى ضد الروح ، والروح ضد الجسد . (وسنشرح هذا بالتفصيل فى دراستنا عن نظرة المسيحية إلى الإنسان ، ونوضح أن المقصود بالجسد ليس جسم الإنسان وغرائزه ، بل طبيعة الإنسان الذى تشوهت فيه صورة الله) .

لقد كشف الناموس الخير والشر ، لكنه لم يقدر أن يعطى قوة لإنتصار الخير . ولقد اختبر ذلك اليهود والأمم على السواء ، وسادت الخطية على الطبيعة الإنسانية ؛ وإذا كان لابُدَّ من التغلّب عليها ، فمن المحتم أن يكون ذلك بقوة خارجة عن الإنسان لا من داخله . وقد كان اختبار بولس فى تجديده أن الله قد افتدى الإنسان من العبودية للخطية والموت بيسوع المسيح الذى ذاق الموت لأجل الإنسان ؛ وما على الإنسان إلا أن يطرح جانبا كل كبرياء واعتداد بالذات ويعترف أنه لا يستطيع أن يخلّص نفسه بأعماله الصالحة ، ويقبل بتواضع النعمة التى يقدمها الله له فى المسيح يسوع . هذه هى عقيدة « التبرير بالإيمان » عند بولس الرسول . إن الإنسان لا يتبرر قدام الله ببرّه الشخصىّ الذى يحصل عليه من طاعة الناموس المدقّقة ، بل

يجب أن يعترف بعجزه ويلقى بنفسه فى أحضان النعمة واثقا أنه سينال الغفران . ولسوف يجد الله أهلاً لهذه الثقة لأن الله أظهر رحمته ومحبته للبشر عن طريق الصليب ؛ فالصليب هو التعبير العملى الذى ظهرت فيه رحمة الله ؛ وهو تعبير مرتبط بآلام وموت المسيح إبن الله الوحيد . وإذ يؤمن الإنسان بنعمة الله ومحبته يتبرر ؛ إنما هو لا يتبرر بسبب الإيمان ، كأنما الإيمان فضيلة اشترى بها التبرير ، كلا ، بل يتبرر بالنعمة أى فضلاً بدون جهد ولا فضيلة . « بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان » . على أننا لا ينبغى أن نتوقف عند هذا الحد ، فإن المؤمن إذ يتحدد بالمسيح ينال قوّة « ليتمم خلاصه » ، أى أن الخلاص ليس مجرد غفران الخطايا ، بل هو أيضاً نوال قوة بروح الله لهزيمة الخطية فى حياته . وعندما يحرر روح الله روح الإنسان ويمتلكه ، يمكن للإنسان أن يسلك « فى الروح » وليس « فى الجسد » فيكون المسيح فيه وهو فى المسيح ، إذ صار فى المسيح خليقة جديدة .

إن بولس يوضح العلاقة بين نعمة الله ، وجهد الإنسان ، فى الآية القائلة : « فتمموا خلاصكم بخوف ورعدة ، لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تفعلوا لأجل المسرّة » (فى ١ : ١٢ و ١٣) . هذه هى الخليقة الجديدة ، أو العهد الجديد مع الله ، وهو ليس عهداً مكتوباً بشرائع ونصوص ، ولكنه عهد فى الروح ، « والحرف يقتل ولكن الروح يحيى » (٢ كو ٥ : ١٧) .

لقد كانت هذه العلاقة الجديدة مع الله هى الوازع الذى يشير اليه بولس دائماً ليحثّ المسيحيين على الجهاد لتكون حياتهم مختلفة عما كانت عليه ، ونحن نرى ذلك فى مواضع كثيرة ، فهو يقول لأهل كورنثوس مثلاً :

« ألستم تعلمون أن أجسادكم هى أعضاء المسيح . أفآخذ أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء زانية . حاشا .. أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم .... » (١ كو ٦ : ١٥ و ١٩) .

إن بولس لا يصف مثاليات ويطلب من الناس أن يتبعوها . ولكنه يصف حقيقة الحياة الجديدة التى دخلوها فعلا ، ويوضح للناس ما تتطلبه هذه الحياة فى سلوكهم . إن أخلاقيات بولس هى أخلاقيات الفداء ، والحياة الجديدة . هذه الحياة الجديدة إنما يحياها الإنسان وهو جزء أو عضو من جسد المسيح الذى هو الكنيسة ، وفى هذه الكنيسة علاقات بين الأعضاء ، يحيط بهم العالم الوثنى ، لذلك كان على بولس أن يعالج المواقف الناتجة عن هذه العلاقات . وهكذا نجد فى أحاديثه موضوعات تتعرض لمشكلات عملية مثل ما هو موقف الكنيسة من بعض أعضائها الذين انغمسوا فى علاقات جنسية نتيجة تجارب العالم الوثنى حولهم ؟ وهل

يمكن أن يرفع المسيحى قضية ضد أخيه أمام المحاكم التى يحكمها القانون الوثنى ؟ وهل يمكن أن يكون المسيحى عبداً حسب نظام العبيد الذى كان شائعاً حينذاك ؟ ولم تكن إرشادات بولس فى هذا الشأن مبادىء أخلاقية عامة ، لكنه كان يقدم نصائح عملية لموقف معيَّن فى ضوء المبادىء المسيحية .

وكان من أعظم الأخطار التى صادفت الكنيسة فى تاريخها فيما بعد هو أن المسيحيين أخذوا نصائح بولس الرسول العملية فى المواقف التى كان يعالجها ، وجعلوا منها مبادىء عامة لتطبيقها فى مختلف الظروف - فمثلاً إذا كان بولس يوصى العبيد أن يطيعوا سادتهم ، فإنه كان يوصيهم بذلك فى إطار العلاقات الاجتماعية السائدة فى ذلك الوقت ، لذلك فمن الضرورى على من يدرسون كتابات بولس الرسول وتوصياته المختلفة أن يميزوا بين المبادىء العامة الدائمة، وبين النصائح المؤقتة فى تعاليمه الأخلاقية ؛ أو بمعنى آخر أن يميّزوا بين الروح والحرف .

٣ - بولس والحرية المسئولة

شرحنا من قبل أن نظرة السيد المسيح إلى الناموس كانت تختلف عن نظرة الكتبة والفريسيين ، فإن يسوع **أعاد تفسير الناموس** بأن قدَّم تفسيرات جذرية إذ أنه **عمَّق** معنى بعض الوصايا بتطبيقها على الرغبات والاتجاهات الداخلية وليس على مجرد الأفعال ، كما رأينا من معنى المحبة عنده أنه **وسَّع مجال** تطبيق الوصايا ، فمحبة القريب عند اليهود كانت تعنى محبة اليهودى لكن يسوع أوضح معناها الصحيح بأنها تشمل الجميع حتى الأعداء . كما **بسَّط** يسوع الناموس فجعل قانون المحبة هو المنبع لكل الوصايا . وقد كانت الحاجة الإنسانية فى نظر المسيح أولى بالخدمة والعناية من شريعة الكتبة والفريسيين وتفسيرهم للناموس ، وعلى هذا الأساس أجرى معجزات فى يوم السبت مع أنه كان يمكنه تأجيلها ليوم لاحق دون ضرر بليغ ؛ بل هجر يسوع بعض تقاليد الكتبة والشيوخ مثل غسل الأيدى والصيام (مرقس ٧ ؛ مرقس ٢ : ١٩) .

كما **جدّد** يسوع الناموس فى ضوء مشيئة الله الكاملة كما يظهر فى الطلاق الذى أباحه موسى إذا اعتبره يسوع أنه مجرد رخصة بسبب خطية الإنسان وقساوة قلبه (مرقس ١٠) .

أما نظرة بولس إلى الناموس فهى ناتجة عن قصة تجديده ، اذ أن بولس يرفض الفكرة اليهودية عن الخلاص بواسطة الناموس ويجعل قانون المحبة هو السائد . وبإعتباره رسول الأمم يُصرّ بولس الرسول على حرية المسيحى من كل طقوس وممارسات اليهودية كالختان وأنواع الأطعمة

النجسة والأيام المقدسة الخ ... وهو يكتب قائلاً : « فقبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مغلقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يُعلن .. إذاً قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكى نتبرر بالإيمان . ولكن بعدما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب » (غل ٣ : ٢٣ - ٢٥) لذلك يرفض بولس محاولات دعاة التهود أن يفرضوا عبودية الناموس على الغلاطيين مرة ثانية ويهاجمهم بعنف وشدّة .

على أن الحرية المسيحية عند بولس ليست مجرد الحرية من الناموس ، لكنها ما دامت نابعة من وجود المسيح وقوته فى حياة المؤمن فهى حرية **من الخطية** . فمادام المسيحى يحيا « فى الروح » و ليس « فى الجسد » ، فهو ليس تحت عبودية الخطية وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن تكون حريته حرّية عابثة غير مسئولة . إنها حرية محكومة بروح المسيح . ويظهر بولس هذه الحرية المسئولة فى ثلاثة أمور :

(١) بعد أن أوضح لأهل كورنثوس أن من يعرفون حقيقة الأصنام وأنها ليست آلهة فعلاً ، يمكنهم أن يأكلوا من اللحم والطعام المقدَّم لهم أياً كان ، حتى ولو كان مذبوحاً لوثن ، لكنه حذرهم فى نفس الوقت لئلا تكون هذه المعرفة سبباً فى كبريائهم فيسيئون إلى من لا يعرفون هذه الحقيقة فيتعثرون « ولكن انظروا لئلا يصير سلطانكم هذا معثرة للضعفاء » (١ كو ٨ : ٩) . أى أن حرية الفرد من الشكوك المؤسسة على الجهل والخرافات ، لا ينبغى أن تجعله يتصرف بكيفية لا تبالى بتأثير سلوكه المتحرر هذا على من لا يزالون تحت تأثير هذه الشكوك والجهالات .

(٢) ينبغى ألا تكون هذه الحرية وسيلة للحصول على إمتياز ذاتى ، بل يجب أن تكون وسيلة لخدمة الآخرين . ويتخذ بولس من نفسه مثلاً ، فهو يذكّر الكورنثيين أن له حقوقاً معينة ، ومع ذلك لا يطالب بها ، لكى ييسر خدمة الإنجيل . وفى هذا يقول : « ألعلنا ليس لنا سلطان أن نأكل ونشرب . ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقى الرسل وإخوة الرب وصفا » (١ كو ٩ : ٤ و ٥ وما بعدها) . فمع أن له هذه الحقوق ، لكنه يتنازل عنها لكى يجعل إنجيل المسيح بلا نفقة (١ كو ٩ : ١٨) ، لذلك كان ينفق على نفسه . ويقول « فإنى إذ كنت حرّاً من الجميع ، استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين » (١ كو ٩ : ١٩ - ٢٢) .

(٣) ينبغى ألّا تستخدم الحرية فرصة للجسد (غل ٥ : ١٣) لأن الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد (غل ٥ : ١٧) فإن كنا نعيش بالروح (أى أننا ننسب سبب حياتنا الجديدة إلى عمل الروح) فلنسلك أيضاً بحسب الروح (أى نجعل عمل

الروح هو أسلوب حياتنا الدائم) (غل ٥ : ٢٥) - ومن هذا يتضح أن حرية المسيحي محدّدة بحقيقة معيّنة وهي أن حياته هي تحت سلطان المسيح . فالمسيحي ليس حراً أن يعمل ما يشاء ، وإلّا كانت المسيحية إباحية ؛ والحرية من الناموس ليست حرية من الأعمال الصالحة ، بل هي حريّة من ضرورة الحصول على الخلاص بالأعمال الصالحة . فالأعمال الصالحة ليست سوى ثمر لعمل الروح القدس فينا ، فهي أيضاً عطية لنا من الله .

إن بولس الرسول لا يقلل من أهمية الأعمال الصالحة بل إنه يتحدث عن الرذائل بصورة حاسمة قاطعة إذ يقول عن أعمال الجسد : « أسبق فأقول لكم عنها كما سبقت فقلت أيضاً إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله » (غل ٥ : ٢١) .

وكأنما بولس وهو يرفض الناموس كطريق للخلاص ، لا يعفى المسيحيين من الحياة الأخلاقية التي يوصى بها الناموس . ويقول أحد اللاهوتيين المحدثين : « مع أن المسيحي ليس تحت سلطان الناموس بشكل ما ، لكن هذا لا يعنى أن مطاليب الناموس لا قيمة لها عنده ، لأن المحبة المطلوبة منه ليست تكميل الناموس »[٣٢] . فمع أن المسيحية هي نهاية الناموس من حيث إعتباره طريق الخلاص ، لكنها تحتفظ بقيمة الناموس بإعتبار أنه يوضح مطاليب الله[٣٣] .

ويقول لاهوتى آخر إن هناك نوعين من الصلاح : صلاح الناموس ، وصلاح الروح . ونحن لا نستطيع أن نحقق النوع الأول إلّا بطاعة الوصايا واحدة بعد الأخرى ، مثل البنّاء الذى يضع الأحجار أو قوالب الطوب واحداً فوق آخر وهو يبنى حائطاً معينا ... هذا هو الصلاح الناموسى الذى له بعض الفوائد ، اذ قد يحمينا من بعض الشرور التى تتعرض لها حياتنا من تجارب الشهوات . إلّا أن هذا النوع من الصلاح عقيم لا قيمة له عند الله ... أما النوع الثانى من الصلاح ، صلاح الروح ، فهو حيٌّ ومثمر ، ولا يستطيع الإنسان أن يحققه بنفسه مهما حاول « ولكنه ينمو بعمل الله فينا لمواجهة كل تجربة وكل موقف » . إنه صلاح الله ، وهو عطية من الله وليس من إنجاز البشر[٣٤] .

٤ - بولس وأخلاقيات المحبة

لقد أبرز السيد المسيح المحبة بصورة لم يسبق لها مثيل فبيّن لنا أن « الله محبة » ولم يفعل ذلك بتعليمه فقط ، بل فى حياته أيضاً ، وبذلك تحقق قول البشير يوحنا : « الله لم يره أحد

قط ... الابن الوحيد الذى هو فى حضن الآب هو خبرٌ » (يو ١ : ١٨) فماذا فعل بولس الرسول بتعليم يسوع عن المحبة ؟

(١) لقد اتبع بولس نفس الإتجاه الذى أشار إليه الرب يسوع المسيح ؛ وهو لم يكشف أعماقاً أكثر ، بل شرح متطلبات المحبة فى الحياة العملية . لذلك نراه يكتب فى رسالة رومية صورة عملية لقول المسيح : « لا تقاوموا الشرّ » فيقول « لا تجازوا أحداً عن شرٍّ بشرّ » (رو ١٢ : ١٧) . ثم يقول أيضاً « فإن جاع عدوّك فاطعمه ، وإن عطش فاسقه ، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه . لا يغلبنّك الشرّ ، بل اغلب الشرَّ بالخير (رو ١٢ : ٢٠ و ٢١) – فالمحبة تطفىء نار الغضب ، وتحوّلها إلى نار الندم .

(٢) كما أن بولس شرح كيف أن الفضائل المختلفة تنبع من المحبة ، وهذه الفضائل هى التى تكوّن الشخصية المسيحية . **فالتواضع** : من مظاهر المحبة لذلك يقول لأهل فيلبى :

« فتمموا فرحى حتى تفتكروا فكراً واحداً ولكم محبة واحدة بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحداً لا شيئاً بتحزّب أو بعجب بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم .. فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً ... اخ » . (فيلبى ٢ : ٢ – ٨) .

كذلك **الاحتمال** يعتبر من مظاهر المحبة ويظهر هذا من نصيحته لأهل كورنثوس عندما انقسموا بسبب أكل ما ذبح للأوثان ، فقد نصح كلا من الطرفين أن يحتمل الآخر فى المحبة (١ كو ٨) . كما قال نفس المعنى فى رسالة رومية « لا يزدر من يأكل بمن لا يأكل ، ولا يَدنْ من لا يأكل من يأكل . لأن الله قَبلَهُ » (رو ١٤ : ٣٠) – وكل ما كان يوصى به هو أن لا توضع معثرة للأخ الضعيف ، لأن المحبة تجعل الإنسان يمتنع عمّا يعتقد أنه مسموح به لكى لا يهلك الأخ الضعيف الذى مات المسيح لأجله (رو ١٤ : ١٥) – كما يضيف بولس إلى التواضع والاحتمال فضيلة **الصبر وطول الأناة** والمقصود بهما البطء فى الغضب . يقول أحد الشراح : « كان الغضب فى نظر بولس – بإعتباره متأثراً بالفلسفة الرواقية – يعتبر من الرذائل ، ومع ذلك فقد اختبر هو بنفسه الغضب فى بعض الأحيان ، ونراه يكتب أحياناً إلى أبنائه فى الإيمان بلهجة غاضبة ، ولكن ليس بسبب شخصىّ ، إنما بسبب ما كان يراه معارضاً لربّه وسيّده . وهو يرى أن هناك خطراً إذا استقر الغضب فى النفس لأنه يقود إلى المرارة وإلى غيره من الرذائل ، وهكذا يمزق روح السلام والوحدة فى الجماعة[٣٥] . وهكذا يمكننا أن

نتوسع فى شرح الفضائل التى اعتبرها بولس ناتجة عن المحبة ، وكلها من ثمر الروح (غل ٥ : ٢٣) .

(٣) ويصل بولس إلى الذروة فى نشيده الخالد عن المحبة فى رسالة كورنثوس الأولى ١٣ ، وهو فى نظر الكثيرين وصف للسيد يسوع المسيح نفسه ، وفى هذا النشيد يظهر بولس أن أعظم وأفضل مواهب الروح هى المحبة ، فهى التى توّحد الكنيسة حتى إن كانت مواهب الروح متنوعة – فالمحبة هى اللسان الذهبى فوق كل لسان ، فهى أسمى من النبوّة ، وألزم من المعرفة ، وأقوى من المعجزة ، وأجمل من الإيمان ، وأجَلُّ من التضحية ، أسلوبها الأناة والرفق وعدم الحسد وعدم التفاخر والانتفاخ ، وأخلاقها فى مظهرها لا تقبّح ، وفى مطلبها لا تطلب ما لنفسها ، وفى أعصابها لا تحتد ، وفى أفكارها لا تظن السوء ، وفى أحزانها تحزن بالإثم ، وفى أفراحها تفرح بالحق . فهى تحتمل كل شىء وتصدق كل شىء وترجو كل شىءوتصبرعلى كل شىء فهى لا تسقط أبداً ، وهى أعظم من الإيمان والرجاء ، وتكوِّن معهما مثلثا خالداً ثابتاً[٣٦] .

(٤) ومن المحبة يتقدم بولس خطوة أخرى نحو فهم طبيعة الجماعة المسيحية ، فهى تتكون من أفراد ذوى مواهب ووظائف مختلفة لكنهم بالمحبة يصيرون جسداً واحداً ، وهكذا يعتبر بولس أن الجماعة المسيحية أو الكنيسة ، ليست مجرد مجتمع عادى يرتبط معاً لهدف محدود ، ولكنها **وحدة عضوية** يشعر فيها كل فرد بوحدته فيها وأهميته ومسئوليته نحو الجسد الواحد . ومن هذا المنطلق قدم النصائح للأفراد وللجماعة ، فيقول لأعضاء كنيسة رومية : « وادّين بعضكم بعضا بالمحبة الأخوية » (رو ١٢ : ١٠) وألّا يفكروا فى نفوسهم أعلى مما هم أو « لا يغالى فى تقدير نفسه . بل أن يتعقل فى تقديرها ، على مقدار ما قسم الله له من الإيمان » (رو ١٢ : ٣ الترجمة العربية الجديدة) ويقول : « كونوا متفقين . لا تتكبروا بل اتضعوا . ولا تحسبوا أنفسكم حكماء » (رو ١٢ : ١٦) « افرحوا مع الفرحين ، وابكوا مع الباكين » (رو ١٢ : ١٥) .

وبهذا الروح يجب أن يرى المسيحى اختلافه مع غيره فى الموهب الروحية ، فينادى أهل كورنثوس الذين كانوا جماعات متشاحنة مع بعضهم البعض أن يكونوا جميعا متفقين فى الرأى وأن لا يكون بينهم خلاف بل يكونوا على وفاق تام لهم روح واحد وفكر واحد (١ كو ١ : ١٠) لأنهم فى غيرتهم وانقساماتهم يتصرفون لا كروحانيين بل كجسديين (١ كو ٣ : ١ و ٣) ومصدر المتاعب هو الكبرياء والافتخار بأنفسهم أو بمن ينتمون إليهم من قيادات (١ كو ٣ : ٢١) .

كان بولس يفكر فى هذه الموضوعات ، ونصب عينيه جماعة المؤمنين فى الكنيسة ، أعضاء الجسد الواحد – ولعل مشغوليته بحالة الكنيسة الداخلية جعلته لا يشير كثيراً إلى مشكلات المجتمع الأكبر خارج الكنيسة . إلا أنه بين حين وآخر يشير إشارات عابرة إلى علاقة المسيحيين بمن هم خارج الكنيسة فيقول لأهل رومية : « سالموا جميع الناس إن أمكن على قدر طاقتكم » (رو ١٢ : ١٨) ولعله يشير بذلك إلى الجماعات الوثنية خارج الكنيسة .

وربما كان اتجاه بولس المحافظ تجاه المؤسسات الاجتماعية ، مع أنه كان اتجاهاً حكيماً فى ضوء الظروف السائدة حينذاك – قد فتح مجالاً كبيراً للنقاش وسوء الفهم فى تاريخ الكنيسة اللاحق ، فقد تصور البعض أن بولس يقبل نظام الرقّ (الاستعباد) دون معارضة ، وينصح العبيد أن يخدموا سادتهم ويطيعوهم ، ثم ينصح السادة بحسن معاملة العبيد . ويفسر البعض هذا الموقف بأنه كان موقفا مرحليا حتى لا تتعطل رسالة المسيح لو انشغلت الكنيسة فى أول عهدها بخلاف حول هذه القضية مع المسئولين فى الدولة الرومانية ، لأن الرقّ كان جزءاً أساسياً من نظام الدولة[٣٧] .

ويهمنا أن نذكر أن المسيحية لم تشرع للعالم لكنها رسمت الطريق أمام المؤمنين ، كيف يسلكون فى ظروف وجودهم فى العالم ، ووجهت أنظارهم إلى مبادىء التحرر الداخلى الذى يقود فى وقته إلى التحرر فى مجالات الحياة المختلفة . ويظهر ذلك من رسالة الرسول بولس إلى فليمون عن العبد أنسيمس ، ومن قوله فى رسالته إلى كنيسة كورنثوس : « دعيت وأنت عبد فلا يهمك ، بل وإن استطعت أن تصير حرّاً فاستعملها بالحرى . لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب . كذلك الحر المدعو وهو عبد للمسيح . قد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس » (١ كو ٧ : ٢١ – ٢٣) . أما فى النواحى الاقتصادية ، فإن بولس لا يتحدث كثيراً ، سوى أنه يحذر من سلوك الكسالى الطفيليين ، فيوصى بأنه « إن كان أحد لا يريد ان يشتغل فلا يأكل أيضاً » (٢ تس ٣ : ١٠) . كما أنه يقول إن من يشتركون فى الخيرات الروحية ينبغى أن يشتركوا أيضاً فى العطاء السخى للفقراء وللمعلمين (رو ١٥ : ٢٧) – لكن بولس لا يتكلم كثيراً عن أخطار الغنى ، ربما لأن هذه القضية لم تكن تشكل مشكلة بالنسبة لأعضاء الكنيسة فى عهده اذ كانت الغالبية من الفقراء .

أما فى القضايا السياسية فإن بولس الرسول ينصح المسيحيين بأن يخضعوا لأصحاب السلطة ، لأن الله هو الذى أقام السلطات القائمة ، ومن يقاوم السلطة يقاوم تدبير الله (رو ١٣ : ١ – ٧) وبالنسبة للظروف التى كانت سائدة فى عصره ، كانت هذه النصيحة غاية فى الحكمة ، فقد كان بولس يدرك تماماً مزايا السلام الذى أوجدته الدولة الرومانية وفائدته

بالنسبة لإنتشار كلمة الله ، كما أنه حرص كسيّده المسيح ألا يسبب للمسيحيين الناشين متاعب نتيجة الصدام مع السلطة . إلا أن هناك من فسّروا هذا التعليم بأنه إقرار مبدأ دائم للمسيحيين ، وبذلك برّروا فكرة الطاعة المطلقة للسلطات المدنيّة .

ومن الطبيعى أن من يهتمون بموقف المسيحّى من القضايا الأخلاقية الأساسية فى المجتمع ، ومنها القضايا السياسية والإقتصادية والاجتماعية ، أن يؤسسوا دراساتهم على مبادىء المسيحية ككل ، لا على نصوص بعينها ، وعلى هذا الأساس يمكن الدخول إلى بحث هذه القضايا من باب حرّية ضمير المسيحى ، وحقوق الإنسان فى الحرية والكرامة والحياة باعتباره مخلوقاً على صورة الله ، وهذه مبادىء أساسية فى المسيحية تفتح مجالاً لمناقشة القضايا المختلفة ولا تجمدّها بسبب نصوص معيّنة فى ظروف خاصة .

(٥) ولا يمكن أن ننهى حديثنا عن الأخلاقيات عند بولس الرسول دون أن نشير إلى نظرته إلى الفرح من خلال الألم . فقد كان بولس يدرك أنه فى هذا العالم يجب أن يتألم المسيحى من أجل شهادته ؛ وقد اختبر هو شخصياً هذا الألم ، ونتيجته الروحية والأخلاقية ؛ وتحدث عن ذلك بوضوح ، ليعطى درساً لمن كتب إليهم . فقال إنه يفتخر بنعمة الله فى الشدائد « لعلمنا أن الشدّة تلد الصبر ، والصبر امتحان لنا ، والامتحان يلد الرجاء ، ورجاؤنا لا يخيب » (رو ٥ : ٣ – ٥ الترجمة العربية الجديدة) . وقال عن نفسه : « لذلك فأنا أرضى بما أحتمل من الضعف والإهانة والضيق والإضطهاد والمشقة فى سبيل المسيح ، لأنى عندما أكون ضعيفا أكون قوياً » (٢ كو ١٢ : ١٠ الترجمة العربية الجديدة) .

٥ – الفكر الأخلاق فى باقى رسائل العهد الجديد

(١) رسالة بطرس الرسول الأولى

من المرجّح أن يكون بطرس قد كتب هذه الرسالة على يد سلوانس وأرسلها إلى المسيحيين المشتّتين فى آسيا الصغرى ، وتبدو فى هذه الرسالة نفس الاتجاهات البولسية فإن الله هو الذى ولد المؤمنين ثانية ، وإن كانت حياة المؤمنين تتعرض للحزن والألم ، لكن على المؤمن أن يقابل الآلام بشجاعة وفرح (١ : ٨) – كما يغلب على هذه الرسالة أيضاً روح المقارنة بين حياة المؤمنين قبل الإيمان وبعده ، ثم يطالبهم الرسول بحياة القداسة لنفس السبب الظاهر فى باقى أسفار الكتاب المقدس ، وهو أن الله قدوس (١ : ١٦) ، ولكى يكون المؤمنون أهلاً للمقام الذى رفعهم الله إليه « كهنوت ملوكىّ ، أمة مقدسّة » (٢ : ٩) وهذا السلوك من

شأنه أن يجعل جيرانهم من الوثنيين يمجّدون الله (٢ : ١٢) .

ويقدم بطرس النصائح إلى مجموعات متباينة من الناس بشأن مختلف العلاقات الموجودة فى المجتمع ، فهو يوصى الخدام أن يخضعوا للسادة حتى القساة منهم متمثلين بالمسيح (٢ : ١٨ - ٢٢) وينصح بالخضوع لسلطة الدولة (٢ : ١٣ - ١٧) ثم يقدم نصائحه إلى النساء (٣ : ١ - ٦) والرجال عن معاملتهم للنساء (٣ : ٧) والرعاة (٥ : ١ - ٤) والأحداث (٥ : ٥) ولأن هذه الرسالة كتبت فى وقت كان المسيحيون فيه يتألمون لأجل البّر فإن الرسول يشجعهم لأن آلامهم لأجل البّر تمجد الله (٤ : ١٥ ، ١٦) - وفى خاتمة الرسالة يذكر الرسول أن لله المجد والسلطان إلى الأبد (٥ : ١١) . وهذا يؤكد يقينه أنه رغم الإضطهاد فإن الملك هو للرب ، ولذلك يجب أن نثق به ونطيعه .

(٢) رسالة يعقوب

وهذه الرسالة هى أكثر رسائل العهد الجديد تنبيراً على الأخلاق العملية ، وفيها يحذر الكاتب من عدم الثبات ، ويهاجم الكبرياء الاجتماعية التى تحابى الأغنياء . ويشير بإسهاب إلى خطايا اللسان والميول الدنيوية والكبرياء والبخل وظلم الأجراء والعمّال .

وقد اشتهرت هذه الرسالة بهجومها على فكرة الإيمان المخلّص دون الأعمال ، مما حدا بلوثر أن يطالب بحذفها من الأسفار القانونية للعهد الجديد ؛ على أن الدارس المدقّق يلاحظ أن الإيمان بالمعنى الذى يذكره يعقوب يختلف عن الإيمان بالمعنى الذى يذكره بولس فقد كان بولس يعنى بالإيمان التجاوب الشخصىّ مع نعمة الله فى المسيح ، الأمر الذى يؤدى حتماً إلى الطاعة والمحبة . والإيمان « الميّت » فى نظر بولس ليس إيمانا ، وكما يقول يعقوب إن الشياطين يؤمنون ويقشعرّون . أما المقصود بالإيمان هنا فهو مجرد الاعتقاد بالله ؛ لكن الإيمان المخلّص هو تصديق وثقة وعلاقة وتسليم . وعلى العموم فإن رسالة يعقوب تحذّر من استبدال الصلاح الشخصىّ بالتديّن الظاهرى الباطل ؛ والواقع أن مثل هذا التحذير لازم لأن كثيرين قد يستغلّون بعض تعاليم الحرية فى المسيحية ليحوّلوها إلى إباحية ، وهذا ما لايتفق مع روح المسيحية .

(٣) رسائل يوحنا

فى خلال الفترة التى عاشتها الكنيسة المسيحية الأولى ، تعرضت لأخطار متعددة ، منها الناموسية اليهودية ، ومنها عبادة الإمبراطور إذ كانت الكنيسة تحيا فى مجتمع تحكمه الدولة الرومانية ، وفى نفس الوقت تحمل المسيحية التراث اليهودى . على أن أخطر ما تعرضت له

المسيحية لم يكن من هذين الجانبين ، بل كان من « جماعة الغنوسيين » (Gnostics) . ووجه خطورة هذه الجماعة أنها كانت تخلط بعض نظريات الفلسفة اليونانية بالمسيحية ؛ وتستخدم التعبيرات المسيحية ، وتحاول « تحسين » ، المسيحية ، بينما كانت – فى الواقع – تنتزع منها أساسياتها . ذلك أنه عندما ابتدأت المسيحية تنتشر فى العالم الوثنى المتأثر بالثقافة اليونانية والشرقية ، كان موضوع الكرازة هو تجسد ابن الله لأجل البشر وموته على الصليبَ وقيامته . كان هذا ولازال موضوع كل كرازة مسيحية . لكن العالم حينذاك كان متأثراً بالفلسفات التى كانت تقول بأن المادة شرّ ، لذلك كانت فكرة تجسّد ابن الله فى نظرهم أمراً لا يمكن تصديقه ، بل ويدعو إلى السخرية . فكيف يمكن للإله أن يتخذ جسداً مادياً ؟ لقد بدا الأمر فى نظر الثقافة اليونانية كأنه خرافة أو حديث أطفال ؛ لذلك حاول بعض المفكرين الذين يدّعون المعرفة (Gnosis) أن يتركوا هذا التفكير للناس العاديين ، أما هم فقد جاهدوا ليلُبسوا المسيحية ثوباً فكرياً يتناسب مع ثقافة العصر لكى تكون أكثر تأثيراً فى الناس المتعلمين ، ولأجل هذا اتخذوا اسم « الغنوسيين » أى « أصحاب المعرفة » ، لأن اللفظ مشتق من الكلمة اليونانية «Gnosis» التى تعنى العلم والمعرفة .

ولما كانوا يعتقدون أن الروح والمادة متعارضان ، وأن المادة شرّ ، لذلك حاول بعض الغنوسيين أن يتخلصوا من الرغبات المادية بالزهد والتقشف ، وإن كان ذلك يعتبر تياراً فكرياً محدوداً عن بعض الغنوسيين فقط ، ولكن غالبيتهم قالوا إن ما يعمله الجسد لا يمكن أن يؤثر على الذات والروح ، لذلك فلا يهّم ماذا يفعل هذا الجسد ؛ فمهما فَعلَ صاحب العلم والمعرفة ، فإن روحه العارفة لا تخطىء ، لذلك قالت هذه الجماعة « إننا لم نخطىء ، لأن أرواحنا لم تخطىء مهما فعلت أجسادنا » .

ضدَّ هذا الفكر كتب يوحنا الرسول ليؤكد حقيقتين :

الأولى : أننا إذا كنا نسمح لأجسادنا بعمل الشرّ ثم قلنا إننا لم نخطىء فإننا نخدع أنفسنا ونكذب بل نجعل الله كاذباً ، ذلك لأن رسالة الإنجيل هى رسالة غفران الخطايا ، وكيف يكون هناك غفران إن لم تكن هناك خطية (راجع ١ يو ١ : ٨ – ١٠) .

والثانية : هى أننا إذا تركنا لأنفسنا الفرصة لنخطىء معتمدين على فكرة عدم تأثير خطية الجسد على أرواحنا ، فإننا نبرهن على أننا لسنا مولودين من الله ، لأن المولود من الله لا يخطىء ، وكل من يثبت فى الله لا يخطىء ، وكل من يخطىء – على الأساس السابق ذكره فى فكر الغنوسيين – لم يبصره ولا عرفه (١ يو ٣ : ٨ و ٩) .

إن كثيرين ممن يقرأون كتابات يوحنا الرسول دون معرفة هذه الخلفية يتصورون أن يوحنا

يناقض نفسه عندما يقول :

« إن قلنا إنه ليس لنا خطية نضلّ أنفسنا وليس الحق فينا .. إن قلنا إننا لم نخطىء نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا » (١ يو ١ : ٨ و ١٠) ثم يقول :

« كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعه يثبت فيه ، ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله » (١ يو ٣ : ٩)

لكننا إذا فهمنا الفكرة التى يناقشها ، زال هذا التناقض الظاهرى . إنه يرد على أولئك الذين يقولون إننا لم نخطىء لأنه لا يمكن لما يفعله الجسد أن يؤثر على ذات الإنسان الذى لديه العلم والمعرفة . ويوحنا يقول لهم إنهم يخدعون أنفسهم . ويرد أصحاب المذهب الغنوسى ويقولون : « ان استنارتنا رفعتنا إلى مستوى لا أهمية للتصرفات فيه ، لذلك يمكننى أن أخطىء بجسدى كما أشاء وأكون فى نفس الوقت مسيحياً » . ويوحنا يعارض ذلك بالقول كلا ، فإننا لا نستطيع أن نقول إننا مولودون من الله ، ومع ذلك نلقى بأنفسنا فى الخطية . إن الله بار ، « وإن علمتم أنه بار هو فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » (١ يو ٢ : ٢٩) . ثم يضيف يوحنا امتحانا آخر مع امتحان البر ، هو امتحان المحبة ، فيقول : « نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة » (١ يو ٣ : ١٤) وقد كتبت الرسالة أيضاً فى وقت الإضطهاد ، فكان من مظاهر المحبة الاستعداد للتضحية لأجل الإخوة ، سواء بالماديات أو بالحياة نفسها . لذلك « من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه » (١ يو ٣ : ١٧) « بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغى لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة » (١ يو ٣ : ١٦) .

وبالإضافة إلى إمتحان البرّ ، والمحبة ، يضيف يوحنا إمتحاناً آخر هو الاعتقاد الصحيح . لقد أنكر الغنوسيون التجسد لاعتقادهم أن المادة شرّ ، وقالوا إن يسوع الذى عاش فى الجسد يختلف عن المسيح الذى فى السماء ؛ والمسيح كائن علوى أسمى من الإنسان وأقل من الله ، وقد اختار الله شخصية يسوع « الإنسان الصالح » ونزلت روحه فيه عند المعمودية ، وتركته قبل الصليب . ولا شك أن هذا المعتقد يهدم المسيحية من أساسها ، إذ ينكر عملية الفداء الكفارى والموت النيابى ؛ لذلك يؤكد يوحنا أن « كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله ؛ وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فليس من الله » .(١ يو ٤ : ٢ و ٣) .

إن المؤمن يستطيع أن ينتصر بإيمانه على آثار التفكير الوثنى ويطرد تفكير العالم وشهواته : شهوة الجسد ، وشهوة العيون ، وتعظم المعيشة ، ويكون هذا الانتصار بالإيمان ، أى أن

الغلبة التى نغلب بها العالم هى إيماننا . (١ يو ٥ : ٤) .

« من هو الذى يغلب العالم إلا الذى يؤمن أن يسوع هو إبن الله . هذا هو الذى أتى بماء ودم ، يسوع المسيح ، لا بالماء فقط (أى عند المعمودية) بل بالماء والدم (أى أن يسوع قد اجتاز الصليب) (١ يو ٥ : ٥ و ٦) .

وتختم هذه الرسالة الأولى ليوحنا بنداء :

« أيها الأولاد احفظوا أنفسكم من الأصنام » (١ يو ٥ : ٢١) أى احفظوا أنفسكم من كل بديل زائف عن الله .

مراجـــع وهـــوامش

الباب الثانى

الأساس الكتابى للأخلاق المسيحية

(١) شرح أصول الايمان للدكتور أندرو وطسن والدكتور القس ابرهيم سعيد – دار الثقافة سؤال ٦٣ ، ٦٨ على سبيل المثال

(٢) Rudolf Otto, **The Idea of the Holy**, London & New York: Oxford University Press, 1931

(٣) George Thomas, **Christian Ethics and Moral Philosophy**, New York: Charles Scribners' Sons, 1955 ص ٧ ، ٨

(٤) المرجع السابق ص ٩

(٥) Paul Ramzy, **Basic Christian Ethics**, New York: Charles Scribners Sons, 1950 ص ٧ ، ٨

(٦) المرجع السابق ص ١٤

(٧) المرجع السابق ص ١١

(٨) Plato, The Republic, II ص ٣٥٩

(٩) Reinhold Niebuhr, **An Interpretation of Christian Ethics**, New York: Harpers, 1935 ص ٣٩

(١٠) المرجع السابق ص ٤٦

(١١) Albert Schweitzer, **The Quest of the Historical Jesus**, 1910

(١٢) ص ٢٧ – المرجع السابق George Thomas

(١٣) دكتور مصطفى محمود فى مقال « ماذا قالت لى الخلوة » مجلة صباح الخير – القاهرة ١٩٧٠

(١٤) تفسير العهد الجديد لوليم باركلى . انجيل متى – ترجمة المؤلف ١٦٩ ، ١٧٠

(١٥) Andres Nygren, **Agape and Eros**, Vol. I, New York: Westminster, 1953 ص ٩٣

(١٦) المرجع السابق ص ٤٦ George Thomas

(١٧) المرجع السابق ص ٤٦ – ٥١

(١٨) المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٤ Andres Nygren

(١٩) St. Augustine, **On Christian Doctrine**
الجزء الاول . فصول ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦

(٢٠) St. Bernard, **On the Love of God,** Newyork; Morehouse Gorham Co., 1950

(٢١) Fenelon, **Christian Perfection,** New York: Harpers, 1947

(٢٢) المرجع السابق ص . ٧٢ Nygren

(٢٣) Emile Brunner, **The Divine Imperative,** New York: Westminster
ص ١٧١

(٢٤) تفسير العهد الجديد لوليم باركلى – انجيل متى الجزء الاول ترجمة المؤلف
ص ١٠٩

(٢٥) المرجع السابق ص ٦٤ – ٦٦ George Thomas

(٢٦) المرجع السابق ص ٧٥

(٢٧) لمزيد من التفصيل انظر تفسير العهد الجديد لوليم باركلى الجزء الثانى ترجمة المؤلف شرح الاصحاح ١٩

(٢٨) H. Wheeler Robinson ed., **Record and Revelation,** Oxford: The Clarendon Press, 1938 ص ٥٩

(٢٩) المرجع السابق ص ٨٢ George Thomas

(٣٠) Sydney Cave, **The Christian Way,** James Nisbet Co., 1961

(٣١) لدراسة فكرة « البقية » يمكن الرجوع الى سفر اشعياء ٦ : ١٣ حيث يقول « وان بقى فيها عشر بعد فيعود ويصير للخراب ولكن كالبطمة والبلوطة التى وان قطعت فلها ساق يكون ساقه زرعا مقدساً » ثم اشعياء ٤ : ٢ – ٦ مع اشعياء ١١ : ١١ – ١٦ ، وقارنها بالاسم الذى أطلقه على ابنه فى اشعياء ٧ : ٣ (شآر ياشوب ومعناها بقية سترجع » ثم ميخا ٥ : ٧ ، ٨

(٣٢) Rudolf Bultman, **Theology of the New Testament,** New York: Charles Scribners, 1951, Vol. I
صفحة ٢٦١

(٣٣) المرجع السابق ص ٣٤١

(٣٤) John Knox, **Chapters in the life of Paul,** New York: Abingdon Cokesbury, 1950
ص ١٥٧

(٣٥) M.S. Enslim, **The Ethics of St. Paul,** New York: Harpers, 1930
ص ٢٦٨ – ٢٧١

(٣٦) كتاب «نشيد المحبة» للمؤلف دار الثقافة ١٩٧١
(٣٧) المرجع السابق ص ٢٠٨

M.S. Enslim

الباب الثالث

الإنسان فى المسيحية

الفصل الأول

طبيعـــة الإنســـان

يهتم كثيرون من المسيحيين بدراسة شخصية الله ، وشخصية المسيح ، وشخصية الروح القدس ، ويعتقدون أن هذه الدراسة تنير عقولهم وأفكارهم بالنسبة للحقائق الروحية اللازمة لهم فى حياتهم وسلوكهم ، لكن القليلين هم الذين يفكرون فى دراسة « الإنسان » . ويتصور البعض أن دراسة الإنسان هى من صميم اختصاص علماء الفسيولوجيا أو علماء النفس .

ويغيب عن ذهن هؤلاء ان إهمال دراسة عقيدة المسيحية عن « الإنسان » ، يجعل دراساتهم عن الله المثلث الأقانيم ، دراسة غير مرتبطة بحياتهم ، أشبه بطائر يحلق فى الجو ولا يمكنه أن يضع أقدامه على الأرض ذلك لأن الله يتعامل مع الإنسان ، من خلال جميع الحقائق الروحية الهامة كالخلاص والغفران والفداء والرجاء ، وكلها تتعلق بما يعمله الله لهذا « الإنسان » .

ونحن إذا اكتفينا بما يقوله علم الفسيولوجيا أو علم النفس أو سائر العلوم الإنسانية عن الإنسان ، نكون قد أهملنا جانباً هاماً هو إعلان الله عن هذا الإنسان ، وطبيعته وواجباته ومسئوليته . ونحن لا ندّعى أن المسيحية تقدم لنا نظريات جديدة فى علم النفس أو الفسيولوجيا عن الإنسان ، لكننا نقول إن هذه العلوم وحدها لا تعطينا الصورة الكاملة عن الإنسان .

فما هى طبيعة الإنسان ؟

هل هو ذلك المخلوق الأرضى الذى ينتمى إلى جنس الحيوان ، وتحكمه دوافع الحيوان وميوله وإن كان أرق قليلاً من الحيوانات الراقية ؟ أم هل هو ذلك المخلوق المتسامى فى فكره ، المتطلع إلى الكمال ، المشتاق إلى السموّ والرفعة والخير والفضيلة ؟

إن المفكر الأخلاقى وهو يسأل هذين السؤالين ، يبحث عن الجواب ليكون أساساً لنظرته إلى الإنسان ، وهل هى نظرة متشائمة تفقده الأمل فى تحقيق الخير والفضيلة عند البشر ، أم هى نظرة متفائلة تدفعه إلى التطلع إلى مستقبل أفضل للإنسان والبشرية .

والدارس للكتاب المقدس يجد نفسه أمام حقيقتين تبدوان متناقضتين فى هذا المجال . فالسيد المسيح يطلب من البشر أن يكونوا محبين لأعدائهم ، متغلبين على أنانيتهم . ومقياس الخير والصلاح الذى يطلبه المسيح ليس محبة الإنسان الناقصة ، بل محبة الله الكاملة . « لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات .. فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (مت ٥ : ٤٥ و ٤٨) .

إن هذا المقياس يتطلب أن تتغير أنانية الإنسان بكل مظاهرها ، وأن يتمكن الإنسان من انكار نفسه – حتى الموت – من أجل الملكوت . وما دام المسيح يطلب ذلك ، فلابد أن يكون الإنسان قادراً على الوصول إلى هذا المستوى ... وعلى الحياة فى هذا العالم كأحد « أبناء النور » لا كأبناء الظلمة ..

هذه الفكرة هى أساس مسعى الإنسان المتواصل نحو القداسة والكمال . ومع أن هذا المسعى قاد بعض الناس إلى نوع من « التزمت الساذج » ، نتيجة لخطأ تفسيرهم لمطاليب الله الحقيقية وميلهم إلى النظر إلى الظواهر الخارجية للحياة أكثر من الدوافع الداخلية ، إلا أن هذا الإنحراف فى المسعى نحو الكمال لا يقلل من أهمية السعى نحو القداسة فى حياة المؤمنين . هذا هو الاتجاه المتفائل فى النظرة إلى الإنسان المبنى على فكرة أن الإنسان يستطيع أن يسمو فى فكره وخلقه وحياته .

لكننا فى نفس الوقت نرى فى العهد الجديد نظرة أخرى إلى الإنسان تنظر اليه كما هو فعلا فى الواقع ، وهى نظرة تبدو متشائمة – ولعل أقوى من نادى بهذه الواقعية فى العهد الجديد هو بولس الرسول ، الذى يصف – فى الجزء الأول من رسالته – إلى الكنيسة فى رومية – شر الإنسان الفظيع ، وعجزه عن الوصول إلى أى عمل صالح ، حتى لو قصد بفكره وروحه أن يعمل الصلاح ، لكنه لا يستطيع ، لأنه يرى فى أعضائه ناموساً يسبيه إلى ناموس الخطية

والموت ، فيصرخ « ويحى أنا الإنسان الشقى ، من ينقذنى من جسد هذا الموت ! ! » .

ولم يكن بولس وحده هو الذى اتخذ هذا الاتجاه ، بل إن السيد المسيح نفسه أشار مرات كثيرة إلى وجود الشر إلى جوار الصلاح فى هذا العالم ، فالوالدون الذين يعطون أولادهم عطايا جيدة ، هم فى الحقيقة أشرار . وقد حذّر تلاميذه من شرور الناس واضطهادهم وتوقع الألم لنفسه ولتلاميذه بسبب هذه الشرور .

صحيح أن السيد المسيح كان يتوقع من الناس الاستجابة لندائه بالتوبة والإيمان ، لكننا عندما نتعمق فى دراسة أقواله ، نجده فى مثل الزارع (مثلا) يكشف عن وجود عوامل داخل الإنسان ، وفى قلبه تعطل كثيرين عن الاستجابة ، مثل هموم العالم وغرور الغنى وعمل الشيطان وعدم تأصل الكلمة فى ذات الإنسان .

هذا هو التناقض الظاهرى الموجود فى العهد الجديد : نظرته المثالية تفترض السموّ فى الإنسان المؤمن وتوحى بقدرته على الوصول إلى القداسة ، أما نظرته الواقعية للإنسان الطبيعى فتبدو متشائمة ، فتراه عاجزاً عريانا من كل برّ وقدرة – هذه هى المعضلة التى تواجه الكثيرين من الدارسين،فهم يجدون أنفسهم أمام ورطة فكرية :

إما أن تعاليم المسيح الأخلاقية السامية تناسب الإنسان (فى المسيح) وتتفق مع طبيعته الجديدة وبالتالى تكون قدرات الإنسان المتجدد الأخلاقية عظيمة ، وهذا يقود إلى نظرة مجيدة إلى الإنسان وعقله وصلاحه وقدراته . ولكن فى هذه الحالة ماذا نقول عن التعاليم الكتابية التى نفهم منها عجز الإنسان وخطيئته المتأصلة فيه ... **أو** إن تعاليم المسيح الأخلاقية لا تلائم حياة الإنسان لأنه بطبعه شرير ، وبالتالى لا يستطيع الإنسان أن يطبق تعاليم المسيح . وفى هذه الحالة نتساءل : فلماذا علمّ المسيح هذه التعاليم إذا كان يعلم عجز الإنسان عن تطبيقها .

إننا إذا أخذنا بالفكرة الأولى المتفائلة ، نحتفظ بالمُثُل المسيحية للأخلاق ، ونهجر النظرة الكتابية الأخرى إلى واقع الإنسان أو نحاول تعديلها أو تفسيرها بشكل أو آخر كالقول بأنها تصف الإنسان قبل التجديد أو ما شابه ذلك . وهذا ما فعله كثيرون من البروتستانت وأصحاب مذهب الكماليين الذين ينادون بقدرة الإنسان على التحرر من الخطية .

وإذا أخذنا بالفكرة الثانية المتشائمة ، أحسسنا بواقعية تعليم الكتاب عن الشر المتأصل فى البشر ، ورفضنا المثالية الأخلاقية المسيحية ، وهذا ما فعله بعض الكلبيين (Cynics) الذين لا يؤمنون بصلاح البشر ... لكننا كمسيحيين نواجه تعاليم الكتاب ودعوته إلى الكمال فتصادفنا الحيرة أحيانا وخيبة الأمل أحيانا أخرى ... هل يا ترى نستطيع أن نتخطى هذا

الموقف المتأزم ؟ هل المُثل الأخلاقية المسيحية تتلاءم مع الحقيقة الواقعية وهى أن البشر خطاة .

الواقع إن هذا الموقف المتأزم ، ناتج عن خلط المسيحيين بين النظريات الفلسفية الدنيوية عن الإنسان ، دون محاولتهم دراسة النظرة المسيحية إلى الإنسان – أو يحدث هذا الموقف نتيجة اختلاط التفكير الفلسفى مع التفكير الكتابى . لذلك يحسن أن ندرس بإيجاز النظريات المثالية والنظريات الطبيعية عن الإنسان كما هى فى الفكر الفلسفى العادى ، لكى نستطيع أن ندرك آثارها فى تفكيرنا المسيحى ، وبذلك نكتسب قدرة على المقارنة والتحليل ، تعيننا على الوصول إلى إدراك سليم للنظرة المسيحية إلى الإنسان .

١ – النظريات المثالية إلى الإنسان

لماذا لا نجد رأيا مسيحياً موحداً بالنسبة للإنسان ؟ لماذا نجد آيات هنا وأخرى هناك تؤيد هذه الحقيقة أو تلك ؟

الواقع إن الموضوع المركزى فى الكتاب المقدس ليس طبيعة الإنسان ، بل علاقة الله بالإنسان ، وتجاوبه مع عمل الله لأجله ومعه . فالكتاب المقدس مركزه الله وليس الإنسان . وقد عبّر اللاهوتيون عن ذلك بأن الكتاب المقدس « ثيوسنتريك » أى مركزه هو الله Theocentric وليس مركزه الإنسان Anthnopocentric إنه يتكلم عن دور الله فى التاريخ : تاريخ العالم والأمم والأفراد – وطبيعى أن يذكر الكتاب المقدس حوادث واختبارات فى تعامل الله مع الإنسان ، هذه الحوادث قد تكشف شيئاً من طبيعة الإنسان ، لكن هذا الإعلان يظهر فى ضوء الظروف نفسها وليس بأسلوب منهجى منسق . وهذا هو سر اختلاف الآراء المستنتجة من الكتاب المقدس عن طبيعة الإنسان . هذا فضلاً عن اختلاط النظرة المسيحية مع النظرة الإنسانية التى انتقلت من الفلسفة اليونانية إلى تراث الفكر الإنسانى وعلى الأخص من فلسفة أفلاطون وفلسفة أرسطو .

ولسنا هنا فى مجال شرح مسهب لهذه الفلسفة ، لكننا نلخصها فيما يلى :

(١) إن الإنسان يتميز عن الحيوان بالعقل ، وقدرته على استخدام العقل فى حياته وتصرفاته ، وقدرته على التجريد أى استخراج المعنويات من المحسوسات .

(٢) يمتاز الإنسان بتحرره من الإرتباط بالمحسوس فى البيئة ، لذلك فالإنسان وحده دون الحيوان ، يستطيع أن يحصل على السعادة فى التأمل والتفكير .

(٣) يمتاز الإنسان بأن باستطاعته السيطرة على سلطان الغريزة وذلك بتحكيم عقله فى إرادته .

(٤) يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه نظاماً سياسياً واجتماعياً . ويمكن تلخيص هذه النظرة المثالية إلى الإنسان فى ثلاث صفات هى :

كرامة الإنسان ، وحريته ، واستقلاليته . لذلك فإن هذا الإنسان يستطيع استغلال قدراته الفردية ، وعندما يستخدم الإنسان قدراته بأفضل أسلوب يتحقق الخير للإنسان ....[1] .

هذه النظرة الرفيعة السامية إلى الإنسان ، هى التى ألهمت القادة والمصلحين للقيام بإنجازات رائعة ومجهودات عظيمة فى العالم ، وهى أساس جميع النظريات التى تؤمن بقيمة الإنسان والتى نتج عنها تطوير المجتمع فى خدماته الطبية والثقافية والإنسانية ، وفى الثورات الفكرية والاجتماعية التى تطالب بالديمقراطية والحرية .

وهذه النظرة المثالية هى التى قادت بعض المفكرين المسيحيين إلى أن ينادوا بالإنجيل الاجتماعى وتطوير العالم الحاضر والتحرر من التشاؤم .

على أن هذه النظرة المثالية ، قد أُصيب أصحابها فى الحقبة القصيرة الماضية بصدمة كبرى ، فقد قامت فى العالم على نطاق متسع حروب مدمّرة أبرزت قدراً كبيراً من التصرفات الوحشية غير الإنسانية من الناس نحو بعضهم البعض ، واستخدمت أساليب وأسلحة مفزعة لتعذيب الناس والفتك بهم ... وظهر الإنسان فى بعض المواقف فى صورة أكثر وحشية من الوحوش نفسها ... وحتى التقدم العلمى ، الذى هو حصيلة الفكر والعقل ، حوّله الإنسان إلى تقدم فى وسائل التدمير والظلم والخسّة ... فتجسس الناس على بعضهم البعض ، اخترقوا قدسية الفرد وحريته ... أهانوا آدميته ... وفى الوقت الذى ينادى فيه المصلحون بسمو الجنس البشرى ، توجد حالات صارخة من التفرقة العنصرية . وتساءل أصحاب النظرة المثالية : هل هذا هو الإنسان السامى المثالى فى فكره وخلقه ؟

ورغم ازدياد جهود الاصلاح ، ازدادت الشرور الفردية والاجتماعية حتى ضعفت الثقة فى قدرة الإنسان على الوصول إلى حل مناسب ، واكتشف الإنسان قصور نظرته .

وإن كنا لا ننكر أن هذه النظرة المثالية ما زالت تسيطر على بعض الناس ، وتترك بصماتها على تفكيرهم واعتقاداتهم ، لكننا لا نتجاهل الحقيقة وهى أنه لم يصبح لهذه النظرة الرسوخ الكامل فى نفوس البشر الآن كما كانت فى الماضى .

ولعل السر فى ذلك هو أن هذه النظرة ركزت على الجانب العقلى والروحى فى الإنسان وأهملت الجانب الجسدى ، وبذلك لم تقدم سوى نصف الحق ، وهذه أكبر نقطة ضعف فى النظرات المثالية إلى الإنسان .

٢ - النظريات الطبيعية عن الإنسان

لا نريد أن نعدد ونسرد هذه النظريات السائدة فى بعض الدوائر العلمية والفلسفية ، لكننا نكتفى بالإشارة إلى أن الناس يتعرضون للخلط بين هذه النظريات الطبيعية ، وبين وجهة النظر المسيحية والواقعية . لكن الفرق واضح بين الاتجاهين . فكل النظريات الطبيعية تنادى بأنه لا وجود إلا للطبيعة ، وأن الإنسان جزء من هذه الطبيعة ، ولذلك فإن قوانين الحياة العادية هى التى تفسر وجود الإنسان .

وقد حاولت المادية القديمة أن تقول إن الإنسان هو تركيب طبيعى كيميائى بيولوجى فقط ، لكن هذه الآراء صارت الآن عتيقة ، ويضيف المحدثون إلى ذلك أن الإنسان حصيلة ونتاج الثقافة الاجتماعية أيضاً .

ويقول الطبيعيون المحدثون[٢] بأن طبيعة الإنسان البيولوجية الكيميائية تتطور وتتأثر بالقيم الاجتماعية والنظم الاجتماعية والسياسية ، وإن الإنسان وحده يملك القدرة على تكوين الرموز ونقل الثقافة (Culture) من جيل إلى آخر ، بينما لا تستطيع أرقى الحيوانات ذلك . ومع ذلك فالنظريات الطبيعية كلها تنكر أن الإنسان مخلوق روحى ، خلقه الله ووضع فيه روحه ليعبّر عن الله ويحقق مجده فى ظروف الزمان والمكان . إنّ الإنسان عند الطبيعيين نتيجة قوى طبيعية عمياء عشوائية وأن ما نسميه « روح » الإنسان ، ما هى إلا وظيفة من وظائف جسد الإنسان أو نفسه الحيوانية . كذلك فإن القيم الإنسانية ليست مجموعة من القيم خارجة عن الإنسان ، بل هى تعبيرات عن رغباته الذاتية ومشاعره الشخصية . والإنسان يمتلك عقلاً لأن عمليات التطور أوصلته إلى درجة الحصول على مخ معقد التركيب . وبذلك فالإنسان ليس مسئولاً أمام إله خارج الطبيعة أو فوقها ، وهو يتبع أهدافاً من اختياره هو دون أن يكون هناك هدف أو قصد أسمى وأعمّ ، وهو يحيا الفترة ما بين مولده وموته فلا رجاء له فى حياة أبدية .

وهكذا أنزلت النظريات الطبيعية الإنسان من الدرجة المثالية الرفيعة ، وجعلته جزءاً من الطبيعة . وإذا كان الإنسان يقبل هذه النظريات ، فذلك لأنه سمح لنفسه أن ينبهر بنجاح الأسلوب العلمى فى التعامل مع الطبيعة لدرجة أنه نسى محدودية هذا الأسلوب وقصوره فى التعامل مع الروح والقيم الروحية .

ذلك لأن النظريات الطبيعية تناقض كل ما يستطيع الإنسان أن يدركه عن نفسه عندما يستجيب لمداركه الفطرية عن نفسه من الداخل . وعندما يفكر الإنسان بعقله ، فإنه يتبع القوانين المنطقية (العقلية) لا القوانين الطبيعية . وفى اختبار الإنسان الدينىّ ، يجد الإنسان أنه يواجه كائنا إلهياً متسامياً يعتمد عليه فى وجوده ، ومن خلال اختباراته الأدبية يدرك أن هناك نظاماً للخير والشر خارجاً عنه ومستقلا تمام الاستقلال عن رغباته واختياراته ... وبالإيجاز ، عندما ينظر الإنسان إلى نفسه من داخلها ، يدرك أنه كائن روحى وفى نفس الوقت هو ابن الطبيعة . أما إذا ترك رؤيته تتعطل وتعتم بسبب ادعاءات أولئك الذين يؤلهون الأسلوب العلمى ، أو بتسلط الماديات على نفسه ، فحينئذ سيدخل إلى دائرة الشك .

إن النظريات المثالية – كما ذكرنا – نظرت إلى الإنسان من جانب واحد ، وتجاهلت الجانب الثانى ، هكذا نقول عن النظريات الطبيعية أيضاً ، فهى نظرت إلى الجانب الجسدى فقط للإنسان وأهملت الجانب الروحىّ .

٣ – النظرة المسيحية إلى الإنسان

إن وجهة النظر المسيحية تأخذ بالجوانب الصحيحة فى كلا الاتجاهين المثالى والطبيعى ، وتنظر إلى كل اتجاه بإعتباره يشتمل على جزء من الحق . لكنها لا تكتفى بذلك ، أو لا تحاول أن توفق بين هذه وتلك ؛ لكن عظمة المسيحية تبدو فى أنها تأخذ هذين الاتجاهين معاً كأجزاء من الحق وتضيف إليهما أبعاداً أخرى لا تصل النظريات السابقة إليها .

(١) الإنسان مخلوق

يعلمنا الكتاب المقدس أن الله خلق الإنسان . لذلك نقول عن الإنسان إنه « مخلوق » ، وبهذا نصف الإنسان بصفات يتفق فيها مع سائر المخلوقات ، لكن فى نفس الوقت لا يمنع هذ اتصافه بصفات يتميز بها عن غيره من المخلوقات .

أ – الإنسان مخلوق – وبذلك فلابد أن له خالقاً . فالإنسان لم يخلق نفسه ، بل إن وجوده

مستمد من غيره . إن وجود الإنسان ليس من ذاته ولكن من الله . (الله وحده هو الموجود بذاته) .

إن الإنسان يعتمد على الله خالقه وصانعه ، فيما هو عليه وفيما يمكن أن يكون عليه .

هذا هو الجواب الذى تقدمه المسيحية لترد على كبرياء الإنسان وغرور النظريات التى تمجد قدرة الإنسان واستقلاليته وتعتبره قادراً على كل الأمور . لا ينكر أحد أن للإنسان قدرات وقوى وملكات ومواهب ، لكنها كلها عطايا من الله الخالق .

كذلك لا نستطيع أن نتجاهل الحقيقة أن الإنسان يعتمد فى وجوده ، وتحقيق وجوده ، وسعادته على محبة ومجهود الآخرين ، ولذلك فإن إحساس الإنسان بوجوده لو كان وحيداً يختلف تماماً عن إحساسه وهو فى وسط مجتمع يتفاعل فيه مع الآخرين ويعتمد فيه الناس بعضهم على بعض .

كما أن الإنسان يعتمد على العالم الطبيعي وما يحويه من مواد ونباتات وخواص وقوانين . وكل هذه القوى والأشخاص من خليقة الله . لذلك متى تبيّن الإنسان هذه الحقيقة وأدركها إدراكاً عميقاً ، كان الاتجاه السليم الذى يجب أن يتخذه هو التواضع والشكر . فالشخص الذى يعترف ويحس بإعتماده الكامل على غيره ، لا يجد مجالاً للفخر ، ومَنْ يتبين أنه تلقى من مصدر وجوده كلَّ ما يعتز به من قدرات لابد وأن يشعر بالشكر لمصدر وجوده .

وقد حاول بعض النقاد أن ينتقدوا هذه النظرة المركّزة فى الله Theocentric وقالوا إنها تتطلب من الإنسان أن يلقى بنفسه ذليلاً خاضعاً أمام الله ، كعبد عاجز أمام سيّد مقتدر ... لكن هذا الانتقاد مردودٌ عليه ، ذلك لأن تواضعنا أمام الله وشكرنا له ، ليسا مؤسسين على مجرد اعترافنا بقدرته ، لكن أساسهما الأول هو اختبارنا لصلاحه وجوده الظاهرين فى خلقنا ، وحفظنا والبركات المعطاة لنا .

ولو أن الله أخرجنا إلى الوجود كضرورة لا إرادة له فيها كفكرة الخلق «بالفيض» أو « الانبثاق » (emanation) ففى هذه الحالة لا يكون عندنا إحساس بالشكر نحوه لأن صدورنا عن الله يكون قد حدث على سبيل الضرورة لا على سبيل الإرادة ؛ لكن المسيحيين يعتقدون أن الله لم يخلق الإنسان بدافع الضرورة ، ولكنه خلق الإنسان كعمل من أعمال حرية الله ، وأن بركاته تعطى للإنسان بدافع المحبة .

لذلك فالتواضع والشكر ليسا علامة ذِلّة الإنسان الضعيف أمام الله القوى ؛ بل اعتراف الإنسان المغمور بالمحبة ، بصلاح الله المنعم .

ب – والإنسان مخلوق بمعنى أنه **محدود** . فكل مخلوق محدود . والإنسان يحيا فى دائرة الزمن وتتسم حياته بالتغيّر وعدم الثبات كسائر المخلوقات . وإن القيم والانجازات التى يحصل عليها مهدّدة بالتقلقل وأحيانا تكون غير محققة الدوام بسبب وجود الطوارىء غير المنتظرة فى الطبيعة كالمرض والضعف والفساد والزوال ، كذلك أيامه محدودة ، ولعمره نهاية .

هذه المحدودية هى أساس الصرامة والشدّة والمآسى التى نجدها فى الحياة الإنسانية ، فالإنسان يكتشف مرات كثيرة أن انجازاته مهددة ، وأن آماله ضائعة ، وهذا سبب الحزن والشعور بعدم الكمال فى انجازات الحياة البشرية .

ولقد قادت هذه الحقيقة بعض العقول الحساسة ، تنظر إلى ظواهر الأمور وليس من خلال الله إلى شعور بالتشاؤم ، وكتب الجامعة يقول « باطل الأباطيل الكل باطل ولا منفعة تحت الشمس » – كذلك كتب وعلّم بوذا وكثيرون من المتشائمين .

لكن هذه الحقيقة نفسها زرعت فى نفوس نوع آخر من الناس رجاء الخلود لتحقيق ما فشل البشر فى تحقيقه على هذه الأرض من سعادة كاملة وخير وفير .

ولذلك كان من أهداف الأشواق الدينية ، الخلاص من الخسارة والفشل والإحباط التى نشعر بها فى وجودنا الأرضى الزمنى .

والإنسان **محدود فى قدراته العقلية** . فهو كمخلوق لا يمكن أن يكون كامل المعرفة ومعلوماته محدودة تتأثر بعوامل الخطأ ، ومن المستحيل على الإنسان أن يصل إلى الحق المطلق أى الذى لا يقبل المناقشة . هذه الحقيقة تجعل العاقل من البشر يتبين أنه لا يجب أن يكون هناك مكان للتعصب والكبرياء العقلية فى حياته ، وأن محدودية قدراته العقلية ، تجعله متسامحا فكرياً معترفاً دائماً بإمكانية وقوعه فى أخطاء فكرية .

والإنسان **محدود فى قدرته الأخلاقية** لذلك فهو لن يصل إلى الكمال المطلق ، لذلك يكتفى الناس فى هذا المسعى بالأخلاق التقليدية المألوفة المتعارف عليها ، وهى ليست أخلاقاً مطلقة بل نسبية .

والإنسان محدود فى حجمه وقوته ، لذلك فهو يدعم قوته المحدودة بالقوة الطبيعية الموجودة فى العالم كالحرارة والبحار وسائر أنواع الطاقة ، وبقوة غيره من البشر وسائر المخلوقات الأخرى ، ولا يستطيع الإنسان ، حتى بعد أن غزا الفضاء ، ووصل إلى القمر ، أن يدّعى أن له قدرة غير محدودة ، فستظل قوته محدودة فى الكثير من المجالات . التى يمكن أن تخطر على فكره وتجيش فى صدره .

وقد كان هذا اعتراف البشر فى كل حقب التاريخ ، فالفراعنة لم يستطيعوا أن يتغلبوا على ما يفسده الزمن ببناء الأهرامات ، والأباطرة لم يتغلبوا على محدودية قدرتهم رغم أنهم حكموا الملايين من الناس والجنود .

وإن اعتراف الإنسان بقصر حياته ، وضعف قوته ، يسبب آلاماً متنوعة للإنسان الذى يشتاق إلى القوة والدوام واستمرار النجاح .

وتختلف نظرة المسيحية عن نظرة الديانات الأخرى إلى الألم الناتج عن محدودية الإنسان .

ففى الديانات الهندوكية والبوذية يترك الاحساس بالتغيير وعدم الدوام سحابة مظلمة على حياة البشر ، لذلك فالخلاص فى هذه الديانات هو إنما فى التحرر من هذه الدائرة اللانهائية من الألم عن طريق الاستنارة الفكرية ، أو فى قتل الرغبة فى الإنسان .

أما المسيحية واليهودية ، فإنهما تعترفان بحقيقة الألم ، ولكنهما لا تعتبرانه شراً فى النهاية . لقد تدرب الناس على أن الألم يمكن أن يُحتَمل ، وأننا اذ نخدم الله دون رغبة فى مجازاة أو تجنب الألم ، نستطيع أن نعبر بذلك عن خلاصنا وولائنا وثباتنا ؛ وأننا يمكن أن نتألم لأجل الآخرين ، وأن الآلام لها فوائد متنوعة تنعكس على الشخصية التى تنظر إلى الألم نظرة صحيحة ، لذلك فالمسيحية لا تتوقع افناء الرغبة أو الغاء العالم . والعدو الأكبر للإنسان ليس هو الألم ، بل الخطية .

إن الكتاب المقدس لا يتجاهل الألم ، الناتج عن محدودية الإنسان بل يعترف به ، ويقول المرنم : « لا تتكلموا ... على ابن آدم .. تخرج روحه فيعود إلى ترابه » (مز ١٤٦ : ٣ و ٤) ، « الإنسان مثل العشب أيامه ... » (مز ١٠٣ : ١٥) لكن مع الإيمان بصلاح الله ورحمته يصير الألم شيئاً ثانوياً ، ونتغلب عليه بالثقة والرجاء بصلاح الله ورحمته فكاتب المزمور ١٠٣ بعد أن يتحدث عن زوال حياة الإنسان وضعفها يقول : « أما رحمة الرب فالى الدهر والأبد على خائفيه وعدله على بنى البنين » (مز ١٠٣ : ١٧) .

جـ — الإنسان مخلوق . وهذا يعنى أن هناك خطة وهدفاً لحياته . ومعنى ذلك أن طبيعة الإنسان ووظائفه فى الحياة ، أساساً صالحة ، وأن لحياته **معنى** وفى قصة الخليقة نرى أن الله نظر إلى خليقته فإذا ما عمله حسن ، وحسن جداً. إن الله الصالح لابد أن يخلق خليقة صالحة لها هدف يجب أن يتحقق . ولكن حتى بعد السقوط وفساد الخليقة رتب الله منذ البدء فداءً كاملاً للإنسان وللخليقة معه .

هذا هو أساس التفاؤل المسيحى والنظرة المتفائلة إلى العالم . فهذا الكون ليس تحرك طاقات عمياء وبلا هدف كما يقول الطبيعيون ، بل هذا الكون مجال للوصول إلى غايات وقيم معينة .

ولعلنا ندرك ذلك عندما نقارن المسيحية بمذهب الغنوسيين الذين اعتقدوا أن العالم وليد قوة شريرة فهؤلاء لهم العذر إذا تصوروا أن الماديات شر وغير صالحة . لكن المسيحية تؤمن بأن العالم خليقة إله صالح ، فلابد أن يكون صالحاً . وكل جزء من طبيعة الإنسان ، الجسد كما العقل كما الروح صالح . هذا يجعل من المستحيل أن ننسب الشر فى الإنسان إلى الجسد المادى ورغباته ، وهكذا ننظر إلى الإنسان نظرة مزدوجة .

إن جسد الإنسان أداةٌ لحياة الروح ، وهيكل للرب ، ويجب لهذا الاعتبار أن نكرم الجسد ونهتم به . وهكذا نجد أن لكل جانب من طبيعة الإنسان قيمة ، والإنسان يحيا حياته فى عالم صديق وليس فى عالم معاد له .

إن الإنسان كمخلوق يؤكد عدم كماله ، ومحدوديته فى وجوده وقدرته الجسدية والعقلية والخلقية ، وأنه يعتمد على الله ، وهذا الاعتقاد يشجع الإنسان على الثقة بالله وسط آلامه ولا ينسى أن لحياته قيمةً ومعنى فى هذا العالم .

٢ - الإنسان على صورة الله

الحقيقة الثانية فى عقيدة المسيحية فى الإنسان هى أن الإنسان ممتاز بين الخلائق . والتعبير الكتابى الذى يعبر عن هذا الإمتياز هو أن الله خلق الإنسان على صورته كشبهه وسلطه على كل الخليقة (تك ١ : ٢٧ و ٢٨) .

ويظهر أثر هذه الفكرة فى التفكير العبرى حيث يقول المرنم : « إذا أرى سماواتك عمل أصابعك ، القمر والنجوم التى كوّنتها ، فمن هو الإنسان حتى تذكره ، وابن آدم حتى تفتقده ، وتنقصه قليلاً عن الملائكة ، وبمجد وبهاء تكلله . تسلّطه على أعمال يديك . جعلت كلَّ شيء تحت قدميه » (مز ٨ : ٣ - ٦) .

فهو يقارن بين الإنسان وبين النجوم والسموات وعظمتها ، ويبين كيف أن الإنسان يلى الله مباشرة فى التسلطه على خليقته .

ما هو أساس هذه النظرة السامية إلى الإنسان ؟ إن الأساس ليس هو سمو طبيعة الإنسان ، بل **علاقته الخاصة بالله** الذى خلقه على صورته وبذلك تميّز الإنسان عن كل المخلوقات .

إن الصورة لا قيمة لها فى ذاتها ، ولكن وجودها ومقامها يرجعان إلى أصلها . وهذا هو الفرق الجوهرى بين النظرة البشرية فى الفلسفة اليونانية إلى الإنسان وكرامته وقيمته ، وبين النظرة المسيحية الكتابية .

إن قيمة الإنسان فى الفلسفة اليونانية ترجع إلى قدراته وإمكاناته ، لكن الكتاب يجعل هذه القيمة فى تشابه الإنسان مع الله أى فى قيمة الإنسان من حيث علاقته بالله .

فلنتأمل فى شىء من الإسهاب فى هذا المعنى :

(أ) إن الإنسان يعكس طبيعة الله . فكما أن صورة الشىء فى الماء أو المرآة هى انعكاس للشىء ، هكذا يعكس الإنسان – إلى حد ما – طبيعة الله – وهكذا يستجيب الإنسان فى عمله للمبادأة والدعوة اللتين بدأ بهما الله صانعه . وهذا ليس تحقيراً للإنسان ، أو إنكاراً لكرامته ، كما يتصور بعض المفكرين ، لأن الله بخلقه الإنسان على صورته أعطى الإنسان وحده القدرة على أن يتجاوب بحرية ووعى مع مشيئته ، وهكذا جعل الإنسان وحده كائنا مسئولاً عن عمل الله الخلّاق والفدائى الذى يعطى معنىً لكل الوجود . ولأن الإنسان خُلِق على صورة الله ، فهو يستطيع أن يكون ابنا لله .

وإذا أردنا أن نعرّف ونصف طبيعة الإنسان ، فإن ذلك لابد أن يكون بالإشارة إلى علاقة هذه الطبيعة بصورة الله ، وليس بمجرد تحليل طبيعة الإنسان بعيداً عن هذه العلاقة . هذا لا يعنى أن الإنسان ليس له طبيعة ذاتية .. كلا ... فبالرغم من أن صفات الإنسان وقدراته تعتمد على علاقته بالله ، لكنها فى نفس الوقت موجودة كطبيعة ذاتية يمتلكها الإنسان متميزة عن طبيعة الخالق ولكنها تستمد تعريفها وقيمتها من الأصل (مع قصور كل التشبيهات عن تصوير الحقيقة) .

فما هى هذه الطبيعة ؟

ربما فسّر الناس فى البداية فى سذاجة تفكيرهم خلق الإنسان على صورة الله تفسيراً بدائياً فتصوروا الجسم الإنسانى ووظائفه ، لكن فى الفكر اليهودى المتقدم وفى المسيحية ، رأوا فى التعبير « على صورة الله » اشارة إلى القدرات الروحية للإنسان كشخص .

وقد عرّف توما الأكوينى القدرات الروحية بأنها العقل ، وكان فى هذا واقعا تحت تأثير الفلسفة اليونانية ، لكن الواقع أنها شىء أكبر من ذلك . إن هذه القدرات الروحية ليست مجرد القدرة على الفكر وتجريد المعانى ، بل قدرة الإنسان كشخص روحى على أن يستجيب

لصوت الله بالطاعة له ، فالإنسان فى علاقته بالله ، كشخص يخاطب آخر أو كما يسميها اللاهوتيون « أنا » مقابل « أنت » («Thou» «I») هذه الاستجابة تتضمن سماع صوت الله ، وفهمه ، ومحبته ، وطاعته ، وهكذا نرى أن العقل أو الفهم يدخل فى هذه الطبيعة ، لكنها أكثر من مجرد الفهم . ذلك لأن القدرة على الفهم وحدها يمكن أن تنحرف وتصير أداة للشر لا للخير إذا لم تصحبها **إرادة** مستعدة أن **تطيع** . لذلك فالتجاوب المطلوب هو **الطاعة** فى **المحبة** . عندما يتجاوب الإنسان هكذا مع الله ، يُظْهر بوضوح صورة الله فيه .

وسنرى فيما بعد ، أن الخطية تشوّه أو تفسد صورة الله فى الإنسان ، لكنها لا تنزعها منه ، إذ تظلّ القدرة على التجاوب موجودة فى الإنسان ، ويظلّ كائناً مسئولاً ، ولكنه لا يعبّر عن صورة الله بوضوح ، لأنه يكون متمركزاً فى ذاته وليس فى الله . لهذا ينبّر العهد الجديد على ضرر التغيّر عن شكلنا لنكون متناسقين أو مشابهين صورة المسيح الذى هو صورة الله غير المنظور (كولوسى ١ : ١٥) فبالإيمان به والاتحاد معه كصورة الله تعود العلاقة الصحيحة بين الإنسان والله . وهذا يعنى **أن صورة الله الأدبية تظل كامنة فى الإنسان بصورة مشوشة بالرغم من خطيته ، لكنها تظهر بوضوح عندما يؤمن بالمسيح ويتشبه به** .

ولقد عبّر العبرانيون عن الجانب المتفتح لله فى الإنسان والذى من خلاله يعمل روح الله فى الإنسان بالتعبير « روح » ، واعتقدوا أن الله عندما يوحى إلى الأنبياء بكلمته ، يوجهها بروحه إلى أرواحهم . أما فى العهد الجديد فإن فاعلية روح الله تتعدى مجرد الأعمال الخارقة كالوحى إلى مظاهر الحياة المسيحية العادية كالمحبة والفرح والسلام وطول الأناة والوداعة والتعفف الخ ... ولأن العهد الجديد يركز على فاعلية روح الله فى حياة الإنسان ، فإننا لا نجد اشارات كثيرة إلى روح الإنسان فى العهد الجديد ، وعلى أى حال ، فإن روح الإنسان فى مفهوم العهد الجديد تختلف عن روح الإنسان فى مفهوم الفلسفة اليونانية ، ذلك لأن فلاسفة اليونان كانوا يتصورون أن روح الإنسان شىء منفصل عن الجسد ومعارض له . وقد تأثرت الكنيسة المسيحية فى تاريخها الأول بهذا الفكر ، وهذا ما شجع الناس على الزهد والتقشف والامتناع عن الزواج والجنس واحتقار العالم والماديات ، واعتبار أن رغبات الإنسان الحسيّة أو الجسدية ، تنتمى إلى عالم الحيوان ويجب قهرها ...

على أن هذه ليست الفكرة السائدة فى الكتاب المقدس ، فهو يؤكد وحدة شخصية الإنسان ، ولعل بعض تعبيرات العهد القديم تشير إلى ذلك عندما يستخدم بعض وظائف الروح وينسبها إلى بعض أعضاء الجسد مثل تفكير الإنسان فى قلبه . وعندما انكشف أمام اليهود الاعتقاد بحياة أخرى للأبرار فى المستقبل ، كان لهذه الحياة صورة قيامة الأجساد وليس

مجرد خلود الروح . وفى الأناجيل لا يُوجد هذا التفريق والفصل الكامل بين الجسد والروح ، ولذلك فلم ينادِ المسيح بالتقشف ، بل اهتم بالجسد والروح معاً ... وإذا كانت هناك اتجاهات إزدواجية فى تعليم السيد المسيح ، فلم تكن تفريقاً بين الجسد والروح ، لكنها كانت تفريقا بين العالم الحاضر والعالم الآتى ، بين الله والعالم (المال) ، بين الكنوز السماوية والكنوز الأرضية ، وهى بذلك تكون تفرقة دينية وأخلاقية ، وليست بين الجسد والروح .

ولعل بولس الرسول هو الذى قدَّم ما يوحى بإزدواجية الإنسان عندما تحدث عن « الجسد » و « الروح » ، وأن « الروح يشتهى ضد الجسد ، والجسد ضد الروح » ، ولكن علماء الكتاب المقدس – فى الشرح والتفسير – يرون أن ما يقصده بولس هو تفريق دينى وأخلاق أيضاً . فهو عندما يتحدث عن الجسد الذى يشتهى ضد الروح لا يقصد الجسد بمعنى هذا الجسم المادى بأعضائه ، ولكنه يشير إلى جميع **اتجاهات** الإنسان ، جسدية وروحية ، بمعزل عن الله ، بدليل أنه ذكر من أعمال الجسد الخصام والسحر وعبادة الأوثان والعداوة والغيرة والسخط والتحزب والشقاق والحسد ، وهى كلها خطايا « روحية » بالإضافة إلى الزنا والنجاسة والقتل والسكر وهى الخطايا المرتبطة بالجسد . (غل ٥ : ١٧ – ٢١) .

إن ما يقصده بولس الرسول بكلمة « الجسد » هو الذات الإنسانية كلها التى أفسدها حب النفس . وما يقصده بولس بكلمة « الروح » هو الذات الإنسانية المتصلة بالله .

إذا لم تكن الروح هى عقل الإنسان فقط ، وإذا كانت الروح ليست معارضة للجسد – المادى – أو منفصلة عنه ، فما هى الروح اذاً ؟

إنها طاقة الإنسان القادرة (الإنسان) على أن يسمو به فوق المحسوس باتصالها بالله ، وبالتكريس للحقيقة والخير .

ولكى نوضح هذا التعبير الغامض المركّز نقول : إن الإنسان محدود ، لكنه يشتاق إلى غير المحدود . إنه ناقص لكنه يتوق إلى الكمال . إنه معرّض للضعف والخطأ لكنه يتجه بحنينه إلى الخير المطلق والحق المطلق .

ولقد عبّر أفلاطون عن هذا التناقض الظاهرى فى تشبيه تمثيلى عن أصل المحبة الروحية . فقال إن المحبة ولدت من أبوين مختلفين تمام الاختلاف . وهما الفقر الغنى . وبإعتبار المحبة بنت الفقر فإنها دائما تشعر بالحاجة والنقص . وباعتبار المحبة بنت الغنى فهى تعرف الخير الذى ينقصها وتفتقده وتبحث عنه دائماً .

أما الرأى الكتابى عن المحبة فهى ليست أشواقاً لخير غير شخصى (أى فكرة الخير) يملأ حاجة النفس ، بل هى تجاوب مع الله كخالق وفاد . وهكذا فهم أفلاطون الحياة الروحية وعبّر عنها بتعبيرات بشرية ، فاعتبر أن الحياة الروحية هى محاولة الإنسان أن يرفع نفسه فوق محدوديته بل محدودياته وبينها محدودية الزمن ، ليشترك فى الكائن الأزلى والخير المطلق . أما المعنى الكتابى للحياة الروحية ، فهو مركزٌ فى الله ، فهى حياة المحبة والطاعة النابعة من محبة الله السابقة للإنسان .

ومن الممتع والمفيد أن نتأمل بشيء من التوضيح فكرة النشاط الروحى فى حياة الإنسان ، فإن مثل هذا التأمل يفتح أمامنا آفاقا رائعة لندرك مقدار روعة هذا النشاط الخلاق فى حياة الإنسان ، ومن خلال هذا التأمل نعرف الكثير عن القدرة الروحية التى أودعها الله فى الإنسان .

إن الإنسان عندما يسعى سعيا مستمراً نحو التكريس للحقيقة والخير فوق المحسوس ، فإن هذا يتضمن التكريس أو الولاء للقيم المطلقة (Absolute Values) . وهذا التعبير « القيم المطلقة » مفهوم وواضح عند دارسى الفلسفة . القيمة المطلقة هى القيمة أو الحقيقة التى لا تتعلق قيمتها بغيرها أو برغبة الإنسان أو شعوره ، ولكنها تتطلب من الإنسان الولاء والتكريس غير المشروط .

فمثلاً الحق أو الصدق قيمة مطلقة لأننا نريده مهما كانت الظروف ومهما كانت نتيجته . ويجب أن يكون الإنسان صادقاً حتى وإن كانت نتيجة الصدق مؤلمة ومُرّة وتتعارض مع رغباتنا ، لذلك نقول إن الحق قيمة مطلقة . أما القيمة النسبية فهى التى تتغير بتغير الظروف والأحوال ، فبتر إصبع شخص كوسيلة من وسائل التعذيب أو الانتقام شر ولا شك ، لكن بتر نفس الإصبع إذا كان مصابا بمرض يعرض الجسد كله للخطر ، يكون خيراً بلا منازع .

والحياة الأخلاقية قيمة مطلقة ، وذلك عندما نمارسها لا بسبب السعادة الشخصية ولا الجزاء الاجتماعى ، ولكن لأننا نعتقد أن ذلك هو الصواب . ولقد كانت شكوى الشيطان ضد أيوب – فى قصة أيوب الخالدة – إن محبة أيوب لله وتقواه ليست قيمة مطلقة بل نسبية ، وأن أيوب يتقى الله لأن الله أعطاه الثروة والأبناء والصحة ، ولكن أيوب أثبت بصبره وتماسكه عند التجربة أن ولاءه لله كان قيمة مطلقة ، فقد اتقى الرب رغم كل التجارب .

وليست المسيحية وحدها هى التى تنادى بالقيم المطلقة ، فإن الفكر الأخلاقى الإنسانى ينادى أيضاً بها ، ولكن هناك اختلافا بين النظرة المسيحية إلى القيم المطلقة والنظرة الإنسانية فالنظرة الإنسانية تتصور هذه القيم مُثُلاً عليا غير شخصية يطلب الإنسان الوصول إليها

وإرضاءها لذاتها . أما النظرة المسيحية فترى أن هذه الُمثُل العليا مرتبطة بشخصية الله ، وولاء المسيحى هو لشخص الله ، ولذلك فهو يكرس نفسه للقيم المطلقة ، لأنها من طبيعة الله ، وفى نفس الوقت فإن المسيحى يفهم هذه القيم المطلقة من خلال شخصية الله والتزاماته أمام الله ، لذلك فهو ينظر أيضاً إلى هذه القيم المطلقة من حيث علاقتها بحاجات الآخرين . هذه النظرة المسيحية تعطى للحياة المسيحية جانبها الخلّاق المرن ، وتسمو بها عن الجمود الذى تتصف به الفلسفات الأخلاقية الإنسانية .

نأتى الآن إلى النشاط الروحى فى حياة الإنسان ، ولا نقصد بذلك خدماته الدينية ، وأصوامه وصدقاته وعظاته ومساعدته للغير ، ولكننا نقصد هنا الحركة الروحية فى حياة الإنسان داخلياً . فهذا هو الأساس الأصيل . إنه عن طريق هذه القدرات الروحية الممنوحة للإنسان كشخص روحى ، يستطيع الإنسان أن يسمو أو يرتفع بذاته وبالطبيعة وبالزمن ... أو بمعنى آخر يستطيع أن يتخطى محدوديته ويتفوق على ذاته ، ونحن عندما نستخدم هذه التعبيرات لا نفكر فيها ميكانيكيا أو حتى اجتماعيا وسيكلوجيا ، لكننا نفكر فيها روحيا :

(١) فالإنسان الروحى يستطيع ، بقدراته الروحية ، أن يسمو فوق طبيعته الساقطة (يو ١ : ١٣ ، إرميا ١٣ : ٢٣) وان تتغير صورته (رو ١٢ : ٢) ، ذلك لأن الحياة الروحية ليست راكدة لكنها خلّاقة دائماً تصبو إلى الارتفاع إلى أعلى مستوى ممكن . فيكتشف الإنسان من خلال نشاط روحه الداخلى أنه توجد قيم لم يتدرب على تقديرها ، فيجد فى التدرب عليها مجالاً للرفعة والسمو ، ويشعر أن طبيعته ليست جامدة ثابتة ، بل خلّاقة متحركة دائماً . من الواضح أنه لن يصل إلى الكمال المطلق لأنه مخلوق وليس خالقا ، لكنه دائماً يتجاوز ما يعرفه ويسعى إلى ما لا يعرفه ... ويبحث عن الخير الذى لم يصل إليه .

(٢) وفى هذا النشاط الذى تتغير فيه حياة الإنسان يغيّر الإنسان من الجو المحيط به ويسمو به . إن شخصية الإنسان لا يمكن تفسيرها بتغييرات بيولوجية فقط أو بمعنى آخر لا يمكن تفسيرها تفسيراً طبيعياً فقط ، وهذا وجه الخلاف بين النظرية المسيحية والنظريات الطبيعية . فشخصية الإنسان شخصية روحية ، والقيم المطلقة للحياة الروحية مثل الحق والعدل والمحبة ، تختلف عن القيم البيولوجية مثل الصحة والبقاء . وتحقيق القيم الروحية لا يتم بقواعد بيولوجية بل بقواعد روحيه. فمثلا السعى نحو الحق تحكمه معايير منطقية مثل الأمانة للحقيقة والثبات على الحق Consistency (عدم اختلاط المعايير عند التفكير) والتفهم الصحيح .

ومسعى الإرادة نحو الخير تحكمه قواعد أخلاقية تختلف عن القواعد الطبيعية ، ذلك لأن القواعد الطبيعية تصف لنا ما هو كائن فينا بينما القواعد الأخلاقية توضح لنا ما ينبغي أن يكون فينا ، لا ما نحن عليه . ويمكننا أن ندرك كيف تختلف القوانين الطبيعية عن القوانين الأخلاقية ، عندما نرى أحياناً خلافاً وصراعاً بينهما ، وعندما يحدث هذا الصراع فإن الروح قد توقف الرغبات البيولوجية عند حدّها أو تقمعها أو تنكرها لكى تظهر القيم الروحية المتميزة عنها ، فمثلاً لا يخلو سلوك صالح من قمع لغريزة الجنس ، وأحياناً يضطر الإنسان إلى التضحية بالحياة نفسها وهى قمة الرغبة البيولوجية ، فى سبيل قيمة يراها أعظم وأهم كالإيمان أو الوطن مثلاً .

(٣) وسمو روح الإنسان على الطبيعة يتضمن أيضاً السمو **بالزمن** – ان بعض الحيوانات يمكنها أن تتعلم من اختبار الحاضر لفترة قليلة وإلى حد محدود (مثل تدريب القرد والقط الخ) ولكن الإنسان يستطيع أن يحتفظ فى ذاكرته بكنوز اختباراته الماضية يستعيدها من الذاكرة فتؤثر فى حياته ، بل إنه يستفيد من خبرات الأجداد المسجلّة فى سجلات وآثار ، ويستنتج من الآثار حقائق كثيرة يستفيد بها فى حياته . كما أن الإنسان يستطيع أن يستعرض اختبارات الماضى ، ويضع تخطيطاً للمستقبل ، وهذه الخطط تؤثر على حياته الحاضرة ، وربما تؤثر على حياة كثيرين فى حياته هو ، وبعد موته .

هذا التسامى بالزمن والإفادة من الماضى ، والتخطيط للمستقبل يغيّر من حاضر الإنسان ، فهو لا يختبر الحاضر كوحدة مستقلة من الزمن discrete بل كنقطة انتقال فى عملية اختبار مستمرة . وهكذا نجد الماضى والحاضر والمستقبل ترتبط معاً فى حياة الإنسان ، فمع أن الإنسان مخلوق زمنى ، ومعرّض للتغير والزوال – وهى صفات كل زمّنى وسيواجه الموت ، لكنه يستطيع أن يُثْرِى وجوده الزمنى بمعنى أوسع من الزمن ، وهكذا يربط نفسه بالأبدية .

٣ – الانسان كفرد فى مجتمع

مع أن الكتاب المقدس يظهر لنا « الروح » أساساً كقدرة الإنسان على التجاوب مع الله ، لكنه لا يتجاهل أن الإنسان مخلوق[٣] . وبإعتبار الإنسان أحد المخلوقات فإنه ينتمى إلى الطبيعة ، حتى إن كانت شخصيته الروحية تسمو به وبالطبيعة وبالزمن .

ويقول اللاهوتى الشهير رينهولد نيبور : « إن الإنسان يقف فى مفترق الطرق بين الطبيعة (Nature) والروح أو بين الطبيعة والروحانية وهكذا فإنه متورط فى كل من الحرية

والضرورة »[٤] والمعنى المقصود هو أن الإنسان بإعتباره شخصية روحية لديه قدرة وإمكانية نتيجة للحرية التى له ؛ وبإعتباره جزءاً من الطبيعة فإنه محكوم بقواعد معينة ونواميس ثابتة .

هذه الحقيقة واضحة فى كل مظهر من مظاهر وجوده ، فمثلا الإنسان مخلوق ذكراً وأنثى ، والفروق فى الجنس هى أساس التزاوج بالضرورة ، لكن الإنسان لديه من الحرية ما يجعل علاقاته الجنسية تختلف عن الحيوانات الأخرى .

هذا الموقع الذى يقع فيه الإنسان ، وكونه فى « حلقة الاتصال » بين الطبيعة والروح ، يوضح لنا الحقيقة المزدوجة عنه : أنه **فرد** ، وأنه يحيا فى مجتمع **مع آخرين** . والإنسان كمخلوق هو فرد ، فهو بذاته ليس فرداً آخر ، لكن هذه الفردية التى تميزه عن الآخرين تعتبر أكثر أهمية بالنسبة له ، بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى لأنه كائن روحىّ[٥] .

ذلك لأننا كلما ارتقينا فى سلم الوجود ، ازدادت أهمية الفردية ، لأنه كلما إزدادت مجالات الحرية للإنسان ، تشكلت شخصيته بشكل خاص يميزه عن الآخرين . فمثلاً نحن نستطيع أن نميّز الواحد عن الآخر من البشر المثقفين ليس فقط بشكلهم الطبيعى وملامح وجوههم وطولهم وقصرهم ، لكن شخصياتهم ترتبط فى أذهاننا بالطباع والخبرات والثقافة والمهارات والهوايات ، وهكذا نرى الناس يختلفون اختلافات كثيرة فيما بينهم ، بينما لا نستطيع أن نجد هذه الاختلافات الكثيرة فى القطط أو القرود . والناس البدائيون فى الغابات متقاربون نوعا ، لأن مجال الحرية عندهم أقل .

والمسيحية تؤكد على **تميّز** الفرد . يقول اللاهوتى « برونر » : إن الله لم يخلق البشرية ، بل خلق كل فرد على حدته « دعوتك باسمك » ، وهو يعرف كل فرد شخصياً . لذلك فأنت فرد لا يمكن استبدالك بآخر ، ولك مكان محدد عند الله .

لأجل هذا تعارض المسيحية النظم التى تهمل الفرد ، وتجعل المجموع يبتلعه ، سواء كانت نظماً يمينية أم يسارية ، أو مثالية يضيع فيها الإنسان فى الروح الأكبر العظيم (كالهندوكية) أو طبيعية يضيع الفرد فيها فى الطبيعة الأم ، ذلك لأن هذه النظم كلها تجعل الفرد مجرد وسيلة لتحقيق غايات المجموع الكبير .

وفى نفس الوقت ، الإنسان – ككائن روحى – هو **فرد مسئول** . إن مسئوليته أمام الله تتطلب مسئوليته أمام الآخرين ، ذلك لأنه مرتبط بالوحدة القريبة مع الآخرين . إن فردية الإنسان ليست كفردية الذرة التى ليس لها سوى إرتباط ظاهرى مع الذرات الأخرى ، لذلك فإذا أصرَّ الإنسان على استقلاليته التامة عن الآخرين ، فإنه لا يتخلى فقط عن مسئوليته تجاههم ، لكنه يناقض طبيعته ذاتها .

وفى المسيحية لا توجد استقلالية عن الآخرين لأن الإنسان مخلوق له علاقة مع الغير . وعند خلق الإنسان يقول الكتاب « ذكراً وأنثى خلقهم » بصيغة الجمع لا المثنى ليؤكد أن الله يريد أن يكون الإنسان جزءاً من مجتمع . ومن الناحية العملية الواقعية ، الإنسان محدود فى قدراته ويعتمد على الغير فى تحقيق حاجاته ولا يستطيع أن يحيا دون مجتمع .

وأساس المجتمع عادة علاقة القرابة والاتفاق فى أسلوب معين للثقافة والحياة . ففى المدن اليونانية القديمة (وكانت كل مدينة أشبه بدولة قائمة بذاتها مثل أثينا وأسبرطة وغيرهما) كانت العلاقات الطبيعية (القرابة) تقوى بولاء الجميع للنظام الاجتماعى وللقيم الحضارية للجماعة . إن مثل هذه المجتمعات تعتبر مجتمعات **مغلقة** لأن مسئولية الفرد فيها محدودة بأعضاء الجماعة التى ينتمى اليها ... لكن الإنسان يستطيع أن يخلق مجتمعا ليس مؤسساً على علاقات قرابة طبيعية أو وحدة ثقافية ، بل على أسس روحية . فإنه مدعو للدخول إلى مجتمع يتكون من جميع الذين قبلوا ملكوت الله . وأساس العضوية فى هذا المجتمع هو الإيمان ، ورباط الوحدة فى هذا المجتمع هو المحبة – محبة القريب (ومعنى القريب هنا معروف ووضحه السيد المسيح فى مثل السامرى الصالح) .

وبينما تعتمد المجتمعات المغلقة على علاقة القرابة أو وحدة الثقافة أو الحضارة أو القيم المشتركة ليرتبط أفراد هذه المجتمعات معاً ، فإن المحبة ضرورية لتخلق مجتمعا عالمياً أى يشمل العالم كله . وكلما اتسع هذا المجتمع العالمى ، فإنه سيحد من ولاء الإنسان للمجتمعات المغلقة التى هو عضو فيها ويمنع الإنسان من أن ينظر إلى هذه المجتمعات المغلقة كشىء مطلق يتطلب الولاء الكامل غير المشروط ...

وهكذا ترفع عقيدة المسيحية من قيمة الفرد ، وترفض أن يبتلعه أى مجتمع ما . وفى نفس الوقت تصرّ المسيحية ، على أن يكون الإنسان مسئولاً عن غيره من الناس ، وأن يجاهد نحو تكوين مجتمع عالمى مؤسس على المحبة للجميع ، وأن يحد من ولائه للمجتمعات المحدودة المغلقة ، لكى يتفتح قلب الإنسان للإنسانية كلها ، فتظهر فى حياة الإنسان المحبة المسيحية بمعناها الشامل فى محبة الله كما تظهر فى محبة الغير .

الفصل الثانى

الإنســـــان خاطــىء

١ - طبيعة الإنسان المزدوجة

عرفنا مما سبق أن الإنسان - حسب الفكر الكتابى - مخلوق محدود فى طبيعته ، لكنه فى نفس الوقت مخلوق روحى ممتاز عن سائر الخلائق لأنه خُلِق على صورة الله . وقد أوضحنا أن هذه العقيدة تشتمل على جانب من النظرة المثالية إلى الإنسان وجانب من النظرة الطبيعية ، لكنها تتجنب الانحطاط الذى أوصلت النظرة الطبيعية الإنسان اليه ، والغرور الذى أوصلت النظريات المثالية الإنسان اليه .

وربما كان الفيلسوف الحديث (باسكال) Pascal من أكثر الناس الذين عبّروا عن النظرة المسيحية الثاقبة إلى هذه الطبيعة المزدوجة للإنسان . ولقد كان باسكال عالماً ورياضياً بارعاً ، فاحترم العقل ، ورفض أسلوب الشك الذى أوجده الفيلسوف مونتانى Montaigne وأكد قدرة العقل والحواس على معرفة العالم الطبيعى ، لكنه فى نفس الوقت رأى خطورة التمادى فى الاعتماد على العقل فى إدراك الأمور الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) مثل جوهر المادة ، العقل ، الله الخ .. ورأى أن مثل هذه المحاولات تشجع الغرور العقلى الذى لا يتناسب مع الإنسان

كمخلوق محدود ، ولكنه فى نفس الوقت نادى بكرامة الإنسان وقال إن الإنسان (قبس من الفكر) « قصبة مفكرة » «Thinking Reed» أمام الفضاء اللانهائى وقوى الطبيعة الجبارة ، لكنه كان دائماً يذكّر الإنسان بمحدودية تفكيره وقصوره .

وقد قال باسكال إن الإنسان فى موقع متوسط بين الملاك والوحش أو الحيوان . فإذا تصوّر نفسه ملاكاً فإنه يقع فى شَرَك الكبرياء فيصير قاسياً كالوحش ويتصرف مثله ، وفى نفس الوقت إذا لم ير فى نفسه الا صورة الحيوان ، فإنه يسقط فريسة الشك واليأس وخيبة الأمل . لذلك يجب عليه أن يتجنب التطرف فى أىٍّ من هذين الاتجاهين ، فيؤكد **عظمته وبؤسه** فى نفس الوقت[٦] .

والإنسان محدود ليس فقط فى قدراته الجسدية والعقلية ، لكن فى امكانياته الأخلاقية أيضاً ، ذلك لأنه كمخلوق عاقل كان ينبغى أن يدرك القانون الأخلاقى العام أو الناموس الطبيعى ، لكنه يجد أحكامه الأخلاقية وتقديراته مشوّهة بالتحيز والأنانية ، ومتأثرة بالظروف التى يحياها فى دائرة الزمان والمكان . فمثلا يجب إقامة العدالة فى المجتمع على أساس أن يكون الحق فوق القوة ، والقوة فى خدمة العدل والحق ، لكن الواقع الذى يصدمنا مراراً وتكراراً أننا نجد العدل مؤسساً على القوة ، والحق يخدم القوة . وهكذا نرى الإنسان محدوداً فى إدراكه ؛ وإرادته معرضة للفساد ، فالخطر كل الخطر أن يعمى إحساسه بالكرامة والامتياز ، عينيه عن أن يعترف بشقائه وبؤسه وحاجته إلى العون من الله . إن معرفته « للنظام المادى » و« النظام العقلى » يجب أن تدعَّم بالإيمان فى نظام آخر أسماه « نظام المحبة » ، وهو النظام الذى يسمو على كل النظم ، وبذلك تتغير إرادته بالنعمة الإلهية .

وهذا يقودنا إلى جانب هام من عقيدة المسيحية فى الإنسان ، وهو النظرة إلى الإنسان بإعتباره خاطئاً . إن شقاء الإنسان الذى يتحدث عنه باسكال لا يرجع إلى محدودية قوى الإنسان الجسدية والعقلية فحسب ، لكنه يرجع إلى أن الإنسان بسبب الخطية يناقض طبيعته العليا وهدفه ككائن روحى . هذا التناقض يسبّب الانقسام والنشاز فى طبيعة الإنسان ، وكنتيجة لذلك يشعر أنه عاجز عن الانتصار على استفزازات الشر ، وعن اتباع أشواق روحه . هذا هو السبب الذى لأجله تنادى المسيحية بعجز الإنسان عن أن يخلص نفسه وحاجته إلى الفداء بالمسيح . وأى افتراض آخر غير افتراض خطية الإنسان ، يجعل الإنجيل بلا معنى ، لأن الإنجيل هو الخبر السار عن رحمة الله وغفرانه الموجه إلى الخطاة . فالإنجيل يقدم بركات الحياة فى ملكوت الله لمن يتوبون عن خطاياهم ويطلبون تغيير حياتهم ، ويصلون طالبين نعمة الله لتقويّهم .

ولقد صادفت فكرة الخطية والفداء وجهات نظر متباينة خلال عصور تاريخ الفكر المسيحى ، بعضها غالى فى تثبيتها وقال إن الإنسان ورث الخطية من أبوينا الأولين آدم وحواء ، وبذلك ألغيت وانمحت من الإنسان صورة الله تماما ، وأصبح كل إنسان يولد وهو يحمل عبء الخطية الثقيل . وأصبح الإنسان فى حالة ، « عجز كلّى » بلا صلاح على الإطلاق ، ولا امكانية لأن يخرج أى عمل صالح من الإنسان ...

هذه المبالغة فى وصم الإنسان بالخطية ، صادفت اتجاهاً مغايراً فى عهد احياء العلوم فى مستهل العصر الحديث ، فابتدأ بعض المفكرين يصرّون على كرامة الإنسان ويقللون من شأن طبيعته الخاطئة . ولكن لم يستطع هؤلاء أن ينكروا الشرور الواقعية التى تأتى من داخل الإنسان وخارجه ، لكنهم عزوها إلى قلة إدراكه ، أو إلى فساد المؤسسات والنظم الاجتماعية ، أو إلى دوافعه الحيوانية ، بدلاً من أن يعترفوا بأن نفس الإنسان فيها شر جذرى . وقد حاول هؤلاء الدعوة إلى اصلاح المجتمع عن طريق الخدمة الاجتماعية ونشر العدالة ورفع المظالم الاجتماعية ، وتثقيف وتدريب وتهذيب الأجيال الناشئة . وهكذا حاول هؤلاء تحويل الإنجيل إلى شىء يختلف تمام الاختلاف عن الفداء الإلهى فى المسيح . والبعض هجروا المسيحية تماماً ، وآخرون استبعدوا منها كل نزعة تشاؤمية عن الإنسان الساقط ، وأصبح الإنجيل بالنسبة لكثيرين مجرد تعاليم عن أبوة الله ، وقيمة النفس الإنسانية ، وحياة المحبة ... وهكذا ابتدأ الناس يتصرفون كمن أسكرتهم نشوة التقدم العلمى والانجازات الإنسانية ، فصاروا يحلمون بعالم سعيد فيه كمال السعادة للإنسان ، وابتعدوا عن عقيدة المسيحية فى خطية الإنسان وحاجته إلى الفداء .

وطبيعى أن يؤكد الواقع صحة وجهة النظر المسيحية فى فساد طبيعة الإنسان ، إلا أن الإنسان الخاطىء لم يفقد صورة الله نهائياً – كما يقول المتطرفون من المحافظين – ولكن هذه الصورة تشوهت ، مع بقاء القدرة على التجاوب مع الله كامنة فى الإنسان ، وإن كانت الخطية قد ألقت عليها ظلالها الكثيفة . لكننا لا نستطيع أن ننكر عمومية الخطية .

٢ – عمومية الخطية :

فى حديث الناس العادى ، ونظرتهم الطبيعية إلى البشر ، يصفون إنساناً ما بأنه « صالح » أو « طيب » ، وآخر بأنه « شرير » ... وعادة يقارن الناس بين إنسان وآخر ، فيقولون « فلان أفضل من فلان » « وزيد أشرّ من عمرو » . وعادةً يرضى الناس عن نفوسهم وعن ذويهم باقناع نفوسهم بأنهم أفضل من غيرهم ... هذا الأسلوب من المقارنة بين الناس ، هو

السرّ فى تقسيم الناس إلى أبرياء ومذنبين ، أو صالحين وأشرار ... بل ان هذا الأسلوب يشجع الناس على أن يحاولوا تبرير أخطائهم بأن يجدوا لها كبش فداء يلقون عليه أوزار ضعفاتهم وأخطائهم ليظلوا فى حالة الرضى عن النفس ، وتبرير ذواتهم .

هذا الأسلوب يتنافى مع فكرة الكتاب المقدس عن عمومية الخطية . والشواهد الكثيرة الكتابية تؤكد هذه الحقيقة .

« الرب من السماء أشرف على البشر لينظر هل من فاهم طالب الله . الكل قد زاغوا معاً . فسدوا . ليس من يعمل صلاحاً . ليس ولا واحد » (مز ١٤ : ٢ و ٣) .

وهكذا يقول الرسول بولس فى رومية (٣ : ٩) : « لأننا قد شكونا أن اليهود واليونانيين أجمعين تحت الخطية » .

وفى رسالة رومية يضع الرسول بولس إصبعه على أحد أساليب البشر فى اعتبار أنفسهم أبراراً ، فمثلا يتطلع اليهود بفخر روحى إلى الناموس ، ويقولون إن ناموس موسى أُعلن لهم هم فقط ، وما دام لهم الناموس ، وهم يقبلونه شريعة لهم ، ويتصورون أنهم أفضل من غيرهم وأن هذا يبررهم ، بينما هم لا يطبقّون تعاليم الناموس فى حياتهم ، فيوضح لهم الرسول بولس أن المهم ليس الاعتراف بالناموس ، بل طاعة الناموس . « لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله بل الذين يعملون بالناموس هم يبررون » (رو ٢ : ١٣) .

ولعل نفس الأسلوب موجود فى أعماق تفكير كثيرين من المنتسبين إلى الدين فى هذه الأيام ، فإنهم يفتخرون بما لهم من شريعة ، ويقارنونها بغيرها من الشرائع ، ويفتخرون بها ، ويحاولون أن يبرزوا المُثل العليا التى يؤمنون بها ... كمحاولة لتبرير أنفسهم من الخطية .

بينما لو تأملنا فى الأمر ملياً ، لوجدنا أن أولئك الذين تسمو مُثلهم العليا ، ويدركون الشريعة بسموها الفائق ، هم الذين ينبغى أن يشعروا بخطيتهم أكثر من الذين لا يدركون أبعاد الشريعة . وعندما وصف الرسول بولس محاولته الفاشلة ليطيع الناموس ، عبّر عن هذه الحقيقة بقوله : « بل لم أعرف الخطية إلا بالناموس . فإننى لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته . ولكن الخطية وهى متخذة فرصة بالوصية أنشأت فىَّ كل شهوة » (رومية ٧ : ٧ و ٨) .

وذلك لأن الشهوة أو الرغبة خطية يمكن أن نخبئها عن الغير ، وعند بعض الناس لا تعتبر الرغبة خطية على الإطلاق ، فهى مجال للإرتقاء والطموح والتنافس مع الغير . لكن الذين

لديهم الشِريعة - شريعة الله الكاملة ، التي تكشف أعماق النفس الإنسانية -استطاعوا أن يدركوا بالشريعة أن الرغبة خطية ، حتى لو لم تتحول إلى عمل ، وفى مقياس الله يجب أن تكون الرغبة صالحة كالأعمال تماماً إذا أردنا أن نوفى مطاليب الإله البار ... وبذلك نكتشف أن الشهوة علامة واضحة لمحبة الذات ، مثل القتل والسرقة تماما ، رغم أنه لا يُعبَّر عنها بأسلوب خارجىّ . لذلك فالمفروض أن من لديه الشريعة يكتشف أنه خاطىء أكثر ممن ليست لديه الشريعة ...

ولنأخذ جانباً إيجابياً ، فنتأمل فى الوصية القائلة : « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » (مرقس ١٢ : ٣٠) .

إن هذه الوصية تتطلب ولاءً كاملاً وتكريساً تاماً يندر أن نجده ، فإن أغلب الناس يرضون بمحبة الله من نصف القلب ، وحتى لو قالوا إنهم يحبونه من كل القلب ، فإن أفعالهم فى مختلف الظروف ، تكشف هبوطهم الكثير عن هذا المستوى ... وكلما ارتقى الإنسان فى إدراكه لمطاليب الله ، كلما أحس ببعده الكبير عن المقياس المطلوب ، لذلك فالشخص الذى نعتبره قديساً ، إذا كان قديساً بحق - له علاقة قوية بالله وشركة متينة معه - يكون أكثر إدراكاً لعجزة وقصوره عن تطبيق وصية المحبة الكاملة والولاء المطلق ، من الشخص العادى الذى لم يتعمق فى معرفة الله . ومع أنه فى نظر الناس أفضل كثيراً من غيره ، لكنه هو يرى نفسه خاطئاً أمام الله . ذلك لأنه إذا كان مقياس الخير والصلاح هو محبة الله الكاملة ، فمن يجرؤ أن يدعىّ أنه ليس خاطئاً ؟

لذلك علينا أن نكفّ عن عمل مقارنات مع غيرنا من الناس ، سواء علنا أم سراً فى نفوسنا ، ولننظر إلى نفوسنا فى ضوء مطاليب الله الكاملة ، لا فى ضوء الصلاح التقليدى النسبى الذى اصطلح عليه الناس ، وفى هذه الحالة سندرك صدق كلام السيد المسيح : « ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله » (مت ١٩ : ١٧ ، لو ١٨ : ١٩) .

٣ - طبيعة الخطية الجذرية :

الخطية متأصلة فى الإنسان فهى تؤثر فى شخصية الإنسان من أصولها أو أعماقها . وليست المشكلة مجرد أعمال شريرة أو تعد على القانون الأخلاقى أو حتى عادات شريرة ، فلو كان الأمر كذلك لأمكن للناس معالجتها بطريقة أو أخرى ، فكل إنسان يستطيع أن يمتنع عن عمل ما بشيء من التدريب والإرادة ، وحتى العادات المتأصلة يمكن اقتلاعها ... ولو كانت الخطية كسراً عارضاً لناموس الأخلاق ، لأمكن التغلب عليها .

لكن الخطية تختلف عن هذا ، فهى ليست شيئاً عارضاً أو ظاهرياً فى حياة الإنسان . إنها **حالة فى النفس ، بل وحالة متأصلة** فى النفس ، وكل أفعال الخطية التى يعملها الإنسان إنما هى مظاهر للخطية الكامنة – لذلك فإذا عالجنا مظهراً من مظاهرها ، – وتصورنا أننا تغلبنا على الخطية ، نجد مظهراً آخر من مظاهرها يبرز إلى حيّز الوجود .

وعلى سبيل المثال قد يستطيع فرد ما أن ينتصر على خطية جسدية تكون مسيطرة عليه كالسُكْر أو الشهوة أو الغضب ؛ ويبذل فى ذلك جهداً كبيراً وتدريباً عنيفاً ليصل إلى حالة من الاعتدال وضبط النفس والاتزان ... لكنه قد يكتشف أن جذور خطية أخرى ابتدأت تنمو إذ يجد نفسه قاسياً جامداً جافاً مع الآخرين ، يحتقرهم ويدينهم ويتعالى عليهم .

وقد يكون إنسان ما أنانيا طماعا ، فيحاول أن يتغلب على طمعه ويدرّب نفسه على أعمال الخير والتضحية من أجل الآخرين ، وفعلا ينجح فى هذا الأمر ، وإذا به يجد نفسه يصاب بالرغبة فى التسلط على الغير بسبب أعماله الخيرية ، وقد يصاب بداء الفخر بما يعمل ، أو الحساسية الناتجة عن شعوره بعدم تقدير الناس لما يعمله ، وهذه خطية أيضاً لأنها مبالغة فى الأنانية وحب الذات .

وقد يحاول إنسان ما أن يكون شفوقا على الخطاة فلا يدينهم ليتغلب على خطية الكراهية ودينونة الآخرين ، فتنمو فى حياته بذور الميوعة ومهادنة الشر والرضا بالمستوى الأدنى من الحياة ؛ وفى نفس الوقت عندما يحاول أن يكون حساساً ضد الرذيلة ، كارها لها ، يجد أن حياته اتسمت بالخشونة والفظاظة والبر الذاتى ...

إن الخطية حالة فى النفس متأصلة فى أعماقها . وهذا ما يميز النظرة المسيحية عن غيرها من النظريات فمثلا قال سقراط إن الرذيلة هى الجهل ، فكأن الخطية نقص فى المعرفة ، أى أن الإنسان عندما يرتكب خطية ما يتصور أنه يعمل صلاحا لأنه لا يعرف الصلاح الحقيقى ... لكن الواقع يؤكد لنا أن الإنسان أحياناً كثيرة يعرف الصالح ولا يعمله ... أو يعرف أن هناك شيئاً أفضل وأسمى ، ولكنه يختار الأقل صلاحا ويفضله على الصلاح الأسمى ، فيحب الأشياء الوقتية مثلا ويفضلها على محبة المعرفة والحق .

وكما أن الخطية ليست نقصاً فى المعرفة ، فهى أيضاً ليست زيادةً فى الشهوة أو الرغبة . وان كان صحيحاً أن الرغبة أو الشهوة قد تحرك الإرادة لعمل الشر ، وتتغلب على العقل رغم معرفته وإدراكه للخطية ، لأنه من غير الممكن أن يتغلب العقل والإرادة على الشهوة فلا يندفع الإنسان نحو الخطية .

والدليل على أن الخطية متأصلة فى الإنسان أنها تجعل الذات تنقسم على نفسها ، فيكون فى الذات الإنسانية الواحدة جانب من الإرادة تصبو إلى الحق والخير ، وجانب آخر يبدو كقوة معادية فى داخل الإنسان تسيطر عليها الخطية . وقد صوّر الرسول بولس فى رسالة رومية هذا الانقسام والصراع الذى ينتج عن تأصل الخطية فى نفس الإنسان بقوله :

« لأنى لست أعرف ما أنا أفعله ، إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل ... فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فىَّ ... لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد ... » (رو ٧ : ١٥ و ١٧ و ١٨) .

إن بولس يكتب هذه العبارات من وجهة نظر إرادته التى تتطلع إلى الحق والخير والصلاح .. هذا ما يجعل الخطية تبدو شيئاً غريباً « ما أبغضه فإياه أفعل » ... والمأساة هى أن « ما أبغضه » من وجهة نظر الإرادة الخيّرة ، هو « ما أريده » من جهة الإرادة الأخرى التى تطلب الخطية ... وليس معنى هذا أن يكون للإنسان إرادتان ، ولكن كما قال القديس أوغسطينوس : « إنها إرادة واحدة ، لكنها بسبب الخطية المتأصلة فى الإنسان ., تطلب الخير بجزء من قواها ، وفى نفس الوقت تطلب الأقل من الخير بالجزء الآخر » .

إن الخطية جذرية لأنها تمنع النفس من أن تعمل ما تراه فعلاً بأنه أفضل ، لأنها تفسد وظائف الذات **وتمسخ** القلب فلا يحب الخير الأسمى أو على الأقل يحبه حباً منقسماً غير كامل ، وينشغل بقيم أخرى زائفة أو سريعة الزوال .

كذلك تسيطر الخطية على **الخيال والتصور** فلا تتصور النفس الحقيقة المطلقة والخير الأسمى . وتمتلىء النفس بتصورات حسّية أو لذات وقتية .

والعقل نفسه لا ينشغل بسبب الخطية بالأمور الروحية بل ينشغل بالأمور الوقتية المحدودة بالزمان والمكان ، ويصبح العقل وسيلة يبرر بها الإنسان نفسه ويتلمس الحجج التى تبرره إذ يحاول إرضاء رغباته الذاتية الشخصية أو الرغبات الأنانية للجماعة التى ينتمى إليها[٧] .

وحتى الرغبات والشهوات الطبيعية تفسدها الخطية ، فتجعل الرغبة الطبيعية فى الحياة ، تتحول إلى الرغبة فى السلطة والسيادة ؛ والرغبة فى استمرار النوع الظاهرة فى الدافع الجنسى ، تتحول إلى الرغبة فى استغلال الآخرين للمتعة .

هذه الطبيعة الجذرية للخطية هى التى أوحت إلى اللاهوتيين القدماء بالتعبير : « عجز الإنسان الكلى » ، لكنه وإن كان عجزاً فى الفعل ، لكنه ليس عجزاً فى الامكانية ، أى أن صورة الله لم تنمح من الإنسان لكنها طمست وشُوِّهت[٨] . ويشبه اللاهوتى رينهولد ينبور

الحالة بالعين التى تفقد البصر ، إنها تصير معطلة ، لكن العين كعضو فى الجسم لم تنتزع منه(٩) . إن طبيعة الإنسان الأساسية كصورة الله موجودة ، لكن الخطية بسيادتها على النفس تدخل إليها ما يشوهها ، فتفسد انجازات الإنسان وأشواقه وتعطله عن رؤية الأهداف الفاضلة .

٤ - طبيعة الخطية :

ما هى طبيعة هذا الشر العام المتأصل فى الذات الإنسانية ؟ هل نستطيع أن نجد تعريفاً للخطية ؟

إنها حالة النفس عندما تبتعد عن الله وتغترب عنه . أو بمعنى آخر إنها تمزيق العلاقة السليمة بين الإنسان والله . هذه العلاقة هى أن الإنسان مخلوق يقرّ بمسئوليته أمام خالقه ، وبأنه صورة تعبّر عن الله فى كل ما يعمل أو يكون عليه .

وقد سبق ورأينا أن الإنسان مخلوق محدود يجب أن يكون اتجاهه نحو الله هو التواضع والاعتماد الشاكر عليه والثقة به وبمحبته وجوده . وطالما يحتفظ الإنسان بهذا الاتجاه ، فإنه يكون فى اتساق مع الله ومع العالم ومع غيره من الناس ، ومع نفسه . ذلك لأنه مخلوق محدود يحتاج أن يُكمِّل بالاتحاد مع خالقه غير المحدود . إنه كائن ناقص يحتاج أن يحصل على الكمال بالتشبه بالله فى بره وصلاحه ، وهو كائن زائل ، محدد بزمن ، يحتاج إلى قوة الله الأبدى ومحبته فى وجوده المهدد بالزوال .

لكن الإنسان إذا هجر ثقته بالله ، تنفصم هذه العلاقة السليمة بخالقه وأبيه-السماوى فيرفض الاعتراف باعتماده على عناية الله وحاجته إلى أن يعكس كمال الله فى حياته ، ويحاول أن يفصل نفسه عن الله ، ويحيا مستقلا عنه ، وبتعبير آخر يجعل نفسه بدلاً من الله مركزاً لحياته .

الخطية إذاً هى **محبة الذات بدلاً من محبة الله** . وكل الخطايا المتنوعة هى تعبير عن محبة الذات هذه . ويصف أوغسطينوس الخطية بأنها التحول من محبة الله إلى محبة الذات باعتبارها الخير الأسمى للإنسان .

ما الذى يجعل هذا التحوّل خطية ؟

إن طبيعة الإنسان هى أنه يستمد وجوده من خالقه ويعتمد عليه فى العناية والحفظ . وهو

إذ صُنع على صورة الله ، فإن غايته التى خُلِق لها هى أن يكون ابنا لله متجاوبا مع محبته وخادما لمشيئته . لذلك فالتحوّل بعيداً عن الله إلى الذات ، هو إنكارٌ لمسئولية الإنسان أمام الله واعتماده عليه . وهكذا يتصرف الإنسان معتمداً على نفسه فقط ، ومسئولاً أمام نفسه فقط ، وهكذا يجعل من نفسه (عاصيا) وثائراً ضد ربّه ، ويجعل من نفسه سيداً لنفسه ... هذا العمل ليس مجرد جحود وإنكار لمحبة الله ، ولكنه إنكار لطبيعة الإنسان نفسه . وهذا يذكرنا – ولا شك – بما جاء فى سفر التكوين عن السقوط ، فعندما أراد الإنسان أن يتخلص من مسئوليته أمام الله ، وأراد أن يكون كالله ، سَقط وفسدت طبيعته .

٥ – الدوافع إلى الخطية :

إننا نجد التساؤل عن سبب الخطية يحتل مكانه فى تفكير البشر على مدى تاريخ الفكر الإنسانى ، وطبيعى أن يتساءل الإنسان عن سبب هذه الحالة المأسوية من اغتراب الإنسان عن الله وعن محبته ، ويريد أن يعرف مصدر الخطية . والحقيقة أننا إذا فهمنا لفظ « سبب » بالمعنى المتداول وهو أن شيئاً ما أو حادثاً ما يتسبب بالضرورة فى وقوع حادث آخر ، فإننا لا نجد فى الواقع سبباً للخطية بهذا المعنى ، لأن الخطية لم تأت بالضرورة نتيجة حتمية لشىء ما ، فإنها كما أوضحنا « حالة فى الذات » – ولو أردنا أن نتتبع سبب هذه الحالة وننسبها إلى عامل معين **خارج** الذات الإنسانية ، فكأننا بذلك ننكر مسئولية الإنسان عن الخطية ... فلو قلنا على سبيل المثال إن الشيطان بتجربته وغوايته للإنسان هو سبب الخطية ، فإن هذا القول يتضمن أن إرادة الإنسان لم تكن لها الحرية والقدرة على أن تقاوم هذه التجربة وترفضها . وانتفاء الحرية معناه انتفاء أو ضياع المبدأ الأخلاقى من أساسه[١٠] ...

لذلك اتجه كثيرون من المفكرين إلى محاولة تعليل الخطية بسبب **داخل** الذات الإنسانية لا خارجها ... وفى هذا المجال كثر الجدل بين الباحثين ، إلى أى جانب من الذات الإنسانية يمكن أن ننسب حالة الخطية ، هل هو العقل المفترض أنه يتحكم فى أفعال الإنسان ؟ أم هى الإرادة التى تقوم بتحقيق العمل نفسه ؟ أم هو الوجدان أو الرغبات والشهوات التى تدفع الإنسان نحو عمل معيّن ؟ لسنا نريد أن نحمل القارىء إلى متاهات هذا الجدل الشاسعة ، ولكننا نذكر فقط أن القديس توما الأكوينى نسب الخطية إلى الإرادة فهى التى تحقق الفعل الخاطىء ، والعقل يشاركها فى ذلك بعدم ضبطه لها ، فالإرادة والعقل هما السبب المباشر ، أما الرغبة فهى السبب البعيد أو المختفى وراء هذين – أما القديس أوغسطينوس فيرى أنه ما دامت الخطية حالةً فى النفس ، تنتج عنها الأفعال الشريرة ، فإنها فى الأصل عمل من أعمال الإرادة الحرّة ، فالذات الإنسانية إذ رفضت الولاء لله باعتباره الخير الأسمى واتجهت نحو نفسها ، أصبحت فى حالة الخطية .

وقد تكون هذه الإجابات غير مقبولة لدى الفكر العلمى الكلاسيكى الذى يحاول أن يجد سببا لكل علّة خارجاً عنها ، لكن هذه الإجابات تتفق مع واقع الاختبار الإنسانى .

وربما يكون من الأصح أن لا نحاول الاجتهاد والجدل فى البحث عن سبب للخطية سواء خارج الذات الإنسانية أو داخلها ، فالإنسان كائن حرّ وبذلك فهو معرّض لأن يسقط فى الخطية بإرادته الحرّة ... صحيح إن هناك تجارب أو دوافع تحرضه على الخطية . لكن هذه الدوافع أو التجارب ليست فى ذاتها خطية ، ويمكنه مقاومتها .. لكنه إذا رضخ لها وضعفت مقاومته أمامها ، أصبح فى حال أقرب إلى اختيار الخطية منه إلى الانتصار على تجربتها ... ويتضح هذا من الاشارة إلى بعض هذه التجارب أو الدوافع إلى الخطية :

(١) أول هذه التجارب **الرغبات الطبيعية أو الشهوات الطبيعية للنفس** . هذه الرغبات تصوّر أهدافها وتلّونها فى شكل خير ظاهر . ولا نستطيع أن نقول إن هذه الرغبات شرّ فى ذاتها ، أو إنها سبب الشرّ ، لكن انصياع الإنسان لها فى ظروف معينة هو الذى يقود إلى الخطية . وسنرى أيضاً أن التجارب ليست منفصلة بعضها عن بعض ، لكنها متداخلة بعضها مع بعض ، الأمر الذى يزيد من « فرصة » الوقوع فى الخطية .

(٢) ثانى هذه التجارب تأتى من **المنظمات الاجتماعية وأساليب السلوك المألوفة** – فلقد تبين للمفكرين المسيحيين المحدثين – أكثر من أى وقت مضى – أن الفرد ليس مستقلاً عن ثقافة وحياة الجماعة التى يحيا فيها ، بل ان الجماعة تشكّل حياة الأفراد فيها . وفى كل جماعة توجد قوى غير شخصية للشر ، نراها متمثلة ومتجسدة فى بعض النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد والقيم السائدة . هذه القوى نراها مرتبطة بعضها ببعض ، يسند بعضها بعضا ، وهذا ما يسميه بعض اللاهوتيين « ملكوت الظلمة أو الشر »[١١] . فالطفل – مثلاً – يتأثر بالقيم الاجتماعية التى يحيا فى ظلها أكثر مما نتصور ، ويقبلها دون مناقشة ولا يشعر أنها شر لأنه لم يسمع أبداً ما يعارضها ، والنتيجة أنه منذ بداية حياته ينغمس فيها ، مثل الأخذ بالثأر – التعصب – التفرقة بسبب اللون أو الدين . الذود عن الكرامة بالسباب والغضب الخ ... وربما يسمع الطفل من والديه أو عند وجوده فى الكنيسة أن هذا العمل شر وغير مرغوب فيه ، لكن تأثير المجتمع عليه يكون أكبر بكثير[١٢] .

ومما يزيد من خضوع الإنسان لهذا التأثير ، أنه يعتبر نفسه كفرد غير مسئول عما يفعل أمام ضغط المجتمع ، وينسى أنه كمخلوق روحى يجب أن يسمو فوق ضغوط المجتمع حتى وإن كانت قدرته على هذا التسامى محدودة ، لكنه على الأقل يستطيع إلى

حد ما أن يقاوم هذه الشرور منفرداً أو مع جماعة مؤمنة مثله بضرورة هذا السمّو .

إن حرية الفرد ليست كاملة ، بل ان هناك عوامل مختلفة تحدُّها ، وفى بعض الأحيان قد لا تكون هناك حرية للفرد إلا أن يموت مفضلاً الموت على الخضوع للنظم الفاسدة التى تسود الجماعة ... لكننا يجب ألا ننسى أن هذه النظم سادت واستقرت فى الجماعة نتيجة للاختيار الحر لأفراد معينين فى تاريخ هذه الجماعة فى الماضى ، وعلى هذا الأساس فإن الإنسان مسئول عنها . وقد تتخذ بعض الحكومات – مثلاً – قرارات من شأنها أن تسبب الشقاء لمواطنيها وتجرّبهم بأنواع من الخطايا كالحروب الظالمة ، وتنمية الروح العدوانية أو المتعصبة أو المتعالية ، وهنا يقف الفرد حائراً إذ يتصور نفسه غير مسئول عن السياسة العامة فى بلاده ، ولكن هذا لا يعفيه من المسئولية لأنه ينبغى ان يكافح ويجاهد ويقوم بدوره فى المجتمع ، فربما استطاع أن يساعد فى تقويم النظام ... وهكذا نرى أن العلاقة بين المسئولية الفردية والعوامل الاجتماعية أمر معقد وأعمق من تصورنا البسيط .

(٣) وثالث نوع من التجارب تأتى **من القلق فى المواقف التى يشعر فيها الإنسان بعدم الأمان .**

يقول اللاهوتى السويسرى إميل برونر : « كل خطية إنسانية بها عنصر من الضعف فهى مشوبة بقلق الإنسان من أجل حياته ، وخوفه من أن يفقد شيئاً بطاعته لله ... ومن ثم فهى نقص فى الثقة ، وخوف من المخاطرة والاتكال على الله وحده . إنها قلق الإنسان على نفسه ، فهى ليست مجرد ثورة ضد الله ، لكنها موقف يواجه الإنسان ويجعله تائهاً حائراً يخاف أن يتخطى هوّة الحياة متكلا على الله وحده »[١٣] .

وقد توسع العلّامة المعاصر رينهولد نيبور فى توضيح طبيعة ومصدر هذا القلق ، فقال إن الإنسان بإعتباره مخلوقاً ينتمى إلى الطبيعة ويخضع لضعفها ومخاطرها باعتباره كائناً محدوداً ؛ لكنه فى نفس الوقت كائن روحى ، يستطيع أن يتسامى بالطبيعة ويستطيع أن يعقل ويتصور القوة الغير المحدودة التى يمكن أن تتغلب على الضعف ... ويتصور المعرفة الكاملة التى يمكن أن تحل كل مشكلاته ، ويعقل أو يدرك أن هناك خيراً مطلقاً يمكن أن يرفعه فوق عيوبه الأخلاقية ...

فإذا شعر بسبب محدوديته بعدم الأمان والقلق ، فإن الخطية تأتيه عندما يتصور أنه يستطيع بنفسه أن يحصل على القوة الفائقة ، وأن يعرف الحق المطلق ، أو أنه حصل على الصلاح التام ... أو بمعنى آخر عندما يحاول أن يتغلب على قلقه بالتظاهر بأنه

أقوى وأعلم وأصلح مما هو عليه فعلا . فالقلق فى حد ذاته ليس خطية ، ولكنه تجربة تقود إلى الخطية[١٤] .

ويمكن أن نقول إن الخطية ناتجة عن ضعف الإنسان لأنه كائن محدود ، ومن اساءة استعمال حريته ككائن روحى . على أن القلق نفسه قد يكون نافعاً إذا دفع الإنسان الى أن يشتاق إلى الكمال ويسعى إليه وينجز انجازات طيبة بالقدرة الخلاقة الموجودة فى كيانه ، شريطه أن يكون مرتبطا بالإيمان بالله . فالإيمان بالله باعتبار أن محبة الله هى الأمان الحقيقى والنهائى للإنسان ، هو القادر ان يعطيه الغلبة على المخاوف العارضة فى تاريخ حياة الإنسان .

وهكذا نرى أن تجربة القلق ليست ناتجة أساساً عن طبيعة الإنسان المحدودة ودوافعه الطبيعية فحسب كما يظن البعض ، ولكنها ناتجة أيضاً عن أنبل ما فى الإنسان وهو أنه مخلوق على صورة الله ، ذلك لأن هذا الجانب السامى ، والذى يتضمن قدرة الإنسان على أن يسمو بطبيعته ، قد يدفع الإنسان إلى أن يبالغ فى قدرته وعلمه وصلاحه ، فيتصور أنه وهو مخلوق على صورة الله ، يستطيع أن يستغنى بهذه الصورة عن الله نفسه .

ويمكن أن نذكر أمثلة توضح لنا كيف أن هذه التجارب الثلاث تدعم بعضها بعضا ، ويساند بعضها بعضا فى حياة الإنسان ، فتصير جزءاً من نسيج حياته ...

فمثلا نرى الإنسان يسعى لإقتناء الماديات لإرضاء رغباته الطبيعية ، وكطريق إلى السعادة ... وهذا فى حد ذاته أمر طبيعى ... لكن المجتمع الذى يحيا فيه الإنسان يقوّى فى ذاته هذه الرغبة . ويقدم له نماذج من البشر حصلوا على ما يظنه سعادة عن طريق الثروة ، ويمتدح المجتمع هؤلاء الناس ويقدّرهم ويرفعهم أمام نظره ، فإذا بالفرد يزداد طمعا فى الثروة بأية وسيلة ... وإذ يقلق لئلا تفوته الثروة ، تزداد رغبته إليها شدَّة ولهفة ، فيبحث فى طاقاته الفكرية ليجد أساليب متجددة للحصول على هذه الثروة... وهكذا يصير المال إلهاً له .

ويمكن أن نورد مثالاً آخر فى طفل نشأ فى بيئة تفتقر إلى الحنان ... وبدلاً من أن يجده فى والديه والمجتمع الصغير الذى يعيش فيه ، يجد تفرقة واضطهاداً بسبب جنسه أو لونه أو شكله أو مستواه الاجتماعى أو أى سبب آخر . عندما يكبر هذا الطفل قد يجد فرصة فى المجتمع لتعويض شعوره بالنقص ببعض النظريات الثائرة المتمردة التى ترضى شعوره بالزعامة ، أو فى سلطة ما ينتزعها ، فى العمل أو فى السياسة ... فإذا نجح فى الوصول إلى هذه السلطة وشعر أنها ترضيه وتعوض شعوره بالنقص ، فإنه يزداد تمسكاً بها مهما قادته إلى القسوة أو الكبرياء أو الظلم ، لتدعيم هذا النجاح ...

وهكذا نرى أن الدوافع للخطية ترتبط معاً فى أغلب الأحيان ، ومن السذاجة أو الخطأ أن ننظر إليها نظرة بسيطة .

٦ - تفاوت قدر الخطايا :

هل كل الخطايا شريرة بنفس المقدار ، أم أن هناك خطايا أشر من غيرها ؟ لقد كان هذا السؤال مثار جدل كبير عند اللاهوتيين فى مختلف العصور . وقد قال البعض إن هناك تفاوتا فى عقاب بعض الخطايا عن غيرها ، واستدلوا على ذلك ببعض أقوال السيد المسيح ، فمن يعلم أكثر تكون خطيته أشر ، حسب القول :

« وأما ذلك العبد الذى يعلم إرادة سيّده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيُضرَب كثيراً . ولكن الذى لا يعلم ويفعل ما يستحق ضربات ، يضرب قليلا . فكل من أُعطى كثيراً يُطلَب منه كثير ، ومن يودعونه كثيراً يطالبونه بأكثر » (لو ١٢ : ٤٧ و ٤٨) .

كذلك قول السيد لكورزين وبيت صيدا وكفرناحوم إنه ستكون لسدوم وعمورة حالة أكثر احتمالا يوم الدين مما لها (متى ١١ : ٢١ و ٢٤) .

ربما كان هذا الرأى مشجعا لبعض الناس على التقدم نحو الكمال والجهاد ضد الخطية وعدم الوقوع فى الفشل الكامل بتصور أنه مهما عمل الإنسان وجاهد فهو خاطىء بنفس الدرجة . على أن كثيرين من اللاهوتيين عارضوا هذه الفكرة لأنها تتنافى مع الفكر السائد فى الكتاب المقدس الذى يؤكد أن جميع الناس أمام الله خطاة ، لأنهم مهما تحسنوا عن غيرهم ، فهم لا يستطيعون أن يوفوا مطاليب الله الكاملة من الإنسان . ويؤكد الكتاب أن الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله (رو ٣ : ٢٢ و ٢٣) وأن « من حفظ كل الناموس وإنما عَثَرَ فى واحدة فقد صار مجرما فى الكل » (يع ٢ : ١٠) .

هذا فضلاً عن أن وضع مستويات مختلفة للخطايا يشجع البر الذاتى والرضا بالأقلّ ، إذ يقول الإنسان إنه إذا لم يستطع أن يمتنع عن الخطايا البسيطة فى جرمها وقدرها ، فليس أقل من الامتناع عن الخطايا الكبيرة ، وبذلك يقارن نفسه بغيره ، فيرى أنه أفضل من غيره ، وهذا فى حد ذاته تصوّر شرير ، وخطية كبرى - إذا أمكن استخدام هذه الصفة لوصف هذه الخطية ...

لا ننكر أن هناك بعض الخطايا التى لها نتائج أفظع من غيرها ، لكننا عادة ننظر إلى نتائج الخطايا التى تحدثها خارج الإنسان ذاته ، ولو نظرنا إلى آثار الخطايا داخل نفس الإنسان

لوجدنا أن بعض الخطايا التى تبدو بسيطة تضر بنفس الإنسان وشخصيته أبلغ الضرر .

على هذا الأساس فقد اصطلح عدد كبير من اللاهوتيين على أن لا ينظروا إلى الخطايا من هذه الزاوية ، أى من حيث تفاوت قدر الخطايا ، وحاول البعض تقسيم الخطايا من حيث نوعها إلى جسدية وروحية . فمثلا اعتبروا بعضها جسدية لأنها ناتجة عن دوافع جسدية ، واعتبروا البعض الآخر خطايا روحية لأن أساسها فى النفس والفكر ، فقالوا إن الشراهة خطية جسدية ناتجة عن دافع الجوع والبحث عن الطعام ؛ والشهوة خطية جسدية ناتجة عن الدافع الجنسى ؛ والغضب خطية جسدية ناتجة عن دافع القتال والصراع .. وقالوا إن الافتخار الكاذب والحسد خطايا روحية لأن أساسها الرغبة فى التفوق فى أمور معنوية وليست جسدية .

على أن هذا التقسيم ليس حاسماً وبذلك فليست له أهمية كبيرة لأن هناك خطايا يرتبط فيها الجانبان الجسدى والروحي معاً ، ففي الغضب جانب بيولوجي جسدى ، لكن هذا الجانب الجسدى يمكن أن يُثار بأمور معنوية مثل تفوق شخص منافس ، أو الاعتداء على كرامة الإنسان أدبيا ومعنويا . والكسل خطية يرتبط فيها الجانبان الجسدى والروحى معاً . وهكذا نجد أن الجوانب الجسدية والروحية تتداخل بعضها فى بعض . وقد نجد أن بعض الخطايا الجسدية كالشهوة مثلا قد تنتج فى بعض الأحيان عن الرغبة فى التسيّد والسيطرة على الآخرين أكثر من مجرد الدافع الجنسى ...

ولا يغيب عن الذهن أن اللاهويتين عندما يحاولون تقسيم الخطايا إنما يحاولون ذلك بهدف الدراسة التحليلية ليصلوا إلى فهم أكثر لأعماقها وأبعادها ، وفى هذا السبيل حاول بعض اللاهوتيين أن يميزوا بين نوعين من الخطايا : نوع يغلب عليه الدافع الحسّى ، ونوع يغلب عليه دافع الكبرياء ...

وإذا كان من الجائز لنا أن نقارن بين النوعين ، فإننا سنجد أن أشرّ أنواع الخطايا هو النوع الناتج عن الكبرياء .

والغريب أن الأخلاقيات التقليدية تنبّر كثيراً على بعض الخطايا ذات الطابع الحسىّ ، وبخاصة المتصلة بالجنس ، ولكنها لا تنبر تنبيراً كافياً على أنواع أخرى من الخطايا .

وقد أجرى الكاتب بحثا ميدانياً للوصول إلى تقييم الناس فى مصر لبعض الكوارث التى قد تحل بالأسرة ، وكان من نتائج هذا البحث أن غالبية كبرى ممن أجابوا على الاستبيان . اعتبروا أن سقوط فتاة من العائلة فى أمر يتعلق بعفتّها ، يعتبر أشرّ بما

لا يقاس من حرمان أحد أفراد الأسرة من حقوقه المدنية لاتهامه مثلا بالرشوة أو الاختلاس . وهكذا نرى أن الناس ينظرون إلى الخطايا ذات الدافع الحسى بإعتبارها أشر من الخطايا الناتجة عن الطمع أو الكبرياء . ولسنا فى مجال تحليل هذه الظاهرة ، إلا أننا نريد أن نقول إن مبادىء الأخلاق المسيحية - متبعة فى ذلك شخص السيد المسيح - تعتبر الكبرياء والخطايا الصادرة عنها من أشر الخطايا ، ولكنها لا تخفف من شر الخطايا الأخرى ، ولا تتهاون معها . وإنما تنظر إلى الخطايا النابعة عن الكبرياء بأنها ذات أثر أسوأ على شخصية الفرد ، - وفى المدى البعيد - على حياة المجتمع بصفة عامة .

ونستطيع أن نجد بعض الأسباب التى تبرر هذا التقييم :

أ - إن الخطايا الروحية تعمى الإنسان عن واقعه ، والكبرياء تقف عائقاً دون تواضع الإنسان ، وبذلك تعطل طريق توبته ، ذلك لأن أساس التوبة هو التواضع الحقيقى أمام الله .

ب - إن الكبرياء إذ تجعل الإنسان يحس بتفوقه ، تدفعه إلى احتقار الآخرين ودينونتهم ، وبذلك تعمى الإنسان عن أن يرى نفسه على حقيقتها .

جـ - إن الكبرياء أكثر الخطايا إيذاء للغير بشكل أكثر شيوعاً واتساعاً . وربما كانت الخطايا الجسدية تضر بالإنسان نفسه وبالدائرة الضيِّقة المحيطة به ، كخطية السكر والجنس ... ومع أن نتائج هذه الخطايا فظيعة ، لكنها ليست بأفظع من نتائج الكبرياء ، لأن الكبرياء تدفع إلى القسوة والظلم والاستبداد بالغير ، وهذه الخطايا تتعدى آثارها الدائرة الضيِّقة وتؤثر فى المجتمع بشكل عام وتسبب المآسى للآخرين . فإذا كان حاكم مثلا منحرفاً فى حياته الشخصية فإن آثار هذا الانحراف تكون أقل مما لو كان مستبداً متكبراً متجبراً ، لأنه فى تلك الحالة يتمسك بالسلطة ويدافع عنها بشكل يجعله يستهين بكل المبادىء ويدوس الآخرين ، ويشجع التعذيب والقتل والظلم والكذب وشهادة الزور والاضطهاد وغير ذلك من الشرور .

د - وهناك نوع آخر من الكبرياء هو الكبرياء الفكرية أو العقلية وهذا النوع أكثر خبثا وخفاء من أنواع الكبرياء الأخرى ، لأنه يقود إلى استبداد الإنسان برأيه ، ويجعله يحوِّل الحقائق الجزئية التى يعتقدها ، إلى حقائق مطلقة لا تقبل المناقشة ، وينتج عن هذا النوع من الكبرياء كبرياء أخلاقية وروحية عندما يتصور

الإنسان أن معاييره الخلقية هى الأفضل دون مناقشة فيغلق باب عقله عن أى فكر جديد خلّاق ، بل كم قادت الكبرياء الروحية إلى التعصب المرذول واضطهاد الآخرين وطغيان رجال الدين والدعوة إلى الحروب التى يقولون عنها إنها « مقدّسة » ... مع أنها شرٌّ مستطير .

فالكبرياء أشرّ الخطايا لأنها أصل لمعظم الخطايا إن لم يكن كلها ، فالدافع إلى الاسراف والتبذير فى الكماليات هو الرغبة فى الظهور . والدافع إلى القسوة والاستبداد هو تأكيد السلطة والحفاظ عليها . بل إن بعض الممارسات الجنسية قد يكون الدافع اليها الافتتان بالغير والرغبة فى السيادة عليهم ...

إن المتكبر لا يتبين أبداً اتكاله على الله ومسئوليته أمامه تعالى ، لأنه لو كان مسئولا واعترف بذلك حقيقة ، لكان هذا اعترافا بالنقص .

هـ — والكبرياء تعطل العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، فبدلاً من أن يحب قريبه كنفسه ، فإنه يسعى ليتسيد على قريبه . وبينما يرفض المتكبر أن يعترف بنقصه أمام الله ، فإنه لا يعترف أيضاً بمساواته مع غيره من الناس ...

وعلى هذا الأساس تكون الكبرياء هى الخطية العظمى ، ولا عجب أن ذكر الكتاب أن « الله يقاوم المستكبرين » (١ بط ٥ : ٥) .

٧ — هل الخطية شيء حتمى لا بُدَّ منه ؟

لقد انتقدت المذاهب الإنسانية والمثالية الحديثة فكرة الفساد الموروث فى الجنس البشرىّ ، وقالت إن هذه العقيدة تنفى مسئولية الإنسان عما يقترفه من شرور ، فضلاً عن أنها تحبط كلّ محاولات الإنسان للسمو بحياته والترقى بها — وقد شايعت بعض النظريات المتحررة فى الفكر البروتستانتى ما نادى به هؤلاء المثاليون من أن حرية الإنسان غير محدودة وفى استطاعته أن يصل إلى سمو أخلاق بلا حدود ولقد كان هذا الرأى أقرب ما يكون إلى رأى البيلاجيين الذى عارضه القديس أوغسطينوس فى تاريخ الفكر المسيحى . فقد قال البيلاجيون إن الإنسان يمكنه أن يحيا بلا خطية وأن يحفظ وصايا الله بسهولة إذا أراد ذلك . ولو كان الأمر كذلك لَماَ احتاج الإنسان إلى من يفتديه من الخطية ، ولصار السيد المسيح مجرد مثال سام للفضائل ، ومعلم للحقائق الدينية والأخلاقية ...

إلا أن زعماء الاصلاح الإنجيلى ساروا فى نفس تيار الفكر الذى نادى به القديس

أوغسطينوس ، فقالوا إن آدم قبل السقوط كانت لديه القدرة « أن يخطىء أو لا يخطىء » ، إلا أنه بعد السقوط صارت له ولنسله « القدرة أن يخطىء » ، وفقدوا القدرة على عدم الوقوع فى الخطية(١٥) .

ويقول العلّامة المعاصر رينهولد نيبور ، إن إرادة الإنسان أصبحت تميل إلى الشر الأمر الذى يجعل وقوع الإنسان فى الخطية أمراً « لا يمكن تجنّبه » ، لكن نيبور يرفض أن يستخدم كلمة « حتمى » لأن ذلك يتضمن فقدان الحرية وبالتالى عدم المسئولية .

ويفسر نيبور هذه الحقيقة بالقول إنه مادامت أى خطية فعلية تفترض: وجود « حالة الخطية » أولاً ، فإن « حالة الخطية » هذه إنما هى ميل فى الإرادة للخضوع للتجربة والوقوع فى الخطايا الفعلية . ويقول نيبور إن التعبير « الفساد الموروث » الذى توصف به « الخطية الأصلية » فى علم اللاهوت إنما هو تعبير رمزى لا يشير إلى انتقال الخطية بقوانين الوراثة الطبيعية التى يدرسها العلماء فى « علم الوراثة » ، ولكنه يشير إلى أنه منذ بداية التاريخ الإنسانى ، والجنس البشرى يميل إلى الخطية ، وهكذا تصير الخطايا الفعلية أمراً لا يمكن للناس تجنبه ، ومع ذلك فالإنسان مسئول عن أفعاله ، رغم ما يبدو فى هذا الفكر من تناقض ظاهرى ، يقول عنه إنه لا يحتاج إلى مزيد من الشرح ، لأنه أمر واقع(١٦) .

ولو أننا تعمقنا فى النظر إلى هذين الاتجاهين لوجدنا أن أصحاب النظريات المثالية المتحررة أو « الليبراليين » تجاهلوا أو قلّلوا من شأن تضامن الأجيال الماضية مع الحاضرة وأثر ذلك فى اختيارات وسلوك الأجيال الحاضرة . ونحن فى الواقع لا نستطيع أن نعزل الفرد فى الحاضر عن ما توارثه من عادات وتقاليد من الأجيال السابقة . ولذلك فإن مذهب « الخطية الأصلية » يعتبر أكثر واقعية لأنه يعطى الأهمية الكافية لتضامن الفرد مع الإنسانية كلها فى المسئولية عن الخطية .

إن ما يقوله « الليبراليون » من أن الإرادة الإنسانية حرَة فى أى لحظة أن تختار بين الخير والشر ، لا يطابق الواقع ؛ ذلك لأن مجرد الاختيار محكوم بما درج عليه العقل من التمييز بين الخير والشر ، وهذا التمييز ناتج عن التراث الذى توارثه الإنسان ، لذلك فإن حرية الإرادة فى هذا المجال محدودة .

ويقول الأسقف وليم تمبل(١٧) إننا أحرار فعلاً ، لكن حريتنا هذه محكومة بأفكارنا الشخصية التى تعاوننا على إتخاذ القرار حسب ما نراه من « خير ظاهر » لنا ، لكن فكرتنا عن هذا « الخير » مشوّهة بسبب الأنانية المستقرة فينا ، وهكذا تكون إرادتنا فى الواقع أو حريتنا

مستعبدة لأنانيتنا . فنحن عبيد لمحبة الذات ... ونحن نحاول أن نتخطى ذلك بعض الشيء ونطلب الحق والجمال والخير ، ولكننا لا نستطيع أن نتخطى أنانيتنا تخطيا كاملاً لأن نفس تلك المحاولات فيها تركيز على الذات ...

إن « صورة الله » فى الإنسان تشوهت بسبب الخطية ، لذلك فقد الإنسان القدرة على السمو فوق ذاته . وهو قد يجاهد ليصل إلى بعض الفضائل النسبية إلى حد ما ، فهو مثلا يشارك حياة الأسرة مع زوجته وأولاده ، وأحياناً يتخطى أنانيته فى سبيل أسرته إلى حد كبير ؛ وهو يحيا فى عالم خلقه الله ويرعاه الله ونعمة الله تتجه نحوه – والإنسان لا يقدر أن ينقذ نفسه من أوحال الخطية بمجهوده الأخلاقى الشخصى ، لكن هذا الجهد يُعدُّه لكى يتبين حاجته إلى المعونة الإلهية . وهكذا يمكن أن نتحدث عن « نعمة الله العامة » التى تعمل فى ضمائر جميع الناس ليدركوا أنهم خطاة ، وتوقظ فيهم الإحساس بحاجتهم إلى « نعمة الله الخاصة » التى تأتى عن طريق الإيمان .

إن « صورة الله » التى خلق عليها الإنسان ، والتى شوهتها الخطية ، يمكن أن تعود إلى الإنسان متى أراد الإنسان أن يطيع ناموس الله الكامل كما يُعبّر عنه ناموس المحبة فى المسيح . وأن أصل خطية الإنسان هو أنه قد أُبعدَ عن الشركة مع الله ، وأصبح يطلب أن يعيش مستقلاً عن الله . هذا التناقض فى طبيعة الإنسان لا يمكن التغلب عليه إلا بالمصالحة مع الله بالإيمان والمحبة ، وهو يحتاج إلى النعمة الإلهية لا ليحقق الخير الحقيقى فحسب ، وإنما ليستعيد كيانه الحقيقى أيضاً .

لهذا كانت المسيحية ديانة الفداء . إن ناموس المحبة إذا نظرنا إليه كشريعة علينا طاعتها يوقفنا عاجزين مهما جاهدنا لتحقيق ذلك ما لم يكن هناك طريق لكسر وتحطيم سلطان الخطية من أن يسود على حياتنا – وعندما نواجه محبة المسيح التى أعلنها فى حياته وموته على الصليب ، يزداد إحساسنا بالخطية عمقا ، فتصرخ مع بولس الذى قال :

« لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل .. ويحى أنا الإنسان الشقى . من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟ » (رومية ٧ : ١٩ و ٢٤) .

الفصل الثالث

الإنسان وحياته المفتداه
أو الحياة المسيحية

أوضحنا قبلا أن هناك تناقضا فى الإنسان : فهو قد خُلِق على صورة الله يمتلك القدرة على محبة الله والقريب ، ومع ذلك فقد سقط فى خطية محبة ذاته . ومع أنه ليس بالضرورة محكوماً عليه بأن يخطىء فى كل فعل يفعله ، لكنه مهدد باليأس بسبب فشله فى أن يتغلب على خطيته وبسبب انفصاله أو اغترابه عن الله وعن القريب .

كيف يستطيع هذا الإنسان أن يطيع وصية الله التى هى وصية المسيح أيضاً أن يحب الله من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل فكره ومن كل قدرته وأن يحب قريبه مثل نفسه .

إن المسيحية تقول لنا إن هذا ممكن فقط بمعونة نعمة الله الذى يغفر خطايا الإنسان وينعم عليه بقوة ليست له . ومما يؤكد إيمان البشر بهذه النعمة أن الله افتداهم بالمسيح ومحبته المضحية ، ففى موت المسيح على الصليب نرى محبة عميقة مكلفّة قد أعلنها الله للناس : « الله بيّن محبته لنا إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا » (رو ٥ : ٨) .

لكن هذا ليس كلّ شىء ، لأن عمل المسيح لم يقف عند هذا الحد ، بل عمله مستمر فى حياة المسيحيين **هنا والآن** . لقد قام المسيح من بين الأموات وظهر للتلاميذ ، وفى يوم

الخمسين سكب الله روحه عليهم ، فنالوا شجاعة وحياة جديدة ليصيروا مجتمعا جديداً للإيمان والرجاء . لذلك فهم يعيشون معا بالمحبة فى انتظار مجىء الملكوت . إن الله الذى فداهم بموت المسيح على الصليب لايزال يواصل عمله فى المؤمنين بالروح القدس ، وهكذا يستطيعون أن يتمموا خلاصهم بيقينهم أن الله يعمل فيهم ويعاونهم بنعمته .

ومن الواضح أن هذا الاعتقاد بعمل الله الفدائى فى المسيح واستمرارية عمله فى المؤمنين بالروح القدس يعتبر أمراً جوهرياً فى فهم وتفسير الأُخلاق المسيحية . إن المسيحية تعلن **هبة** محبة الله للناس فى المسيح ، وتدعوهم إلى **الطاعة الشاكرة** لوصايا محبته ، وتقدم لهم **الوعد** أن الله سيعاونهم بنعمته . فسلوك المسيحى مؤسس على الإيمان بما عمله الله فى محبته من رحمة فى الماضى ، ومايزال يعمله بروحه فى الحاضر – وبدون هذا الإيمان ، لا يستطيع المسيحى أن يجد تأكيداً بأن المحبة المسيحية ليست مجرد صورة مثالية من تصوير الخيال المبدع ، وهو ما يقع فيه كثيرون من الناس اذ يعتبرون المحبة المسيحية هدفا بعيد المنال فيصابون بالإحباط . لكن المؤمن بعمل الله من أجل الإنسان وفيه يعرف أنه مهما كان ضعفه واهتزاز ثقته بنفسه ، فإن نعمة الله ستحفظه وفيها سيجد الشجاعة ليتقدم بثقة فى طريق الحياة المسيحية .

١ – الإيمان ، والغفران ، والمصالحة :

إن نقطة البداية فى الحياة المسيحية هى **الإيمان** برحمة الله فى المسيح **وغفرانه** . والإيمان هنا أكثر من مجرد الاعتقاد أو الموافقة على حقيقة نظرية عن طبيعة الله وعلاقته بالإنسان مع أنه يشمل هذا ، لكنه يحتوى على عنصر **الثقة** . الإيمان بالله هو **الثقة به** وليس فى أنفسنا أو فى أى شخص آخر لخلاصنا ، إنه الاعتماد الكلى عليه والاتكال التام ، ووضع الثقة فى الله بإعتباره هو خيرنا الأسمى .

هذا الاتكال والتسليم التام غير ممكن بدون **التواضع** ، وإنكار الذات والإرادة الذاتية ، والاستعداد لقبول ما لا يمكننا الحصول عليه من ذواتنا ، هدية أو عطية من يده . كما أن الإيمان يشتمل على **الطاعة** . فإذا كنت أقبل الخلاص عطية من الله ، فلا بُدَّ أن أقبله حسب شروطه هو ، ويجب أن أخدمه كما يخدم الابن أباه ، عالما أنه فى الخدمة التى أخدمها يكون خيرى ، وليس لأن الله يفرض علىَّ هذه الخدمة .

لكن ... ما هو مصدر هذا الإيمان ؟

من الواضح أنه لا يمكن أن يكون أعمى وبلا أساس . صحيح أنه يحتاج إلى نوع من

المخاطرة أو ما يمكن أن نسميه قفزة فكرية (Leap) ، إذ ليست هناك وسيلة محسوسة لتأكيد وجود الله ، أو صلاحه للبشر ، أو محبته الفادية فى المسيح . لكن الإيمان ليس قفزة فى الظلام اعتباطاً دون منطق أو فكر سليم ، إذ هو مؤسس على ما عمله الله فى المسيح . إننى أستطيع أن أثق بالله لأنه بيَّن محبته لى فى تجسد المسيح وموته . وأستطيع أن أثق فى رحمته لأنه أظهر استعداده أن يغفر لخطاة مثلى . والإيمان هو **عطية** من الله ، فالإنسان المكتفى بذاته ، المتمركز فى ذاته ، لا يمكنه أن يثق بالله إلا إذا عملت فيه نعمة الله . فلا يمكن الوصول إلى الإيمان إلا بمعونة الله ، فخطوة الإيمان التى تضع الإنسان على بداية الطريق إلى الخلاص ، لا يمكن أن يصل اليها الإنسان من نفسه ، ولكنها تظهر كنوع من التجاوب لما عمله الله فى المسيح ، بعمل الروح القدس فى الإنسان ليتبينه ويراه . إلا أن الإيمان عمل إرادى يمكن للإنسان أن يقبله أو يرفضه – فإذا قَبِل الإنسان هذا العمل فإنه ينال الغفران والمصالحة مع الله فتعود العلاقة مرة ثانية بين الإنسان والله .

ولأن الإنسان يحتاج إلى الإيمان ليختبر الغفران والمصالحة ، لذلك كان الإيمان نقطة البداية فى الحياة المسيحية ، واستخدم اللاهوتيون التعبير المشهور « التبرير بالإيمان » – ومعنى هذه العقيدة – التى شرحها الرسول بولس وأعاد لوثر اكتشافها – لا يمكن فهمه فهما كاملاً إلا إذا فكر الإنسان فيما تقرره وما تنفيه – فهى تنفى تبرير الإنسان بأعماله وبفضائله التى يعملها طاعةً للناموس . أى أنه لا يستطيع أن ينال الخلاص كأجرة له عن برّ الذى اقتناه بالأعمال الصالحة .

ومن الجانب الايجابى فهى تقرر أن الإنسان اغترب عن الله وفقد الرجاء فى المصالحة مع الله ، ولكن الله اتخذ جانب المبادأة أو المبادرة ليحطم الحاجز – حاجز الخطية – وليعيد الإنسان مرة ثانية إليه فقد كان « الله فى المسيح مصالحا العالم لنفسه » – هذا الغفران تخطى كل ما كان يتوقعه الإنسان بمقياس العدالة ، لذلك لا يمكن تفسيره إلا بأنه من فيض محبة الله التلقائية المنعمة على البشر دون استحقاق(١٨) . لا يعتبر هذا الأمر تساهلاً مع طبيعة الله العادلة لأن الكتاب بيَّن أن العدل قد تم وتنفذ فى موت المسيح على الصليب .

ومن الضرورى التركيز على هذه النقطة لأن كثيرين يتصورون أن غفران الله يتم بمجرد رحمته وحبّه للإنسان ، وهذا يغفل جانبا هاماً فى الأخلاق المسيحية وهو عدل الله ، فالغفران الذى قدّمه الله كان غفرانا مكلّفاً جداً ... ولأجل هذا ينبغى أن يدرك كل مسيحى بأن الغفران المكلّف هذا يقتضى عدم التساهل مع الخطية بل يستلزم حياة الجهاد مدى الحياة ضد الخطية .

إن عملية اعادة العلاقة مع الله بغفران الخطايا هى نوع من الميلاد الجديد الذى يطلق طاقات الإنسان بقوة متجدده للصراع ضد الخطية ، ويثير فى نفسه مشاعر الشكر والمحبة لله ، وتحرره من ذاته ومن القلق خشية عدم تحقيق مقصده الجديد ، وتزيده ثقة بحب الله له فيتشجع فى طريق الحياة المسيحية .

٢ - التقديس :

لم نكن نريد أن نتعرض هنا للعقيدة اللاهوتية عن التقديس ، واختلاف المذاهب المسيحية بشأنها ؛ إلا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن الأخلاق المسيحية دون الاشارة إلى التقديس ... لأن هدف الأخلاق المسيحية يتضمن بلا شك حياة القداسة .

وقد ظن البعض أن حياة القداسة تأتى نتيجة لاختبار معيّن يختبره المؤمن بعد التجديد ، ويعتبر درجة أرقى وأسمى من التجديد ، يناها المؤمن ويستمر فيها بصورة دائمة .

إلا أن الواقع ، المؤيد بشهادة الكتاب المقدس ، يؤكد أن المؤمن بعد الإيمان يظل فى نظر الله معرضا للخطأ فى حاجة دائمة إلى الغفران ، وأن قبوله مبرراً أمام الله لا يرجع إلى حالة وصل إليها ، بل إلى نعمة الله المجانية التى تحسب برّ المسيح برّاً له .

صحيح أن التبرير يعنى التجديد ، والتجديد بدوره يقود إلى موت المؤمن عن الخطية ليحيا لله يوما فيوما ، وهذا هو المعنى الصحيح للتقديس ... إنه عملية مستمرة ، وليس حالة يصل إليها الإنسان .. هو عملية يسعى فيها الإنسان نحو القداسة كهدف له . وهذا ما أشار إليه بولس الرسول فى رسالة فيلبى (٣ : ١٢ - ١٤) .

« لا أدّعى أنى فزت بذلك أو بلغت الكمال ، بل أسعى لعلّى أفوز بما لأجله فاز بى المسيح يسوع . أيها الإخوة ، لا أعتبر أنى فزت ، ولكن يهمنى أمر واحد وهو أن أنسى ما ورائى وأجاهد إلى الأمام . فأجرى إلى الهدف » (فيلبى ٣ : ١٢ - ١٤ « للفوز بدعوة الله السماوية فى المسيح يسوع » الترجمة العربية الجديدة).

وفى رسالته إلى أفسس يستخدم الرسول أسلوب النمو لتوضيح هذه الحقيقة عينها ويضع هدف عملية النمو بأنه « إلى أن نصل كلّنا إلى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله ، إلى الإنسان الكامل ، إلى ملء قامة المسيح » (أف ٤ : ١٣) (الترجمة العربية الجديدة) .

وفى كلتا الحالتين نرى أن الموضوع المشار إليه ليس حالة معينة ، بل عملية مستمرة ولن تكتمل فى حياتنا على الأرض ... إنها رحلة أو سباق يستمر مدى الحياة .

ولعلنا نتساءل عن دلالة هذه الحقيقة بالنسبة للأخلاق المسيحية . إن سعى المسيحى إلى الكمال حقيقة جوهرية فى الأخلاق المسيحية ، ومالم يسعَ المسيحى ليصل إلى « الإنسان الكامل ، إلى ملء قامة المسيح » فإنه معرَّض أن يكتفى بتغيير محدود فى حياته واتجاهاته ، وتكون النتيجة الحتمية هى التكاسل الروحى والرضا بالواقع الأقل ، أو الرضا بحالة الذات الراهنة ، وهذا يشل نموه الأدبى والأخلاقى . والرضا بالواقع فى الحياة الأخلاقية يقود إلى الإذعان للمظالم الاجتماعية وقبولها ، وهذا خطر يهدد الكنيسة ورسالتها فى المجتمع .

إن هناك خطرين يهددان الكنيسة : أحدهما هو الإغراق فى تأكيد خطية الإنسان وعجزه عن الوصول إلى الكمال ، لدرجة تجعل الإنسان يرضى بالواقع الأقل من الكمال ، وبذلك تفتر همّته ويقل سعيه نحو الكمال ، ويرضى عن ذاته وعن مجتمعه ولا يصير ناقداً للمظالم والعيوب الموجودة فيه ... هذا من جانب ؛ أما الخطر الآخر فيتمثل فى الاعتقاد بأن الكنيسة لا ينبغى أن تضم سوى الكاملين أخلاقياً ، وبذلك تسقط الكنيسة فى الكبرياء الروحية ، وتنعزل عن واقع العالم الذى تعيش فيه ، فلا تؤثر فيه ، ويصاب المجتمع بما يشبه انفصام الشخصية .

٣ - الحياة « فى المسيح » و « فى الروح » :

لعلنا الآن اقتنعنا بأن الحياة المسيحية ليست مجرد مصالحة مع الله فحسب ، بل هى صراع ضد الخطية للوصول إلى المحبة الكاملة لله والقريب .

لكن ... كيف يساعد الله الإنسان ليحيا هذه الحياة ؟ يقول « العهد الجديد » ويؤيده الاختبار خلال التاريخ الطويل إن الله يعمل ذلك عن طريق حضور المسيح ، وقوّة الروح القدس أو روح المسيح العامل فى الإنسان ...

إن بعض المسيحيين يركزون فى كلامهم وأفكارهم على جانب واحد من الحقائق المسيحية ، وهو ما عمله الله لأجل الإنسان فى الماضى ، أى فى صليب المسيح ... وكثيرون منهم يعتمدون على كفارة المسيح ومصالحته لهم مع الله وكأنما هذا يكفى ... فتراهم يكتفون بالنظر إلى الوراء إلى ماضيهم ، ويهللون ويشكرون لأن الله فداهم وحررهم من عبودية الخطية ، ناظرين إلى الصليب فحسب كأنما الخلاص مجرد أمر مضى وانتهى ، ويعيشون على هذه الذكرى أو « يجتّرون » تلك الحقائق فحسب ... والبعض يتخذون من رسائل بولس الرسول أساساً لهذا الاعتقاد معلنين أنه « لا شىء من الدينونة على الذين هم فى المسيح يسوع » ... وأنهم اذ قد تبرروا (فى الماضى) بالإيمان فلهم سلام مع الله ... لكننا لو قرأنا

رسائل الرسول بولس بعناية لوجدنا أنه لا يتوقف عند مجرد حقيقة الصليب والفداء ، لكنه يتحدث بوضوح عن المسيح المقام ، المسيح الحيّ – ليس فقط فى السماء ، ولكنه الحيّ أيضاً فى المؤمنين وفى الكنيسة . وعلى هذا الأساس يقول إن المؤمن يحيا « فى المسيح » والمسيح يحيا « فى المؤمن » – كأنما هناك نوع من الاتحاد .. إن كل حديثه هو فى المسيح فيقول « أقول الصدق فى المسيح » (رو ٩ : ١) والذين ليس عليهم شيء من الدينونة هم الذين « فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح » (رو ٨ : ١) – والذى يعتبر نفسه خليقة جديدة هو الذى نجده « فى المسيح » (٢ كو ٥ : ١٧) وهو يقول « إن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه » (رو ٦ : ٨) ....

فما معنى هذا الاتحاد ؟

إنه ليس شعاراً نعلنه ، أو حديثا نسطّره أو نتحدث عنه ... لكنه اختبار عمل المسيح الفعلى فى الإنسان . فالمسيح لا يصير مجرد شخصية تاريخية ، لكنه يصير شخصية حيّة تعمل الآن ، فى الحاضر ....وما عدا ذلك يكون كلاماً أو لغوا بلا فاعلية ... ولو تغافلنا عن هذه الحقيقة لضاع معنى الإيمان ، لأن الإيمان أمرٌ حاضر – ولو جعلنا المسيح مجرد شخصية تاريخية فقط لكان مجرد معلم أو مصلح أخلاقى يتحدث بأسمى التعاليم لكنه لا يستطيع إلا أن يتكلم ويعلم كغيره من المصلحين ، ولوقف الإنسان عاجزاً رغم سماعه كل التعاليم ، ولتحولت الديانة إلى محاولات يائسه أو كلام أجوف[١٩] ....

لكن المسيحيين – إذا فهموا المسيحية على حقيقتها – يعلنون أن المسيح حاضر معهم بروحه ... أو حيٌّ فيهم ... وأن الله القدوس الكامل الذى يسمو فوق كل خليقة ، استطاع فى المسيح ، لا أن ينزل بين البشر فحسب ، بل أن يسكن فيهم بروحه ...

هذا هو المعنى الصحيح للاقتداء بالمسيح ... إن كثيرين يتحدثون عن الاقتداء بالمسيح ظانين أنهم يكررون ما كان يعمله يسوع المسيح الذى عاش كشخصية تاريخية فى تفاصيل حياته اليومية الدقيقة ، وفى الظروف العارضة فى حياته ... وهكذا يتحولون إلى حرفيين ويقعون فى كثير من المشكلات ، لأن ظروف الحياة الآن تختلف عن الظروف التى عاش فيها يسوع المسيح كشخصية تاريخية ... إن الاقتداء بالمسيح ليس هو ترديد ألفاظ معينة قالها لتلاميذه مثل أسلوب التحية وأسلوب المعيشة ... وليس هو محاولة تكرار ما مارسه هو لظروف معينة مثل غسل الأرجل أو صوم معين أو غير ذلك مادام لم يأمر بها لتصير فريضة دائمة ... وإنما هو الاقتداء بفكر المسيح كما يفسره لنا الروح القدس الساكن فينا فى ضوء متغيرات العصر الذى نعيش فيه .

فلقد قال بولس الرسول لأهل فيلبى : « فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً » (فيلبىَ ٢ : ٥) ، أو « كونوا على فكر المسيح يسوع » (الترجمة العربية الجديدة) .

إن الاقتداء بالمسيح هو فى الفكر وليس فى الوسيلة ، فى جوهر الحياة وليس فى المظهر الخارجى ... وهذا يأتى نتيجة لعمل الروح القدس أى بعمل المسيح الذى يحيا فينا بروحه ..

هذا هو أساس الحرية المسيحية . صحيح أن البعض يستبيحون لأنفسهم أموراً لا تليق ، باسم الحرية وعلى حسابها ، لكن هؤلاء يقفون موقف الدينونة تماما كأولئك الذين ينفّذون الحرفيات ويهملون الروح – روح التعليم – أو فكر المسيح ، فهم أيضاً تحت دينونة ، فأساس الحرية المسيحية هو الإخلاص والمعاناة فى البحث عن أفضل طريق يعبّر عن فكر المسيح ، الذى يصف لنا بولس أن جوهره هو التضحية وإنكار الذات والمحبة ...

إن وجود وعمل الروح القدس فينا يؤكد لنا أن الله ليس كائناً بعيداً عالياً – لكنه قريب ومؤثر فى حياتنا . وبعمل الروح تصير المحبة عاملاً فعّالاً فى حياة المسيحى « لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) .

وعندما تنسكب محبة الله فى قلوبنا توقظ فينا المحبة لله والرغبة فى عمل مشيئته . وهذا هو طريق التقديس . فلا تصير الحرية فرصة للجسد لإغرائنا لنخطىء ، بل تكون دافعا لنا لننطلق إلى مجالات لا نهائية غير محدودة من الخدمة والتضحية والمحبة ... وبتعبير آخر لنحيا « ليس حسب الجسد بل حسب الروح » – وهكذا يصير الروح هو « مُقَدِّسُنا » ، فيشهد للمسيح ولمصالحته إيانا مع الله ، فيكون واهب الحياة ومصدر حياتنا الجديدة ... هذا ما يسميه بولس الرسول فى روميه ٧ : ٦ « جِدَّة الروح » أو « نظام الروح الجديد » (الترجمة العربية الجديدة) ويقارنه « بعتق الحرف » أو « نظام الحرف القديم » . وعن هذا يقول أيضاً فى ٢ كو ٣ : ٦ عن هذا العهد الجديد « لا الحرف بل الروح . لأن الحرف يقتل ولكن الروح يُحيي » . « عهد الروح لا عهد الحرف . لأن الحرف يميت والروح يحيى » (الترجمة العربية الجديدة) .

٤ – النعمة الإلهية وحرية الإنسان :

لقد أوضحنا أن الحياة المسيحية التى تبدأ بالتبرير بالإيمان وتسعى نحو الكمال بعملية التقديس ، إنما هى ثمر عمل الله الفدائى فى الإنسان ، ومن الواضح أن عملية الخلاص كلها يبدأها الله ويتابعها الله حتى النهاية . إن هذا الاعتقاد بالنعمة الإلهية اعتقاد أساسى فى اللاهوت المسيحى ، وهو فى نفس الوقت أساسى فى الأخلاق المسيحية . وأول من توسع فى شرح هذه

الحقائق المتعلقة بالنعمة هو القديس أوغسطينوس ، ثم أعاد مارتن لوثر اكتشاف هذه الحقيقة وجعلها أساساً لفكره اللاهوتى .

وتظهر أهمية هذه العقيدة فى الأخلاق المسيحية فى أنه لو تصور المسيحى أنه يستطيع أن يصل إلى الصلاح بمجهوده الذاتى ، أو أنه يستطيع أن ينال نعمة الله كجزاء له على فضيلة معينة أو استحقاق ما ، فإن جوهر المسيحية المبنى على الفداء بصليب المسيح يكون بلا قيمة أو على حد تعبير بولس الرسول ، يكون المسيح اذاً « مات بلا سبب » (غل ٢ : ٢١) — وعندئذ تكون الأخلاق المسيحية مجرد تعاليم أدبية ووصايا أخلاقية يحاول الإنسان طاعتها متشبها بحياة المسيح ومطيعا وصاياه بإرادته وجهده باعتباره نبياً عظيماً ومعلماً فذاً ...

إلا أن تعليم « الخلاص بالنعمة وحدها » قد أسيء تفسيره فى مناسبات كثيرة بكيفية كادت تلغى مسئولية الإنسان الأدبية أو على الأقل تجعل حرية الإنسان ومسئوليته فى مكان ثانوى .

لذلك وجب أن نبين أن عبارة « الخلاص بالنعمة وحدها » تعبير أُريد به استبعاد كل مبرر للكبرياء من جانب الإنسان ، ومنع الإنسان من أى محاولة للتفاخر بفضائله ، ولتذكير الإنسان أنه لو تُرِكَ وشأنه دون معونة الله ، فإنه سيزداد حبا لذاته ويسخر كل شىء لمصلحته الشخصية ، وهكذا يبتعد أكثر فأكثر عن طريق الخلاص ، ويمعن فى طريق الشر والاغتراب عن الله . والتعبير « الخلاص بالنعمة وحدها » تعبير عن الشكر العميق لله ومحبته الفادية فى المسيح ، وعمله المستمر فى حياة المسيحىّ .

إلا أن هناك خيطاً رفيعاً بين الفكر السليم فى هذا الاتجاه ، وبين المغالاة التى تبتعد عن الحقيقة . فإن المغالاة فى إظهار عجز الإنسان وضعفه ، قد تصوره معدوم الحرية ؛ والمغالاة فى تمجيد سلطان الله قد تصوّره تعالى متحكما مستبداً ...

وقد تعرّض أوغسطينوس ، ومن بعده لوثر وكلفن لهذه المغالاة أو على الأقل قد فهم البعض تعليمهم بهذا المعنى .

وربما لعبت حياة أوغسطينوس قبل التجديد دوراً فى تلوين فكره باختباره الخاص ، فقد كان أوغسطينوس يعانى من إرادة ضعيفة ومترددة قبل تجديده . لذلك قال أوغسطينوس — ربما من واقع خبرته الشخصية — إنه بينما خلق الله الإنسان حر الإرادة ، إلا أن الخطية أفسدت إرادته بعد سقوط آدم ففقد حرية اختيار الخير الحقيقى — لذلك فمن السخف أن يفتخر الإنسان بحرية إرادته بإعتبارها إمكانية كامنة فى طبيعته ، متجاوزاً حقيقة الضعف والفساد اللذين أصابا هذه الإرادة بواسطة الخطية ؛ فمع أن الإنسان يمتلك حرية الإرادة كجزء من

طبيعته ، إلا أنه لا يمتلك القدرة على ممارسة حرية الإرادة فى اختيار الخير ، ومثله فى ذلك مثل إنسان مكسور الرجلين ، فهو كإنسان يمتلك فى طبيعته القدرة على المشى ، لكنه فى الواقع الفعلى عاجز عن ذلك . لذلك فما لم ترجع إليه الصحة بنعمة الله ، فإنه لن يستطيع أن يتجنب الخطية . ولكنه – بمعونة النعمة – يمكن أن يتخلص من حتمية وقوعه فى الشر ، وتعود إليه حريته كاملة[٢٠] .

لقد كانت نظرة أوغسطينوس إلى محدودية حرية إرادة الإنسان نظرة ثاقبة ، امتاز بها عن كثيرين من الفلاسفة الذين تحدثوا نظريا عن حرية الإنسان – فعلى سبيل المثال يقول « عمانوئيل كانت » (Kant) إن حرية الإرادة مبدأ أساسى مفترض من مبادىء العقل العملى ، لأن التعبير « ينبغى علىَّ أن أعمل كذا » أو « يجب علىَّ كذا » يتضمن إمكانية تحقيق هذا الواجب . فإذا كنت أقول « ينبغى علىَّ » فإن ذلك يستلزم إمكانية القول : « إننى أقدر على عمل الشيء » – ولا يُطالَب الإنسان إلا بما تكون لديه القدرة على عمله .
هذا المنطق سليم نظرياً ... ولكنه يصطدم مع الواقع أحياناً . فالمدمن على الخمر مثلا يعرف أنه « ينبغى عليه » أن يترك الخمر ، ولكن هل يستطيع فى الواقع أن يفعل ذلك بإرادته ؟

إن علم النفس – وبخاصة مدرسة علم النفس التحليلى – كشفت لنا أن جهد الإرادة الواعى ليس له تأثير على أعمال وعادات متسلطة على الإنسان إذا كان مصدر هذه الأفعال أو العادات كامن وراء الشعور أو العقل الواعى للإنسان . ولقد كان أوغسطينوس محقا فى دعواه أن الإنسان لا يستطيع أن يستخدم حرية إرادته استخداماً فعّالاً إلا إذا كُسِرت سلطة الخطية التى تسوده ... أو بتعبير آخر لن يستطيع أن « يريد » الخير الأسمى وهو محبة الله ومحبة القريب إلا إذا رفعته نعمة الله وانتشلته من محبة الذات .

إلا أن القديس أوغسطينوس لم يكتف بالقول إن الإنسان الطبيعى لن يقدر على اختيار الخير حتى تشفى النعمة إرادته ؛ ولكنه ذكر تعبيراً آخر وهو أن نعمة الله لا يمكن للإنسان مقاومتها . (Irresistible) وهو يربط بين هذه الحقيقة وعقيدة « التعيين السابق » (Predestination) ... وبهذا يكاد يلغى حرية إرادة الإنسان حتى بعد أن تشفى نعمة الله هذه الإرادة . وإن كان أوغسطينوس لم يقرر ذلك ، بل قال إن النعمة تتعاون مع المؤمن عندما يريد ذلك[٢١] ، ولكن مضمون هذا القول إن حرية الإنسان تصبح واهنة هزيلة حتى بعد التجديد . وكأنما دور الإنسان هو مجرد الموافقة على ما سبق الله أن قرره ...

ونحن لا ننصح بقبول افتراضات أوغسطينوس حتى نهاية مداها ، ولكننا نؤكد الحقيقة أن

النعمة الإلهية شرط ضرورى وعامل أساسى فى خلاص الإنسان . إن نعمة الله تسبق أى عامل آخر فى الخلاص ، ولكن الإنسان يتجاوب مع عمل هذه النعمة ويقبل ما عمله الله لأجله ، ويتفتح لقبول عمل هذه النعمة فى حياته . وحتى القدرة على التجاوب والتفتح إنما هى قدرة موهوبة له من الله كخالق له ، واحتفاظه بهذه القدرة يرجع إلى عناية الله به . وهكذا لا يكون تعاون الإنسان مع نعمة الله تعاون الند للند ، ولكنه تجاوب المخلوق مع الخالق الذى يعتمد عليه فى كل ما له وكل ما يستطيع أن يعمله .

فلا ينبغى أن نقلل من قدر حرية الإنسان ومسئوليته ، فإنه منذ الخطوة الأولى لعملية الخلاص يجب أن يمارس الإنسان حريته كشخص مسئول . إن نعمة الله لا تجبر الإنسان ولا تفرض على إرادته شيئاً قسراً ، ولكن النعمة تسعى **لتربح** التجاوب الحر من الإنسان . وربما كان أفضل تشبيه لهذه الحقيقة هو الأثر الذى تتركه المحبة السخية غير المشروطة عندما تتجه نحو شخص ما ، إنها تثير وتوقظ فيه نوعا من التجاوب ... إن مثل هذه المحبة يمكن أن تحدث انقلابا فى الشخص الآخر ، ولكنه انقلاب اختيارى بالقوة الروحية التى تجذب الشخص الآخر بجاذبية جمال المحبة وروعتها ... فهى تستأسر الطرف الآخر ، ولكنه ليس أسْر القوة الطاغية بل المحبة الجاذبة .. وليس هذا عجيباً فإن الله محبة (لا تفاضل بين صفات الله) (فهى محبة متوازنة مطلقة) .

٥ - الحياة المسيحية والكنيسة :

نحن نحيا الحياة المسيحية من خلال وجودنا فى جماعة مسيحية - ومع أن كثيرين يتحدثون عن « الديانة الشخصية » وينفرون أو يبتعدون عن الكنيسة لما يرونه فيها من عيوب أحياناً ومن نظم لا تلائمهم أحيانا أخرى ، إلا أننا نريد أن نبيّن أنه لا يوجد شيء اسمه **مسيحية فردية** أو **شخصية** بعيداً عن الكنيسة .

لقد ربط السيد المسيح نفسه بجماعة من الناس كتلاميذ له ، وبذلك انتظمت هذه الجماعة كمجتمع صغير يُعدُّ للملكوت . وبعد أن دعا الرب تلاميذه أرسلهم ليكرزوا ببشارة الملكوت ويشفوا المرضى بإعتبارهم جزءاً من جماعة (متى ١٠ : ١ و ٥ و ٧ و ٨) . وعندما اقترب وقت الصلب فى أورشليم ، جمعهم معاً ومارس معهم فريضة العشاء الربانى وأمرهم بالمداومة على صنعها لذكره ... وذكر بولس الرسول أن ممارستها مستمرة للإخبار بموت الرب « إلى أن يجيء » - ربما لم يؤسس الرب يسوع منظمة أو مؤسسة ، ولكنه وضع أساس الشركة بين الإخوة ، وهى شركة من نوع جديد ، أطلق عليها التعبير اليونانى الفريد (Koinonia) .

في هذه الشِركة الجديدة ، التى يُعبَّر عنها بالكنيسة ، اعتبر المسيحيون المسيح ربّاً ، واعتُبِرتِ الكنيسة نفسها جسداً للمسيح ، وهو رأسها غير المنظور ، وبهذه الصفة تكون هى استمراراً لعمله الذى بدأه فى حياته على الأرض – والشركة فى الكنيسة هى شركةٌ فيه ومعه . وقد وصفها المسيح نفسه فى تشبيه يؤكد الوحدة التى لا تقبل الانفصال بقوله : « أنا الكرمة وأنتم الأغصان » (يو ١٥ : ٥) . وفى نفس الوقت كانت الكنيسة منذ نشأتها شركة الروح القدس الذى أرسله المسيح للكنيسة منذ يوم الخمسين برهانا على أنه حاضر فيها واهبا إياها بركاته وهباته ومواهبه ، فقد كان الروح القدس هو مصدر حياة الكنيسة الجديدة ومحبتها وسلامها وبهجتها .

ومادام المسيحيون قد اعتبروا الكنيسة المجال الذى يستمر فيه عمل المسيح الواهب حياة وعمل الروح القدس المانح القداسة ، لذلك وصفت الكنيسة بأنها « مقدسّة » ، ولا يعنى هذا أن أعضاءها أسمى أخلاقيا ممن هم خارجها – ومع أنه من المفروض والمطلوب أن يكونوا هكذا ، لكن الواقع قد يكون أحياناً غير ذلك – وإطلاق صفة القداسة على الكنيسة لا يرجع إلى واقع حياة أعضائها ولكنه يرجع إلى أنها مجال عمل الروح القدس ، وإمكانية السمو بحياة أعضائها إذا تجاوبوا مع عمل الروح القدس فى حياتهم ؛ كما يرجع أيضاً إلى أنها جماعة جاءت إلى الوجود نتيجة عمل الله الفدائى وتعتمد على الروح القدس فى حياتها ، فهى مجتمع النعمة الشاعر بضعفه ، الشاكر لمحبة الله ، والشاهد لذلك[٢٢] .

فالحياة المسيحية تظهر عادة فى المؤمن وينمو المؤمن فيها من خلال حياة الكنيسة التى تغذيه فى كل مرحلة من مراحل حياته . والكنيسة هى التى تحمل الإنجيل وقد حفظت إعلانات الله التى أعلنت عبر الأجيال حتى قمة هذا الإعلان فى يسوع المسيح وعمله وحياته ، وهى التى تواصل رسالة الإنجيل من جيل إلى جيل بالوعظ والتعليم – وهى أيضاً الشركة التى من خلالها وعن طريق عمل النعمة تظهر ثمار الإيمان الأدبية والأخلاقية فى الحياة – ولذلك فالكنيسة تعين المؤمن على معرفة الإنجيل وتطبيق مبادئه عمليا فى الحياة . ومن خلال شركته فى الكنيسة يفهم معنى المحبة ويتجاوب مع ندائها ، وبذلك نرى أهمية الكنيسة للمؤمن فى حياته الروحية والأدبية .

لذلك فإن ما ينادى به البعض من أن الفرد المسيحى هو أساس الكنيسة المسيحية وأن الكنيسة هى مجموعة أفراد اختبروا المسيح فردياً وشخصياً وتجمعوا بإختيارهم وباستقلاليتهم فى جماعة هى الكنيسة – يبدو انه رأى غير سليم وغير واقعى ... صحيح أن الفرد يقبل الإيمان ويتجاوب مع عمل النعمة كفرد باختياره الحر ... ولكن هذا الإيمان عينه ، وعمل

النعمة الفعّال ، هو تراث الكنيسة الروحى ، ولولاها ولولا وجودها كجماعة تحفظ هذا التراث ، لما أمكن لرسالة الإنجيل أن تصل إلى الفرد ... ولو فصل الفرد نفسه عن الكنيسة وتصور أنه يجد الاكتفاء الروحى وحده فإن مصير هذا الفرد هو الابتعاد عن الحق ، والجوع الروحى ، والافتقار إلى حياة الشركة وهى الحياة المسيحية الحقة .

إن الكنيسة هى التى تستخدم وسائط النعمة لبنيان ونمو أعضائها ، وليس هذا مجال الحديث بالتفصيل عن وسائط النعمة ، ولكننا نذكر هنا أن الفكر الإنجيلى يضع أهمية خاصة على الكلمة والفرائض وهى المعمودية والعشاء الربانى بإعتبارها وسائط لا غنى عنها لنمو المؤمن واستمرار عمل النعمة فى حياته ، وأى اهمال من جانب المؤمن فى إحدى هذه الوسائط أو تغليب واسطة على أخرى يضعف من حياة الفرد والكنيسة . ويذكر مارتن لوثر أن « الشركة المتبادلة والتعزية المتبادلة بين الإخوة » واسطة من وسائط النعمة ، ومن المؤسف أننا لا نجد مجالًا لهذه الواسطة فى مجتمعاتنا الحديثة وبخاصة فى الكنائس الكبيرة التى تقل فيها اللمسات الشخصية والتعارف الأخوى بين الأعضاء ، والتى يقتصر فيها اجتماع الكنيسة على خدمة صباح الأحد ، وبذلك يفقدون فرصة التعرف على بعضهم البعض عن قرب ، والتمتع بمزايا هذه الشركة . ويذكر إميل برونر أن كنيسة العهد الجديد لم تكن « مؤسسة » ولكنها كانت « شركة محبة » (Koinonia) . إن الكنيسة قبل أن تكون نظاماً هى شركة محبة وعلاقة بين الأشخاص اذ تعبر عن إيمانها بالمحبة والأخوة بين المؤمنين[٢٣] .

وعلى هذا الأساس الذى أوضحناه ، نستطيع أن نرى أن مسئولية الكنيسة الأخلاقية تتضمن ما يلى ...

(١) أن ترعى الحياة الروحية لأعضائها باستخدام وسائط النعمة التى توفرها لهم – وفى ضوء ما أوضحنا من أهمية النعمة الإلهية فى الحياة الروحية ، نستطيع أن نرى كيف يمكن أن تكون الكنيسة شيئاً لا غنى عنه إذا كانت فعلا تحرص على توصيل وسائط النعمة لأعضائها – ومع أن نمو الفرد الروحى ونضج شخصيته يرجعان إلى عوامل أكثر من ذلك بلا شك ، إلا أن التاريخ الكنسى يبين لنا أن أعظم المسيحيين كانوا من الأوفياء الملتزمين للكنيسة ، لذلك فمن واجب كل فرد أن يجعل علاقته بالكنيسة قوية وعريضة وعميقة ، لا مجرد علاقة شكلية أو اسمية ، فإنه فى حاجة إلى تشجيع وشركة وتوجيه الإخوة فى الكنيسة .

(٢) وواجب الكنيسة الأخلاقى الثانى هو أن تنشّط وتنمى روح المحبة فى علاقات المسيحيين بغيرهم ممن هم خارج الكنيسة – ومن الطبيعى أن المسيحى يحب « الإخوة » الذين

يشتركون معه فى الإيمان والحياة ، ويجد ذلك أيسر وأسهل من محبته لغيرهم ؛ لكن المسيحى يجب أن يحذر من الإسهام فى صيرورة الكنيسة مجتمعا منغلقا على ذاته – ومن المؤسف أن كنائس كثيرة فيها هذا العيب الخطير الذى يتنافى مع روح المحبة المسيحية . (وفى دراسة أخرى سنجد تفصيلا لمعنى المحبة المسيحية) .

إن الكنيسة – وإن كانت جماعة وشركة روحية ، من خلالها تعمل نعمة الله فى أفرادها ، لكنها فى نفس الوقت جزء من النسيج البشرى . وكثيراً ما تتعرض الكنيسة لخطية الكبرياء الجماعية ، وتكون جماعة طاردة للغير ، فى الوقت الذى يجب فيه أن تكون ملحاً للأرض ونوراً للعالم وقلباً كبيراً يعبّر عن طبيعة الآب السماوى الذى يفتح صدره للجميع ، ويشرق شمسه ويرسل مطره على الجميع بلا استثناء .

ونتيجة لهذا الإنغلاق فإن الكنيسة تنشغل أكثر مما ينبغى بحياتها الداخلية ونظامها وصالحها الخاص ونشاطاتها المحدودة ، وبذلك تنعزل عن حياة ومشكلات المجتمع الذى تعيش فيه ، فتفقد رسالتها وتتخلى عن مسئوليتها إزاء العالم . وهى إما أن تحوّل أعضاءها إلى سلبيين ومنغلقين عن العالم الذى يعيشون فيه ، فتصبح شخصية المسيحى باهتة غير مؤثرة ؛ أو أن تخلق فى أعضائها نوعاً من انفصام الشخصية ، فيعيش الواحد منهم بشخصية فى داخل الكنيسة واجتماعاتها ونشاطاتها ، وبشخصية أخرى فى نواحى حياته الاجتماعية خارج الكنيسة – وكلا الأمرين خطر على النمو الروحى والاجتماعى للفرد ، وإضعاف لرسالة المسيح فى العالم .

(٣) وواجب الكنيسة الأخلاقى الثالث هو الخروج بالرسالة المسيحية إلى العالم – إن عمل الله الفدائى مستمر فى العالم ، وقوى الشر تعارضه ، لذلك فالكنيسة هى التى يجب أن تنشر رسالة المسيح فى العالم ، والملح الذى يجب أن يذوب لإصلاح حياة العالم ، والنور الذى يجب أن يضىء ظلماته . إن رسالة الكنيسة غير قاصرة على الصلاة لأجل العالم ، بل الخروج إليه – وويل للمستريحين فى الكنيسة ! ! ... إن لهم عملاً يجب أن يؤدوه .

(٤) وفى خروج الكنيسة خارج جدرانها إلى العالم الخارجى ، نجد أيضاً مسئولية الكنيسة فى العمل الاجتماعى . إن محبة القريب لا يجب أن تنحصر فى مجرد علاقات شخصية بين أفراد ، ولكنها يجب أن تترجم فى العلاقات الجماعية بين الطبقات والأجناس والشعوب فى صورة العدالة الاجتماعية ، والثورة على الشرور الاجتماعية لتحقيق الخير والعدالة والمساواة لمختلف الطبقات والجماعات .

إن إنغلاق الكنيسة على نفسها فى الماضى جعلها تفرّق وتميّز تمييزاً زائفاً بين ما يسمى « دينياً » وما يسمى « دنيوياً » ، وتتصور أنها مسئولة عن الأمور الدينية أو ما يسميه البعض « الروحيات » ، وتخلت بذلك عن مسئوليتها الحتمية فى المشكلات الإنسانية أو الأمور المتعلقة بهذا العالم ، مبررةً ذلك بأن مسئولية الكنيسة قاصرة على ما يتعلق بالعالم الآخر فحسب . وسوف نرى فى دراستنا للمسائل الأخلاقية المختلفة أن هذا التمييز وهمى ، ولا يمكن قسمة حياة الإنسان إلى شرائح ، فالإنسان كلٌّ لا يتجزأ ، ويؤثر كل جانب من حياته فى الجوانب الأخرى .

وربما كان التمييز الحاد بين « الكهنة » أو « الاكليريكيين » و « العلمانيين » ، سبباً فى تكريس هذا الاتجاه الإنطوائى أو الانغلاق من جانب الكنيسة ، إذ أن الكنيسة اهتمت بحياتها وشئونها الداخلية ، وزاد سلطان رجال الدين لدرجة جعلت العضو العادى أو « العلمانى » مجرد شخص يتلقى سلبيا ما تقدمه الكنيسة ، بدلاً من أن يكون طاقة حياة مسيحية متحركة فى العالم ... وحتى من تشغلهم الكنيسة من « العلمانيين » ، فإنهم يشتغلون فى أعمال الكنيسة الداخلية كمجرد معاونين أو مكررين لوظيفة رجل الدين ... بينما العلاج هو أن يكون عضو الكنيسة طاقة حياة مسيحية متحركة فى العالم عن طريق وظيفته ، فتكون شهادته ليست مجرد الكرازة أو تقديم الإنجيل إلى ممن يتصل بهم بنشرة أو نبذة أو بكتاب ، بل بتطبيق القيم المسيحية والدعوة لها فى المجال السياسى والاقتصادى والوصول إلى حلول راقية لمشكلات العالم المعاصر .. وإذ يتغذى العضو المسيحى من كلمة الله ، وينمو فى عبادته وإدراكه لأبعاد الحياة المسيحية ، ويتقبل النصح الملائم من رجل الدين الواعى ، يخرج إلى الحياة بطاقة مسيحية يُعبِّر عنها فى مجال وظيفته اذ يطبق القيم المسيحية .

بذلك تستطيع الكنيسة عن طريق أبنائها فى مختلف ميادين الحياة – أن تغيّر المجتمع ، وذلك بأن تنظر إليه نظرة نبوية فتدين الشرور ، وتتعمق فى فهم مشكلاته والأبعاد الأخلاقية لأسبابها ، وبدلاً من أن تقف موقفا سلبيا أو راضياً عن الشرور الاجتماعية ، تكون نوراً يكشف الخطأ ، وملحاً يعطى مذاقاً خاصاً ... وهكذا تكون كما أرادها المسيح فى العالم وليست من العالم .

٦ – حياةٌ مشدودة دائماً :

وفى ختام حديثنا عن الحياة المسيحية ، نريد أن نوضح أنه يبدو لنا أن حياة المسيحى تبدو دائماً حياة مشدودة ، لأنها تجمع دائماً بين الأضداد ، وتوازن بينها ، فهى ظاهرية التناقض

لأنها تبدو كأنها تجمع مظاهر أو صفات متناقضة وعلى سبيل المثال فهى تهتم بهذا العالم وفى نفس الوقت تهتم بالعالم الآخر ... والإنسان يحيا حياته فى الزمن ، لكنه فى نفس الوقت متعلق بالأبدية التى لا زمن لها ، ومن الناحية الأخلاقية نستطيع أن نرى وجهين للحق ، وكلاهما صحيح وهام . فالمسيحى يسعى نحو القداسة أو الصلاح الكامل ، وفى نفس الوقت يسعى إلى ذلك لا بالانطواء والاعتزال عن هذا العالم ولكن بتأدية مسئولياته فى عائلته ووظيفته ومجتمعه ، وكل هذه مشوبة بالنقص ، وتعرّضه للخطأ ... لكنه إذا إنعزل واعتزل يتعرض أيضاً لأنواع أخرى من الخطأ . لذلك فعليه أن لا يحتقر مسئولياته اليومية التى قد يشعر أنها أقل مستوى من تطلعاته الروحية . إنه يجب أن يصلى ليتحقق ملكوت الله على الأرض ، وفى نفس الوقت يحيا كعضو فى هذا الملكوت ويسعى لكى يقود غيره إلى حياة الملكوت فى أثناء حياته وحياتهم على الأرض – ويلاحظ البعض أن مسيحية القرون الأولى والوسطى أهملت الحياة فى هذا العالم تحت تأثير انتظار الحياة الأخرى والنزعة إلى الزهد والتقشف فى هذا العالم . ومن مزايا مسيحية العصر الحديث أنها أعادت الاهتمام بقيم هذه الحياة فى هذا العالم . ورغم ذلك فالمسيحى يجب أن يتخطى الحاضر فى نظرته ويتطلع إلى المستقبل بإيمان ورجاء ، فإن الحياة هنا مشوبة بالنقص والقصور ، وتطلعات المسيحى الأخلاقية والاجتماعية لن تتحقق هنا بالكمال المرجو ، لأن قصور الفرد المسيحى نفسه ومقاومة الغير تحد وتقلص من مسيرة التقدم نحو الكمال ... وأحياناً يخيَّل إلى الإنسان أن الموت يعوقه عن تحقيق آماله بالنسبة لتطلعاته نحو الكمال . إنه يرى أمامه صورة للكمال لكنه لا يستطيع أن يصل إليها ، وما أشبهه بموسى الذى سمح له الله أن يصعد إلى رأس الفسجة ويرى أرض الميعاد التى جاهد للوصول إليها ، يراها بعينيه ، لكنه يُحرم من الدخول إليها (تث ٣ : ٢٧) .. لهذا فإنه رغم أهمية الاهتمام بمسئولياتنا فى هذا العالم ، فإن من الضرورى أن يُدعَّم هذا الاهتمام برجاء الحياة الأبدية .

وحياة المسيحى تتميز بالسلام والفرح ، لكنها أيضاً حياة جهاد وألم . ولقد أوضح بولس الرسول أن الفرح وهو من ثمر الروح القدس ، يمكن أن يناله المسيحى بالألم وإنكار الذات ، كما شرح لنا السيد المسيح الحياة عن طريق الموت ...

فالسلام والغبطة من المظاهر الجوهرية للحياة المسيحية . والغفران يطرد القلق الذى يصاحب الخطية ، وإذ يتصالح الإنسان مع الله ، ينال سلاماً معه ، ومع نفسه ومع قريبه -- وهكذا ينال نصيبا فى الشركة مع الله وهو خيره الأسمى وفرحه الحقيقى ... إلا أن هذا لا يعنى أن حياة المسيحى تتميز بمشاعر السلام والفرح دائماً ، ذلك لأن حياة الإنسان فى صراع دائم مع الشر من الداخل ومن الخارج ، لذلك لا نتوقع أن يعيش المسيحى حياة

لا تزعجها المنغصّات : إن سلام الله « الذى يفوق كل عقل » هو سلام فى وسط الصراع .
إن سلام المسيحى لا يأتيه من تجنب المسئوليات وتقلبات الحياة فى التاريخ ، ولا يأتيه من تناسقه مع الطبيعة وانسجامه مع ما حوله ، ولا يأتيه من اعتزاله وانفراده فى شركة متصوفة مع الله ؛ إنما يأتيه السلام فى وسط مخاوف الحياة ومآسيها عن طريق إيمانه بأن هناك ضمانا نهائياً يبقى فوق المخاوف والمآسى ، ويتجاوزها ، هذا هو الله ، صخر الدهور .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

مراجع الباب الثالث

الإنسان فى المسيحية

(1) Baker, Hershel, **The Dignity of Man,** Cambridge: Harvard University Press, 1947.

(2) Huxley, Julian, **Man Stands Alone,** New York: Harpers, 1941.

(3) Niebuhr, R., **The Nature and Destiny of Man,** Vol. I, New York: Scribners, 1941, p. 152

(4) Ibid., p. 181

(5) Brunner, Emil, **Man in Revolt,** Westminster Press, 1947, pp. 319 - 322

(6) Thomas, George, **Christian Ethics and Moral Philosophy,** New York: Charles Scribners Sons, 1955, pp. 165 - 166

(7) Niebuhr, R., **The Children of Light and the Children of Darkness,** New York: Charles Scribners Snow, 1944, pp. 20 - 22

(8) Acquinas, **Summa Theologica,** I - II, p. 85

(9) Niebuhr, R., **Nature and Destiny of Man,** Vol. I p. 269

(10) Acquinas, op. cit., p. 80

(11) Rauschenbush, W., **A Theology for the Social Gospel,** New York: Macmillan, 1918, chs. 8, 9

(12) Temple, William, **Christianity and Social Order,** New York: Penguin Books, 1941, p. 14

(13) Brunner, Emil, **Man in Revolt,** Westminster Press, 1947, pp. 131 - 132

(14) Niebuhr, op. cit., I, ch. 7

(15) Thomas, George, op. cit., pp. 185 - 189

(16) Niebuhr, R., op. cit., I. ch. 9

(17) Temple, William, **Nature, Man and God,** London: Macmillan Co., Lectures 9, 11

(18) Aulen, Gustav, **The Faith of the Christian Church,** Philadelphia: Muhlenberg Press, 1948, p. 290

(19) Ibid., pp. 242 - 243

(20) Augustine, **On Nature and Grace,** ch. 57

(21) Augustine, **An Grace and Free Will,** ch. 10

(22) Aulen, op. cit., p. 341

(23) Brunner, Emil, **The misunderstanding of the Church,** London: Lutterworth Press, 1952, p. 10

قال الفيلسوف قديما .. إن الدهشة هى أم الفلسفة ، أى أن الكثير من الأشياء التى تثير تساؤل الإنسان وحيرته هى التى تجعل منه .. فيلسوفا .

ونحن لسنا بصدد حديث عن الفلسفة ، وإنما عن ذلك الجانب الآخر وهو التساؤل ، فهناك العديد من التساؤلات التى تواجه الإنسان ، قد يجد لها اجابة مقنعة شافية وقد لا يجد تلك الإجابة ، إلا أنه على الأقل قد تساءل ..

وفى الكتاب الذى بين يديك ياعزيزى يتعرض الكاتب للعديد من تلك التساؤلات التى تدور بفكرك وتشغلك . وهو ينهج فى ذلك مبدأ مقابلة الحجة بالحجة مستنداً على كلمة الله .. إنه دراسة متعمقة قيمة أثرى بها مكتبتنا العربية التى نحس جميعا بأنها فى حاجة إلى هذه النوعية من الكتب التى تخاطب الفكر والقلب ، والتى يقدمها لنا دارسون متخصصون .

الناشر


Bibliotheca Alexandrina
02571564



١٠١٠٢٧١٣